مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد التاسع والخمسون

ربيع الآخر ١٤٤٢هـ

www.imamu.edu.sa
e-mail : arabicjournal@imamu.edu.sa

رقم الإيداع :٣٥٦٣ / ١٤٢٩ بتاريخ ١٩ / ٠٦ / ١٤٢٩هـ
الرقم الدولي المعياري (ردمد) ٤١٩٨ ـ ١٦٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المشرف العام
الأستاذ الدكتور/ أحمد بن سالم العامري
معالي رئيس الجامعة

نائب المشرف العام
الأستاذ الدكتور/ عبدالله بن عبدالعزيز التميم
وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

رئيس التحرير
الأستاذ الدكتور/ سعود بن عبد العزيز الخنين
الأستاذ في قسم النحو والصرف وفقه اللغة - كلية اللغة العربية

مدير التحرير
الدكتور/ إبراهيم بن ناصر بن محمد الشقاري
وكيل عمادة البحث العلمي

أعضاء هيئة التحرير

أ.د. إبراهيم بن عبد العزيز أبو حيمد
الأستاذ في قسم علم اللغة التطبيقي – معهد تعليم اللغة العربية

أ.د. إبراهيم بن محمد أبا نمي
الأستاذ في قسم الأدب – كلية اللغة العربية

أ.د. محمد أحمد الدالي
الأستاذ في قسم علم اللغة – كلية الآداب – جامعة الكويت

أ. د. محمد محمد أبو موسى
الأستاذ في قسم البلاغة والنقد – كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر

أ.د. نوال بنت إبراهيم الحلوة
الأستاذ في قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

أ. د. يوسف بن عبد الله العليوي
الأستاذ في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي – كلية اللغة العربية

أ.د. ممدوح إبراهيم محمود
أمين تحرير مجلة الجامعة - عمادة البحث العلمي

قواعد النشر

مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العلوم العربية) دورية علمية محكمة، تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة. وتُعنى بنشر البحوث العلمية وفق الضوابط الآتية :

أولاً : يشترط في البحث ليقبل للنشر في المجلة :

١- أن يتسم بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه .

٢- أن يلتزم بالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتبرة في مجاله .

٣- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج .

٤- أن يتسم بالسلامة اللغوية .

٥- ألا يكون قد سبق نشره .

٦- ألا يكون مستلاً من بحث أو رسالة أو كتاب، سواء أكان ذلك للباحث نفسه، أم لغيره .

ثانياً : يشترط عند تقديم البحث :

١- أن يقدم الباحث طلباً بنشره، مشفوعاً بسيرته الذاتية(مختصرة) وإقراراً يتضمن امتلاك الباحث لحقوق الملكية الفكرية للبحث كاملاً، والتزاماً بعدم نشر البحث إلا بعد موافقة خطية من هيئة التحرير .

٢- أن يكون البحث في حدود (٥٠) صفحة مقاس (A 4) .

٣- أن يكون حجم المتن (١٧) Traditional Arabic، والهوامش حجم (١٤) وأن يكون تباعد المسافات بين الأسطر (مفرد) .

٤- يقدم الباحث نسخة مطبوعة من البحث، ونسخة حاسوبية مع ملخص باللغتين العربية والإنجليزية، لا تزيد كلماته عن مائتي كلمة أو صفحة واحدة .

ثالثاً: التوثيق :

١- توضع هوامش كل صفحة أسفلها على حدة .

٢- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث .

٣ - توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط المحقق في مكانها المناسب .

٤ - ترفق جميع الصور والرسومات المتعلقة بالبحث، على أن تكون واضحة جلية .

رابعاً : عند ورود أسماء الأعلام في متن البحث أو الدراسة تذكر سنة الوفاة بالتاريخ الهجري إذا كان العَلَم متوفى .

خامساً : عند ورود الأعلام الأجنبية في متن البحث أو الدراسة فإنها تكتب بحروف عربية وتوضع بين قوسين بحروف لاتينية، مع الاكتفاء بذكر الاسم كاملاً عند وروده لأول مرة .

سادساً : تُحكَّم البحوث المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين من المحكمين على الأقل.

سابعاً : تُعاد البحوث معدلة، على أسطوانة مدمجة CD أو ترسل على البريد الإلكتروني للمجلة .

ثامناً: لا تعاد البحوث إلى أصحابها، عند عدم قبولها للنشر .

تاسعاً : يُعطى الباحث نسختين من المجلة، وعشر مستلات من بحثه .

عنوان المجلة :

جميع المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة العلوم العربية

الرياض ١١٤٣٢- ص ب ٥٧٠١

هاتف : ٢٥٨٢٠٥١ - ناسوخ (فاكس) ٢٥٩٠٢٦١

www. imamu.edu.sa

E.mail: Arabicjournal@imamu.edu.sa

المحتويات

الشيخ عبد الله الصالح الفالح (حياته وأدبه) (١٣٤٥هـ. ١٤٣٣هـ) **د. سلطان بن سعد السلطان**	١٣
رسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشي العاذل **"دراسة تداولية حجاجية"** **د. أسماء بنت عبد العزيز بن محمد الجنوبي**	١٢٩
الارتجال في شعر المتنبي: موضوعاته وتشكلاته **د. فواز بن عبدالعزيز اللعبون**	١٦٩
حدود الأدبية في نصوص الرحالين العرب "مقاربة نظرية" **د. إبراهيم بن علي الدغيري**	٢٧٧
دلالة الفعل كاد وحال خبرها بين النحاة والمفسرين **د. صلاح بن عبدالله ين عبدالعزيز بوجليع**	٣٠٧

الشيخ عبد الله الصالح الفالح (حياته وأدبه)
(١٣٤٥هـ - ١٤٣٣هـ)

د. سلطان بن سعد السلطان
كلية العلوم والدراسات الإنسانية بحريملاء
جامعة شقراء

الشيخ عبد الله الصالح الفالح (حياته وأدبه) (١٣٤٥هـ - ١٤٣٣هـ)

د. سلطان بن سعد السلطان

كلية العلوم والدراسات الإنسانية بحريملاء
جامعة شقراء

تاريخ تقديم البحث: ١٧/ ٢/ ١٤٤١ هـ تاريخ قبول البحث: ١٠/ ٢/ ١٤٤٢ هـ

ملخص الدراسة:

يعد عبدالله الصالح الفالح (١٣٤٥هـ-١٤٣٣هـ) أحد العلماء والأدباء والشعراء، فكان شعلة نشاط في مقتبل شبابه ومستهل عمره، يخطب في المحافل، ويتقدم في المجامع، في أثناء دراسته في دار التوحيد بالطائف، وفي كلية الشريعة بمكة، وكان حاد الذكاء، متوقد الذهن، ذا صوت شجي، وخط جميل رائق، حاز على إعجاب أساتذته وشيوخه، وبهر زملاءه وأصدقاءه، ولكن تلك المواهب، والهبات سرعان ما خمدت، وغاب وهجها، وآثر صاحبها العزلة والانزواء عن الناس، مكتفياً بوظيفة متواضعة لا تليق بمكانته، يقتات منها ما يقيم أوده، ويصلح شأنه، وعاكفاً على القراءة الحرة، يزجي بها وقته، راغباً عن لقاء الناس إلا مع بعض أصفيائه. عمل في التدريس، ثم انتقل منه إلى وظيفة أمين مكتبة، أمضى فيها باقي حياته الوظيفية حتى تقاعد سنة ١٤٠١هـ.

برع في الشعر بشهادة معاصريه، وكان متأثرا بالنزعة الرومانسية في الأدب، فطغت على شعره، كما هو واضح في النصوص المثبتة في هذا البحث. كانت له فقرة مشهورة في برنامج الندوة الأسبوعية التي تعقد كل ليلة جمعة في النادي الأدبي في دار التوحيد أسماها: (عدسة المعنويات) يحلل فيها شخصية من الشخصيات البارزة في دار التوحيد، سواء أكانت من الطلاب أم من الأساتذة، يورد جوانب القوة والضعف فيها.

وفي هذا البحث ترجمة لهذا العلم المغمور، ونبذة موجزة عن دار التوحيد وكلية الشريعة، ونماذج لما حصلت عليه من شعر الفالح ونثره.

الكلمات المفتاحية: (عبدالله الصالح الفالح -دار التوحيد -كلية الشريعة- الأدب السعودي الحديث - المذهب الرومانسي - عدسة المعنويات - الشعر السعودي - النثر السعودي)

Al sheikh Abdullah Al-Saleh Al−Faleh

(What has remained of his prose and poetry) (1345 H - 1433 H)

Dr. Sultan bin Saad Alsultan
College of Science and Humanities - Huraymila
Shaqra University

Abstract:

Abdulla Elsaleh Elfaleh (1345 – 1445 H) has been classified with poets and men of letters. He was very active in his prime speaking in public and assuming a pioneering role in meetings while studying at Dar Eltawheed in Taif and at the Faculty of Sharia in Mecca. He was very intelligent. His voice was melodious and his handwriting neat. He was admired by his instructors and sheiks. His friends and colleagues were impressed and influenced by him. All these talents and gifts, however soon faded away as Abdulla preferred isolation. He was satisfied with a modest job that does not match his stance. The salary he received was barely enough to survive. He was keen on free reading to make time pass. He avoided meeting with people except for very close friends. He taught for some time before moving to the position of a librarian until his retirement in 1401 H. He excelled in poetry, all his contemporaries gave him credit for this. He was affected by Romanticism. His poetry was very romantic. The texts introduced in this research paper assure this aspect. He appeared weekly on the famous program "Symposium" presented every Friday at the Literary Club. His input came under the title of "Lens of Morale" during which he analyzed outstanding figures of Dar Eltawheed whether they were students or instructors, showing their points of strength and weakness. This research incorporates a biography of this obscure man of letters. It renders also a brief account of Dar Altawheed as well as the Faculty of Sharia. It embraces as well what I managed to obtain from Elfaleh's prose and verse.

key words: Abdulla Elsaleh Elfaleh – Dar Altawheed – Faculty of Sharia – Modern Saudi Literature – Romantic School, Lens of Morale – Saudi Poetry – Saudi Prose..

المقدمة:

يعدُ عبدالله الصالح الفالح من العلماء والأدباء، فقد كان شعلة نشاطٍ في ريق شبابه، ومستهلّ حياته، يخطب في المحافل، ويلقي في المجامع أيام دراسته في دار التوحيد بالطائف، وفي كلية الشريعة بمكة.

وقد وهبه الله مواهب عديدة، فكان حادَ الذكاءِ، متوقدَ الذهن، قوي الذاكرة، حاضر البديهة، ذا صوت شجي، وخط جميل رائق، ولكن تلك المواهب والهبات أطفأ وَهَجَها حُبُّ العزلة والانزواء عن الناسِ، ونكران الذات، واستصغار النفس، فخمدت جذوة تلك المعالم، وآثر صاحبُها العيشَ في الظلّ، يقتاتُ من وظيفة متواضعة، مؤثراً القراءة الحرة على غيرها من ملاذ الحياة، وظل هكذا بعيداً عن الأضواء، زاهداً في لقاء الناس إلا من بعض أصفيائه.

وتقاعد عن العمل سنة ١٤٠٠هـ، وأخذ يتنقل بين مكة وعنيزة، ثم استقر به المقام في مسقط رأسه، ومرتع صباه عنيزة، والتفّ حوله عدد من الطلاب، يقرأون عليه بعض المتون في اللغة العربية. وعاش حياته عزباً حتى توفاه المولى عَز وجل سنة ١٤٣٣هـ.

وفي ظل تقصيرنا تجاه أولئك الأعلام، غابت عنا كثير من أحداث حياتهم، وضاعت منا آراؤهم الثاقبة، ونظراتهم الصائبة، وفقدنا كتاباتهم وإنتاجهم.

وقد أعجبت بسيرة هذا الشيخ، منذ أَنْ قرأت ما قاله عنه الشيخ محمد بن جبير، في لقائه المشهور الذي أجراه معه د- عبدالرحمن الشبيلي، وأبان فيه عن جوانب من شخصيته، فبدأت أجمع مادة هذا البحث، فرجعت من أجل ذلك

إلى الصحف المحلية التي عاصرت فترة دراسة الفالح في دار التوحيد وفي كلية الشريعة، حين كان ينشر إنتاجه، وتصفحتها عددا عددا، وكان الحصول على أعدادها عسيرا، ولكن الله يسره. فتم هذا البحث الذي حاولت فيه أن أترجم للفالح ترجمة تُلقِي بعض الملامح عن حياته وتعليمه ونشاطه الأدبي، كما أثبت بعض النصوص الشعرية والنثرية، التي جاشت بها قريحته، واستطعت الحصول عليها.

ولعل الأيام تكشف عن المزيد من إنتاجه، أسبغ المولى عليه شآبيب الرحمة وأسكنه فسيح الجنات.

وفي الختام أشكر مكتبة الملك فهد الوطنية إذ أتاحت لي الاستفادة من مقتنياتها النادرة، ومنها تسجيل صوتي مع الشيخ الفالح، سجله الأستاذ محمد القشعمي؛ وكذلك بعض الأوراق المخطوطة بيد الشيخ، بارك الله في جهود القائمين عليها.

* * *

مولده ونشأته:

هو عبدالله بن صالح بن محمد بن صالح الفالح، من أهل عنيزة، وأسرة الفالح من سكانها القدماء، وهم من سبيع بني ثور[1]. ووالده صالح، من مواليد عنيزة سنة ١٣٢٠هـ تقريباً، عاش طفولته في عنيزة، ثم غادرها بصحبة والده محمد إلى الشام، وكان صغيراً، وتلَقّى تعليمه الأوَّلي في سوريا، ثم عاد بعدها إلى عنيزة، واستقر فيها فترة. ثم سافر إلى البحرين عام ١٣٣٨هـ وعمل مع التاجر عبدالرحمن القصيبي سبع سنوات، ثم مع التاجر يوسف كانوا، وبعدها عاد إلى عنيزة، وكان عمره آنذاك ثلاثاً وعشرين سنة، وتزوج من امرأة من أهل القصيعة، وأنجبت أكبر أولاده عبدالله –وهو المترجم له – وعبدالرحمن سكن فيما بعد في الدمام، ومحمد، وكان مقيماً في الطائف.

وكان والده محمد الفالح وكيلاً للتاجر محمد العبد الله البسام، وكان من أكبر تجار المواشي في الشام وتركيا ومصر، وكان مقيماً في (سلمة) بالقرب من يافا في فلسطين.

وأما ابنه صالح فقد أقام في عنيزة بعد زواجه، إلى أن جاءته رسالة تفيد بوفاة والده محمد وقد تجاوز التسعين، فرحل ابنه صالح ليصفي حسابات والده، ومداياناته مع بعض التجار في فلسطين، واشترى صالح مزرعة برتقال في حيفا، وكان يزرع فيها البرتقال والشعير والسمسم، وله مواش.

---

(١) انظر: معجم عنيزة: محمد بن ناصر العبودي د –ت (١٨٥/١٢). وانظر: جريدة الجزيرة ـ العدد (٥٦٦٤) – ١٤٠٨/٨/١٤هـ حديث الذكريات بين مصر والشام ـ لقاء مع صالح الفالح، أجراه: محمد الوعيل، (ص٤ – ٥).

وبعد إعلان دولة إسرائيل في حرب ١٩٤٨م رحل صالح إلى مصر، تاركاً مزرعته وأمواله، وفي مصر اشتغل بالخيل، يبيع ويشتري، وارتبط بالشيخ فوزان السابق رحمه الله.

وكان عدد النجديين المقيمين في مصر آنذاك قرابة العشرين، يعملون في تدريب الخيل وإعدادها للسباق، وتزوج هناك بامرأة مصرية أصلها من نجد، وأنجبت له أبناءه عبدالعزيز وسليمان وعبدالمحسن، وقضى في مصر ستين سنة، حتى أشار عليه الشيخ محمد بن عبدالرحمن السديري بالعودة، فعاد إلى المملكة عام ١٤٠٨هـ، وظل طوال تلك الفترة يحتفظ بجنسيته السعودية[١]. وقد توفي في الطائف شهر ذي القعدة عام ١٤١٨هـ، عن عمر قارب المئة[٢].

ولا شك أن هذا الاغتراب الطويل الذي دام ستين سنة قد ألقى بظلاله على شخصية ابنه عبد الله.

أما الشيخ عبدالله فقد ولد في عنيزة سنة ١٣٤٥هـ، ولما بلغ سن الخامسة التحق بالكتاتيب، وتعلم فيها مبادئ القراءة والكتابة[٣] ، ثم التحق بالمدرسة السعودية بعنيزة، وأدْخل السنة الثانية التحضيرية؛ لأنه قد درس القرآن في

---

(١) انظر: الجزيرة- العدد (٥٦٦٤)- ١٤٠٨/٨/١٤هـ- حديث الذكريات بين مصر والشام- (ص٤ – ٥).

(٢) اللقاء الشفهي مع الشيخ عبدالله الفالح- أجراه الأستاذ: محمد القشعمي – ضمن التاريخ الشفهي – من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية.

(٣) انظر: الجزيرة -العدد (١٥٦٩٦)، ١٤٣٦/١٢/٥هـ -مقال : الفقيه العابد والأديب الزاهد عبد الله بن صالح الفالح _ د سامي السلمان-(ص٢٣)

الكتاتيب، وأتقن تلاوته نظراً، وكانت مواد الدراسة سبعاً، ومن أساتذته في تلك الفترة: الشيخ صالح الصالح، والشيخ سليمان الشبل[١].

ولقي من الأستاذ صالح الصالح، اهتماماً وتشجيعاً؛ حيث حبب إليه القراءة الحرة والاطلاع الدائم. ولكنه لم يكمل دراسته الابتدائية؛ حيث وصل إلى الصف الخامس، فلم يكن في المدرسة صف سادس بسبب ضَعْفِ الإمكانات، آنذاك[٢].

وكان من زملائه في تلك المدرسة: د. عبدالعزيز الخويطر، وسليمان العبد العزيز الزامل، وصالح العبد العزيز النعيم، وعبد الله اليحيا، وعبد الله الوابل، وصالح الزغيبي وغيرهم[٣].

وبعد إتمامه الصف الخامس، أخذ يحضر دروس الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي[٤]، وكان في الرابعة عشرة من عمره أو الخامسة عشرة. وظل يغرف من علمه من سنة ١٣٥٩هـ، إلى سنة ١٣٦٤هـ، فقرأ عليه كتاب الروض المربع - وهو كتاب من كتب الفقه الحنبلي - قرأه عليه سبع مرات، كما قرأ عليه في

---

(١) وسم على أديم الزمن- د. عبدالعزيز الخويطر -مطبعة سفير. الرياض. الطبعة الثانية - ١٤٢٧هـ، - (٣٥٩/١).

(٢) انظر: الجزيرة - العدد (١٥٦٩٦) - ١٤٣٦/١٢/٥هـ- مقال سابق - د. سامي السلمان.(ص٢٣)

(٣) وسم على أديم الزمن- (٣٥٩/١).

(٤) انظر: اللقاء الشفهي الذي أجراه: محمد القشعمي مع الشيخ.

التفسير والحديث والتوحيد. وكان – خلال دراسته –يتولى مكتبة عنيزة التي في الجامع، والتي كان يشرف عليها الشيخ السعدي[1].

ومن زملائه الذين درسوا على الشيخ: عبد الله بن عبد الرحمن البسام، وأخوه صالح، ومحمد بن إبراهيم البطحي، وعبدالعزيز المسلم، وإبراهيم بن محمد القاضي. وصالح الصالحي[2].

(١) انظر: كتاب الشيخ محمد بن إبراهيم بن جبير د. عبد الرحمن الشبيلي- الطبعة الثانية – ١٤٣٢ هـ (ص٤٤). انظر: معجم عنيزة (١٨٨/١٢) والجزيرة – العدد (١٥٦٩٦) ١٤٣٦/١٢/٥هـ، مقال سابق د- سامي السلمان.(ص٢٣)

(٢) انظر: اللقاء الشفهي الذي أجراه محمد القشعمي مع الشيخ.

تعليمه: أ– في دار التوحيد:

في ١٣٦٤/١/٢٦هـ، أصدر الملك عبد العزيز أمره بافتتاح دار التوحيد، وربطها بالشعبة السياسية بالديوان الملكي، وكان من أهداف هذه الدار الرئيسة تخريج دعاة وقضاة للدعوة إلى دين الله، والحكم بين الناس. وكان قبول الطلاب من سن الخامسة عشرة إلى الخامسة والعشرين.

وشُكلت لجنة لاختيار الطلاب، فكان منهم الشيخ عبدالله بن محمد بن عامر لاختيار طلاب القصيم، والشيخ محمد بن راشد لاختيار طلاب الرياض والوشم وسدير. ثم أرسل الملك عبدالعزيز سيارة إلى القصيم لنقل الراغبين في الالتحاق بدار التوحيد، ومنهم عبدالله الصالح الفالح، ولما بحثوا عن شهادته الابتدائية وجدوا أنه لم يحصل عليها كما مر، فأجروا له اختباراً شفيهاً فقُبل(١). وانتظم في الدار خمسة وأربعون طالباً يمثلون الدفعة الأولى عام ١٣٦٤هـ(٢).

وكان رئيس الدار الشيخ محمد بهجت البيطار، وكان يدرس التفسير والصرف. ومن أساتذته في الدار: الشيخ عبدالله الصالح الخليفي، وكان يدرس

---

(١) انظر: دار التوحيد نقوش في ذاكرة التعليم والمجتمع –شهادات وتجارب بأقلام أبناء دار التوحيد _ لجنة الاحتفال بمرور خمسين عاماً على تأسيس دار التوحيد . طبع ١٤١٦هـ(ص٨). والجزيرة – العدد (٨٢٩٤) – ١٤١٦/١/٢٦هـ. ذكريات الـ ٥٠ عاماً في دار التوحيد(ص١١) وانظر: دار التوحيد في ميزان التاريخ . صالح بن غازي الجودي – الطبعة الأولى ١٤١٥هـ (ص٩) ودار التوحيد تطور تعليمي وتغير اجتماعي . د عثمان الصيني – د عايض الثبيتي – د جريدي المنصوري — لجنة الاحتفال بمرور خمسين عاما على تأسيس دار التوحيد . الطبعة الأولى ١٤١٥هـ (ص٧٠).

(٢) انظر: الجزيرة — العدد (١٥٦٩٦) ١٤٣٦/١٢/٥هـ— مقال سابق د. سامي السلمان.(ص٢٣).

الفقه، والشيخ عبد الله المسعري، مدرس التوحيد، والشيخ محمد بن يسار البيطار، والشيخ محمد بن سَيَّاد الفرائضي، وكان يدرس الخط والفرائض[١].

ثم تولى إدارة الدار بعد الشيخ بهجت البيطار ابنه الأستاذ محمد يسار، ثم حلّ محله الشيخ عبدالرزاق الجذيري، قبل أن تُلحق الدار بالمعارف.

وكانت سنوات الدراسة خمساً، وتبدأ كلُّ سنة من محرم، وتنتهي بنهاية شهر شعبان من كل عام، ولكن الطالب المجتهد يسمح له أن يختصرها في أربع[٢]. ومن أولئك: الشيخ الفالح والشيخ محمد ابن جبير. ولم تتوقف المنافسة عند التفوق في الدراسة بين طلاب الدار، بل تجاوزت ذلك إلى التنافس على نوعية القراءة، فكانت القراءة الحرة نهماً لديهم[٣].

وقد وفرت الدار لطلابها سبل الراحة والتفرغ لطلب العلم، ففي بداية تأسيسها كان الطالبُ يُعْطَى ستين ريالاً شهرياً، ثم زيدت عام ١٣٦٨هـ، إلى مئة ريال شهرياً[٤]. وتم استئجار منزلين بجوار مبنى المدرسة بحي قروى غربي الطائف؛ أحدهما لسكن الطلاب القادمين من الرياض والوشم وسدير، والآخر

---

(١) انظر: الجزيرة - العدد (٨٢٩٤) ١٤١٦/١/٢٦هـ- ذكريات ال٥٠ عاماً في دار التوحيد،(ص١١)- وكتاب دار التوحيد تطور تعليمي وتغير اجتماعي (ص ٣٧، ٣٨).

(٢) انظر: دار التوحيد في ميزان التاريخ (ص ٩٥). وانظر: اللقاء الشفهي الذي أجراه محمد القشعمي مع الشيخ.

(٣) دار التوحيد تطور تعليمي وتغير اجتماعي (ص ٨٢).

(٤) انظر: الجزيرة -العدد (٨٢٩٤) - ١٤١٦/١/٢٦هـ- ذكريات ال، ٥٠ عاماً في دار التوحيد.(ص١١).

للقادمين من القصيم وحائل الذين حضروا متأخرين عام ١٣٦٤هـ[١]، وكان ترحيل الطلاب في الذهاب والإياب بواسطة سيارات البريد، وعن طريق وزارة المالية، مع صرف أرزاق لهم في الطريق[٢] .

وقد تخرج في دار التوحيد علماء أجلاء، وقضاة، وأدباء، وأساتذة؛كان لهم نصيب كبير في وضع اللبنات الأولى للتنمية في بلادنا[٣].

وفي يوم ١٣٦٦/٨/٢٩هـ، نشرت جريدة أم القرى أسماء الناجحين إلى الصف الرابع في القسم الثانوي من دار التوحيد، وهم: عثمان بن إبراهيم الحقيل، وعبدالله بن محمد الجبير، وحمد بن محمد الشاوي، وعبدالعزيز بن عبدالرحمن آل الشيخ، ومحمد بن إبراهيم الجبير، وعبدالله الصالح الفالح. وهؤلاء هم زملاء الشيخ في الدار. أما طلاب الصف الثاني الثانوي فكانوا: عثمان بن سيار، ومحمد بن صالح المرشد، وصالح العذل، وفهد المارك[٤] .

وفي سنة ١٣٦٧هـ كان عبدالله الفالح من المكملين من الصف الرابع الثانوي إلى الخامس، هو ومحمد بن إبراهيم البطحي[٥].

---

(١) انظر: الجزيرة – العدد (٨٢٩٤) ١٤١٦/١/٢٦هـ- ذكريات، الـ ٥٠ عاماً في دار التوحيد من كلام – د. علي التويجري.(ص١١) .

(٢) دار التوحيد تطور تعليمي وتغير اجتماعي(ص٩٢) .

(٣) انظر: دار التوحيد نقوش في ذاكرة التعليم والمجتمع (ص٨) .

(٤) انظر: أم القرى – العدد. (١١٦٧) ١٣٦٦/٨/٢٩هـ(ص٢) وفهد المارك لم يكمل دراسته.

(٥) انظر: أم القرى – العدد (١٢١٨) ١٣٦٧/٩/٣هـ (ص٢).

وفي عام ١٣٦٨هـ، تخرج عبدالله الفالح في دار التوحيد، ومن دفعته: عثمان الحقيل، وعبدالله الحصين، وحمد الشاوي، ومحمد بن ربيعة، ومحمد بن جبير، ومحمد خالد المدني، وعبدالله الشلاش، وعبدالعزيز بن عبدالرحمن آل الشيخ[١].

ب- في كلية الشريعة:

في عام ١٣٦٩هـ، أمر الملك عبدالعزيز بإنشاء كلية الشريعة بمكة، وكانت الدفعة الأولى من طلبة دار التوحيد قد تخرجت، ومنهم عبدالله الفالح كما مرّ، فالتحقت بكلية الشريعة مكونة الدفعة الأولى بها[٢].

وكان من أساتذتهم في كلية الشريعة: الشيخ محمد متولي الشعراوي، والشيخ محمد محمد أبو شهبة، والشيخ عبدالرحمن عبدالهادي، والشيخ طه الساكت، والشيخ أحمد القط، وغيرهم[٣]، وكانت المكافأة التي يستلمونها في كلية الشريعة ثلاث مئة ريال شهرياً[٤].

وفي ١٣٧٠/٩/١٦هـ، نشرت نتائج الناجحين من طلاب كلية الشريعة السنة الثانية، وكان منهم: عثمان الحقيل[٥] ، وعبدالله الفالح، ومحمد خالد المدني، وإبراهيم الحجي، وعبدالرشيد عطار، ومحمد الجبير، وعبدالحميد فلمبان، ومحمد بن ربيعة، أما الناجحون في السنة الأولى فهم: سعد أبو معطي،

---

(١) انظر: دار التوحيد في ميزان التاريخ (ص١١٢).

(٢) انظر : دار التوحيد تطور تعليمي وتغير اجتماعي(ص٣٠) .

(٣) انظر: اللقاء الشفهي الذي أجراه محمد القشعمي مع الشيخ.

(٤) انظر: المصدر السابق

(٥) لم يكمل دراسته لأنه كان متميزاً، وعُين في القضاء.

وعبدالعزيز المسند، وعبدالرحمن الدخيل، وعثمان بن سيار، وعبدالله بن خميس وغيرهم[١].

وقد اهتمت الصحف آنذاك بأخبار تلك الدفعة، ففي يوم ١٣٧٢/٢/٢٥هـ، نشرت صحيفة المدينة المنورة خبر سفر مجموعة من طلاب عنيزة إلى الحجاز، وهم من طلبة المدارس الثانوية وكلية الشريعة، وهم: عبدالله الصالح الفالح، ومحمد السليمان الشبل، وعبدالله بن عبدالرحمن البسام، وصالح عبد الرحمن البسام، ومحمد بن عبدالله المعتاز، ومحمد بن عبدالرحمن الشامخ، ومحمد المحمد الأصقه، وعثمان الصالح الفريح، وعبدالرحمن بن عبد الله الشهوان[٢].

وفي تلك الفترة أصدر هو وسعد أبو معطي ومحمد خالد المدني جريدة تكتب بخط اليد في بِضْعِ صفحاتٍ، وكانوا ينسخون منها عدة نسخ، يتداولها الطلاب فيما بينهم، وكانت الموضوعات التي تنشر في الجريدة إنشائية لا تُعنى بمضمون محدد، ولما أصدروا العدد الثالث جاءهم أمر من الشيخ محمد ابن مانع بإيقافها دون إبداءِ أسبابٍ لذلك[٣].

وفي شهر شعبان ١٣٧٢هـ، تخرجت أولى الدفعات في كلية الشريعة، وألقى مدير المعارف الشيخ محمد بن مانع كلمة، قال فيها: "إن من حسناتِ جلالة الملك العظيم التي لا تحصى بِعَدٍّ، ولا تُحَدُّ بِحَدٍّ، إقباله على نشر العلم الشريف،

---

(١) انظر: المدينة المنورة – العدد (٣٩٣) – ١٣٧٠/٩/١٦هـ. (ص٢)

(٢) انظر: المدينة المنورة –العدد (٤٥٨) – ١٣٧٢/٢/٢٥هـ. (ص٢)

(٣) انظر: اللقاء الشفهي الذي أجراه محمد القشعمي مع الشيخ.

ومساعدة طلابه بِكُلِّ وسيلةٍ تؤدي إليه، فمن ذلك مدرسة دار التوحيد التي اعترف لها الخبراء بأنها من أرقى المدارس؛ من حيث ترتيب المناهج وذكاء الطلاب وحسن النظام، وقد كانت هذه المدرسة تمدُّ كلية الشريعة كما تمدُّها المعاهد السعودية، ومن لطف الله تعالى أنه قد أكمل الدراسة النهائية في هذه الكلية هذا العام ١٤ طالباً، واستحقوا شهادة العالمية[١].

وناجحو الشهادة النهائية بكلية الشريعة بمكة للدور الأول حسب ترتيب نجاحهم:

عبدالله بن صالح بن محمد الفالح، محمد بن إبراهيم بن عثمان الجبير، عبدالملك بن عبدالرحمن ملا، محمد خالد مصطفى المدني، صالح سالم حامد الكشي، إبراهيم بن محمد الحجي عبدالرشيد محمد عَطَّار، عبدالواحد طاشكندي، محمد بن عبدالعزيز الربيعة، عبدالحميد فلمبان، عبدالحميد عبدالغفور خياط، عبدالله الشلاش، محمد علي عبدالواحد، محمد إبراهيم زاهر[٢].

أخلاقه وصفاته:

كان الشيخ الفالح زاهداً في الدنيا، أشاح عنها بوجهه، وترك زخارفها ومباهجها، وولاها ظهره[٣] مع قدرته أن يكون أحد المبرزين فيها، وكان متواضعاً يحترم غيره، غزير العلم، وواسع المعرفة، وسريع الحفظ، ويتمتع بذاكرة حية

(١) انظر: البلاد السعودية – العدد (١٣٢٨) ١٣٧٢/٨/٢٦هـ.(ص٢)

(٢) انظر: البلاد السعودية –العدد (١٣٢٨) – ١٣٧٢/٨/٢٦هـ(ص٢)

(٣) انظر: الجزيرة – العدد (١٥٦٩٦) ١٤٣٦/١٢/٥هـ – مقال سابق د. سامي السلمان.(ص٢٣)

وقوية[١]، وإذا سئل كانت إجابته وافية، وهو حاد الذكاء، وحاضر البديهة، ومستوعب للمعلومات، ولكن غلب عليه نكرانُ الذات، وعدمُ حبِّ الظهور إلى درجة مخيفة، فلم يعترف أنه متفوق[٢] ؛ وكان في أثناء دراسته لا يذاكر، ورغم هذا كان زملاؤه يسمونه بالرائد. وكان ذا خط رائع، وقراءة شجية جميلة[٣]، وحديثه لا يملُّ، ومجالسته ثرية بالعلم والأدب[٤].

ولم يكن متكلفاً في حياته، بل عاش حياة بسيطة، قضاها ولم يتزوج[٥] ؛ وكان مرهف الحس، لا يحمل حقداً على أحد، ولم ينتقم لنفسه، وكان يحاسب نفسه في كل صغيرة وكبيرة[٦].

وذكر الشيخ محمد ابن جبير: أنه غريبُ الأطوارِ، فمع ذكائه كان يحبُّ الانطواء، وكان في دار التوحيد لا ينجح إلا في الدور الثاني، واستمرعلى ذلك في كلية الشريعة أيضاً؛إلا أنه في آخر سنة اجتهد، وصار الأول على دفعته[٧].

---

(١) انظر: الجزيرة – العدد (١٤٤٢٦) ١٤٣٣/٥/٥هـ –مقال : الشيخ عبد الله الصالح الفالح، الشيخ الذي أفل، خالد بن محمد الهويش.(ص٢٦)

(٢) انظر: اللقاء الشفهي الذي أجراه محمد القشعمي مع الشيخ، من كلام أبي قصي إبراهيم التركي، وانظر: الجزيرة –العدد (١١٩٨١) ١٤٢٦/٦/١٣هـ– مقال :الشيخ الفالح والتغني بحب الوطن – د – عبدالله الصالح العثيمين.(ص٢٠)

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: المصدر السابق.

(٥) انظر: الجزيرة – العدد (١٤٤٢٦) ١٤٣٣/٥/٥هـ –مقال سابق– خالد الهويش.(ص٢٦)

(٦) انظر: الجزيرة –العدد (١٥٦٩٦) ١٤٣٦/١٢/٥هـ– مقال سابق _ د، سامي السلمان.(ص٢٣)

(٧) انظر: كتاب الشيخ محمد بن إبراهيم بن جبير– د، عبدالرحمن الشبيلي، (ص٤٥)

وأسهب عبدالعزيز السالم في وصف خلاله وشمائله، فقال: "فمع تدينه العميق وسمته الوقور، فإن مجلسه أنيس، وحديثه رائق، وصوته هادئ، والجلوس معه ماتع لا يملُ، لأنه مفيد، فعلمُهُ غزير، وثقافته واسعة[١].

وأرجع صديقه الشاعر عثمان بن سيار سبب توقفه عن الإنتاج الأدبي واعتزال الناس –أرجعه إلى عارض نفسي أصابه[٢].

ثقافته:

جمع الشيخ الفالح بين العلوم الدينية والعلوم اللغوية والأدبية، فبرز فيها جميعاً، وكان قارئاً نهماً، مغرماً بقراءة المجلات المصرية، مثل: الهلال التي كان يحجزها عند وكيلها في الطائف مصطفى الرسيني، وكان محلُّه في برحة القزاز، وكان وكيلاً لمكتبة الثقافة في مكة، فكان الشيخ عبدالله يحجز عنده كل مصروفه[٣]، وكان يتابع بشغفٍ مجلتي الرسالة والثقافة، يتضح ذلك من رسالته التي بعث بها إلى رئيس تحرير مجلة الثقافة[٤]. وستأتي في توثيق نثره. فضلًا عن

---

(١) انظر: الجزيرة – العدد (١٢٢٤١) – ١٤٢٧/٣/٦هـ –مقال : الناسك الذي عاش في الظل – عبدالعزيز بن عبدالله السالم.(ص١٣) .

(٩) انظر: الجزيرة – العدد (١٢٢٤١) – ١٤٢٧/٣/٦هـ –مقال : الناسك الذي عاش في الظل – عبدالعزيز بن عبدالله السالم.(ص١٣).

(١٠) انظر: المسائية العدد(٣٧) ١٤٠٢/٣/٧هـ اللقاء الذي أجراه محمد الوعيل مع عثمان بن سيار.(ص٤)

(٢) انظر: المسائية العدد(٣٧) ١٤٠٢/٣/٧هـ اللقاء الذي أجراه محمد الوعيل مع عثمان بن سيار.(ص٤)

(٣) انظر: كتاب الشيخ محمد بن إبراهيم بن جبير– د. عبد الرحمن الشبيلي، (ص٤٥)

(٤) انظر: مجلة الثقافة– أحمد أمين – القاهرة – العدد (٦٣٢) ١٣٧٠/٤/٢٨هـ، (ص٣١).

شغفة بقراءة الصحف المحلية التي كانت تصدر آنذاك مثل: البلاد السعودية، والمدينة المنورة[١]، حتى امتلأت غرفته بالكتب والمجلات والصحف المتناثرة.

ولم تكن قراءته قراءة عابرة، بل كان يُدَوِّنُ، ويُعلق على بعض ما يقرؤه من كتب أو مجلات، ويضع تدويناته في الهوامش، وربما جاءت بعض التعليقات شعراً[٢].

وقد تأثر كثيراً بأبي العلاء المعري وخاصة في اعتزال الناس، ويدلُّ على ذلك كثرة اختياراته من شعره الذي يدعو إلى العزلة وترك الخلطة، من أمثال قوله:

بُعْدي عن النَّاس خيرٌ من لقَائِهم وقُربُهم للحجى والدّين أدْوَاء[٣]

وكان معجباً بشعر الشاعر المصري محمود عماد، والشاعر الرومانسي إبراهيم محمد نجا، ويحفظ لهما ولغيرهما الكثير، وقرأ كثيراً لعباس محمود العقاد، وميخائيل نعيمة[٤].

وكان يحرص على حضور الندوات الأدبية التي تعقد في مدرسةِ تحضير البعثات، والمعهد السعودي بمكة، والتي يشارك فيها بعض أدباء الحجاز

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: الثقافية (ملحق الجزيرة) – العدد (٢٢٣) ١٤٢٨/١١/٩هـ- مقال : (موكب النور) نص عمره أكثر من نصف قرن،- عبدالمحسن الحقيل.(ص٦)

(٣) مسودات أوراق بخط الفالح. (من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية).

(٤) انظر: المصدر السابق،من كلام أبي قصي إبراهيم التركي.

وعلمائها، لأنه كان يقيم في مكة أكثر أيام السنة[١]، بل يحفظ بعض المساجلات التي تمت بين محمد حسن عواد والشاعر حمزة شحاته[٢].

نشاطه الأدبي:

حرص طلاب دار التوحيد على تكوين نادٍ أدبي، يعرضون فيه نتاجهم الأدبي من شعر ونثر، وقصص وتاريخ، فكان منتدى ثقافياً، ومنبراً خطابياً، جمعوا فيه إلى جانب المتعة واللذة والأنس، جانب التثقيف، وصقل المواهب[٣]، وبناء الشخصيات المؤثرة، وكانوا يدعون إليه علية القوم من أدباء وشعراء ومتخصِصين، واختاروا الطالب عبدالله بن محمد ابن خميس، رئيساً للنادي، فطوَّره، ورفع من شأنه، وأعلى من مستواه[٤]. ثم خلفه سعيد بن جندول ثم أعقبه عبدالله البطاح[٥]. وكان من المشاركين فيه: عبدالله الفالح، وعثمان بن سيار، وعبدالله الجبير، ومحمد بن عبدالعزيز الربيعة، وعبدالعزيز التويجري، ومحمد الخيال وغيرهم[٦].

---

(١) انظر: اللقاء الشفهي الذي أجراه محمد القشعمي مع الشيخ، من كلام محمد بن إبراهيم البطحي وأبي قصي إبراهيم التركي.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: الجزيرة – العدد (٨٢٩٤) – ١٤١٦/١/٢٦هـ – ذكريات الـ ٥٠ عاماً في دار التوحيد.(ص١١)

(٤) انظر: المصدر السابق.

(٥) انظر: البلاد السعودية – العدد (١١٤٣) ١٣٧١/٥/٢٥هـ (ص٢)، والبلاد السعودية – العدد (١٤٩١) ١٣٧٣/٧/٤هـ.(ص٢)

(٦) انظر: الجزيرة – العدد (٨٢٩٤) – ١٤١٦/١/٢٦هـ – ذكريات الـ ٥٠ عاماً في دار التوحيد.(ص١١)

وكان يقام ليلة الجمعة من كل أسبوع، في الصالة الكبرى بمبنى السكن الداخلي للطلاب[١].

وفي شهر جمادى الآخرة عام ١٣٦٨هـ، شكلت لجنة المسامرات الأدبية من طلاب دار التوحيد برئاسة عبدالله بن خميس، لفحص الكلمات والقصائد التي تُلْقَى، وَعُيِّنَ سعيد بن جندول سكرتيراً للجنة ومساعداً للرئيس[٢].

وفي يوم ١٣٦٩/٦/١٨هـ، أعلن عبد الله بن خميس رئيس النادي أنه عازم على طبع ما ألقوه في النادي من المحاضرات تقديراً لجهودهم[٣].

ومن صور النشاط الثقافي الذي احتضنه هذا النادي، ما أقيم في إحدى أمسياته عام ١٣٦٩هـ، حيث أقيمت مناظرة بين الشعر والنثر، أيهما أجدى على المجتمع، وألصق بالحياة في شتَّى مرافقها؟ وكان رئيس المناظرة الأستاذ محمد نائل، فألقى كلمة، شرح فيها ما للمناظرات من أهمية كبرى في شحذ الأفكار وتنمية الملكات، وكان الطلاب عبدالله بن خميس، وأحمد المنصور، وإبراهيم بن عبدالوهاب في جانب الشعر، وكان سعد أبو معطي، ومحمد المرشد، وعبدالعزيز الربيعة في جانب النثر، وأخذ كل طالب يدلي بحجته. وفي ختام المناظرة ألقى الأستاذ رياض هلال قصيدة، بيّن فيها ما للشعر والنثر من مزايا وفضائل، وأنّ كلًّا منهما متمم للآخر. ثم ألقى المعاون الثاني لدار التوحيد الشيخ نسيب

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: المدينة المنورة- العدد (٢٨٩) ١٣٦٨/٦/٩هـ، (ص٢)، والمدينة المنورة- العدد (٢٩٣) ١٣٦٨/٧/٨هـ، (ص ٢).

(٣) انظر: البلاد السعودية - العدد (٩٠٨) ١٣٦٩/٦/٢١هـ.(ص٢)

المجذوب كلمة، ثم ختم مدير المعارف الشيخ محمد بن مانع الحفل بنصيحة قيمة[١].

وكان يحضر تلك الحفلات وكيل أمير الطائف ناصر بن معمر ومدير المعارف الشيخ محمد بن مانع ورجال العلم والتعليم وأساتذة الدار، كما يحضرها طلاب من كلية الشريعة في مكة بعد إنشائها، ومنهم الفالح، وتلقى فيها الكلمات والقصائد، وتقدم التمثيليات، ووعادة ما يستغرق الحفل قرابة الساعتين[٢] .

والغالب أن يكون الحفل عبارة عن فقرات تتوالى، ومثال ذلك ما أقيم في إحدى الليالي، حيثُ بدئ الحفل بالقرآن الكريم، ثم كلمة بعنوان: النظم السماوية، ألقاها عثمان الحقيل، وأعقبتها كلمة لمحمد المرشد، وعنوانها: عند الصباح يَحْمَدُ القوم السرى، تلتها محاضرة عن الشاعر جرير، ألقاها عبد الله الحصين، وبعده ألقى عبدالعزيز التويجري كلمة تحت عنوان: حديث مع الزميل، ثم قام بعض الطلبة وألقوا نشيداً مطلعه: "هذه رؤوس الروابي".

ثم استؤنف الحفل بكلمة لعلي التويجري، عنوانها: نعي ووداع، وألقى عبدالله الحقيل قصيدة: استنهاض الشباب، ثم جاء دور عبدالله الفالح في زاويته المعتادة عدسة المعنويات، تلاها كلمة بعنوان: نظرة في رياض العلم، لعبد الله الوهيبي،

---

(١) انظر: المدينة المنورة – العدد (٣٣٢) – ١٣٦٩/٦/٤هـ. (ص٤).

(٢) انظر: البلاد السعودية– العدد (١١٣٥) ١٣٧١/٥/٧هـ، (ص٣)، انظر: البلاد السعودية– العدد (١٣٠٥). ١٣٧٢/٧/١هـ،(ص٣)، انظر: المدينة المنورة –العدد (٣٣٢) في ١٣٦٩/٦/٤هـ، (ص٤).

ثم ألقى حمد الصالح قصيدة: عنوانها الفضيلة، بعدها ألقى بعض الطلبة نشيد: نحن جند الله، ثم ألقى محمد بن إبراهيم كلمة عن الشباب، وأعقبه سعيد الجندول بكلمة بعنوان: الزائر المجهول، وبعدها قدم بعض الطلبة تمثيلية هادفة. وألقى رئيس النادي قصيدة عنوانها: إلى الروض أيتها البلابل.

ثم تقدم محمد بن خربوش، وألقى قصيدة مخمسة بعنوان: ومضات، نيابة عن قائلها عبدالله الفالح، ثم ألقى الأديب حسن بن عبد العزيز كلمة عنوانها: شخصية زميل، كما ألقى سعد أبو معطي كلمة بعنوان: واعاماه.

وأعقبه نشيد مطلعه:

أنا مهما نأت بي الدار

وخُتم الحفل بتلاوة آي من القرآن الكريم.

وعادة ما يَختم النادي الأدبي فعالياته قُبيل الاختبارات حتى يستعد الطلاب للمذاكرة[١].

وكان للشيخ عبدالله الفالح زاوية معتادة في كلّ حفل كما مرّ قبل، عنوانها: عدسة المعنويات، وفي أول حلقة ألقاها كان عنوانها: هم أولاء كما عرفتهم، (في فوتغراف المعنويات)[٢]، وكان يحلل فيها شخصية من الشخصيات البارزة في دار التوحيد، سواء أكانت من الطلاب أم من المدرسين، فيورد في تلك المشاركة جوانب القوة والضعف في تلك الشخصية من حيث الملاحظة الدقيقة،

(١) انظر: المدينة المنورة -العدد (٢٩٣) ١٣٦٨/٧/٨هـ(ص٢)

(٢) ورقتان مخطوطتان بيد الشيخ، حوتا الحلقة الأولى من هذه الزاوية. من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية.

ويسردها في قالب فكاهي، حتى إن صاحب تلك الشخصية المتحدَّث عنها يتفاجأ بما يُذكر عنه.

قال الشيخ عبدالعزيز المسند: "ولو وقفنا عند هذا العنوان لوجدنا العجب العجاب، فمن أين لهذا الرجل الذي لم يبرح مدينته هذا الشعور، وذلكم الإدراك والتعبير بالعدسة التي هي جزءٍ من آلةِ التصوير، ونسبتها إلى المعنويات، يُدِلُّ على عمق التفكير والغوص إلى أسرار المعاني، وفي ذلك الوقت كلنا لا نعرفُ آلة التصوير (الكاميرا) ولم نرها... "[1]

وقد ذكر الفالح في مقدمته لهذه الزاوية تعريفاً بها، يقول: هذا عنوان نريدُ أن نقدم به كل أسبوع شخصية من شخصيات زملائنا الكرام، نذكر فيها مالهم وما عليهم على سبيل الإجمال، وسيكون ذلك كما عرفهم كاتب هذه السطور وحسب، وقد يكون ما يخفى عليه منهم كثيراً من الناحيتين، وأعني به ناحيتي القوة والضعف في الشخصية، كما أنه سيتوخى الإنصاف في غير ما مداجاة ولا مجاملة؛ إذ هذا هو واجبُ كِلِ ذي ضمير حر، لا يريد إلا الحقيقة، وهي ما تقتضيه الإنسانية السامية، وتحتمه الصفات المثالية، وكل ما نريده هو أن يعرف من نقدمه أننا لا نقصد إلا الخير والصلاح، وأننا نأخذ بمبدأ المساواة، فليحسنوا الظن، وليولونا شيئاً من الثقة والاطمئنان، وعسى ألا نجد منهم من يشك في حسن قصدنا، وهذا هو ما نرجوه، أو بالأحرى نعتقده[2].

---

(١) دار التوحيد نقوش في ذاكرة التعليم والمجتمع، (ص٢٦).

(٢) المصدر السابق.

ثم ذكر أنه سوف يبدأ بنفسه في أولى حلقات زاويته حتى لا يعترض معترض، يقول: "وتحقيقاً لما قد ذكرنا رأى الذي سيقوم على هذه التحليلات أن يبدأ بنفسه، وإن كان من الحق أن يتأخر عن غيره ممن هم أولى بالتقديم، ولكن آثر ذلك ليضرب بنفسه مثلاً لغيره، وليكون أنموذجاً صادقاً، وبالتالي لينتصف من نفسه قبل غيره، وإن كان في هذا متهماً، ولكن إخوانه عرفوه، وسيستمعون لما يقوله".

وكأنه قد تنبأ بما ستؤول إليه زاويته هذه، التي استمرت تعرض كل أسبوع، حتى أوقفت عندما تناول الفالح إحدى الشخصيات فثارت ثائرته، وأُوقِفت تلك الزاوية، يقول:

"فإن كان مجافياً للحقيقة فليوقفوه عند حده، ويعرفوه بنفسه، وهو بذلك راض وسيتقبلُهُ بكل امتنان ورحابة صدر"(١).

ثم شرع يتحدث عن نفسه قائلاً: "وعسى أن يجد الشجاعة الكافية ليقدم نفسه كما هي بغير زيادة ولا نقصان، ليسلم من التهمة، وليخرج من المسؤولية فليكن ذلك:

"عبدالله الصالح الفالح، لا أتعرض لسني عمره، كبيراً كان أم صغيراً، فليس هذا من شأني، وما أنا من المشغولين بالماديات كهذه، وإن كان متقدماً في العمر نسبياً؛ أتدري ماذا أريد بهذه النسبية، ؟ هي النسبة إلى زملائه في

(١) المصدر السابق.

المدرسة... "[1]. وقدعثرت على نصين كاملين يمثلان هذه الزاوية، سيأتين في نصوصه النثرية.

عمله الوظيفي:

لما تخرج الشيخ عبدالله في كلية الشريعة طلب منه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ أن يكون قاضياً في الرياض، فاعتذر، فطلب منه أن يكون مدرساً في معهد عنيزة العلمي، فاعتذر أيضاً؛ لأنه كان يرغب في سكنى مكة المكرَّمة، فعينه الشيخ محمد بن مانع مدير المعارف آنذاك مدرساً في المعهد العلمي السعودي بمكة[2].

والمعهد قديم النشأة وقد أسسته الحكومة بعد فتح الحجاز بقليل، وفيه تَخَرَّج حمد الجاسر، ثم تحول هذا المعهد إلى معهدٍ للمعلمين، لما حرصت الحكومة على تخريج المعلمين[3]. وكان أول راتب تقاضاه عندما درّس في المعهد (٧٠٠ ريال)، وظل يدرس في المعهد مدة، ثم صار أميناً للمكتبة في المعهد نفسه، وبعدها انتقل إلى وظيفة أمين مكتبة في المدرسة الرحمانية المتوسطة التي تقع بالقرب من الحرم المكي، وكانت المكتبة متواضعة، ثم تحول إلى مكتبة المعارف العامة،

وظل بها حتى تقاعد سنة ١٤٠١هـ[4].

---

(١) باقي النص غير موجودٍ.

(٢) معجم أسر عنيزة، (١٨٥/١٢)

(٣) انظر: اللقاء الشفهي الذي أجراه محمد القشعمي مع الشيخ.

(٤) انظر: المصدر السابق.

بعد تقاعده:

تقاعد الشيخ سنة ١٤٠١هـ، وعاش بعدها في عزلة، وخاصة في مكة، يقضي الشتاء والربيع فيها، ويقضي الصيف في عنيزة[١] ، وكانت له جلسات خاصة، يجتمعُ فيها مع بعض أصفيائه الذين يرتاح إلى مجالستهم، مثل: صديقه الشاعر المربي محمد بن سليمان الشبل، ومحمد بن إبراهيم البطحي، ومحمد الصالح الرعوجي[٢]، وكان مجلسه ثرياً يجمع بين الأدب والفكاهة[٣]، وكانت والدته ترعى شؤونه إذا قدم إلى بلده عنيزة، ولما توفيت سنة ١٤٠٣هـ، تقريباً تضاعفت مأساته، وتكالبت عليه الهموم[٤]،

والتف حوله بعض طلبة العلم، وقرأوا عليه كتباً في النحو والتصريف[٥] ، وأصيبت عيناه بمرض، لم يعالجه في حينه، فأدَّى ذلك إلى فقدانه بصره كلياً سنة ١٤٢٢هـ[٦]، فاشتدت مأساته، وازدادت عزلته، وسكن في منزل طيني قديم في إحدى المزارع، لا يوجد فيه من متاع الدنيا شيء يذكر، وأصبح شبه معتكف

---

(١) انظر: معجم عنيزة (١٩٩/١٢)

(٢) انظر: الثقافية (ملحق الجزيرة)- العدد (٣٠٩)، ١٤٣١/٥/٢٢هـ -مقال : الغائب في صمته، د. إبراهيم بن عبدالرحمن التركي.(ص٣)

(٣) انظر: اللقاء الشفهي الذي أجراه محمد القشعمي مع الشيخ.

(٤) انظر: الثقافية (ملحق الجزيرة) -العدد (٢٢٣)، ١٤٢٨/١١/٩هـ مقال سابق . عبدالمحسن الحقيل.(ص٨) وانظر: الرياض - العدد (١٥٩٤١) ١٤٣٣/٣/٢٣هـ ، وفاة الشيخ الفالح.(ص١٦)

(٥) انظر: معجم عنيزة ، (١٩٩/١٢).

(٦) انظر: الثقافية- العدد (٢٢٣)، ١٤٢٨/١١/٩هـ،-مقال سابق . عبدالمحسن الحقيل.(ص٨)

في جامع الشيخ محمد بن عثيمين. ثم أصيب في آخر حياته بآلام في الظهر، ربما حرمته من أداء الصلاة في المسجد[١] . إلا أنّ الله قيَّض له رجلاً وفياً، اسمه: إبراهيم المهنا التركي، لازمه مثل ظِله، يقوده للمسجد، ويرعى شؤونه حتى توفي يوم ١٤٣٣/٣/٢٢هـ، وصُلِي عليه في جامع الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله[٢]، عن عمر ناهز التسعين سنة، أسكنه الله فسيح جناته.

قالوا عنه:

١) قال عنه الشيخ محمد بن جبير: "الشيخ عبدالله الفالح زميل لي في دار التوحيد، وكانت لي به علاقة طيبة، وهذا الشخص غريب الأطوار، فمن الناحية العلمية برز لديه حصيلة علمية كبيرة خاصة في علوم اللغة العربية والبلاغة والعلوم الدينية... تحصيله وكفاءته العلمية فذة، ولافتة للنظر في كل الفنون التي ندرسها، ولكنه كان منطوياً"[٣].

٢) وذكر عنه أيضًا: "كان الطالب عبدالله الفالح يقدم كل ليلة من ليالي النادي تحليلا لشخصية كل طالبٍ من طلاب الدار تحت عنوان "عدسة المعنويات تلتقط صورا لهؤلاء "وقد بدأ بنفسه وحَلَّل شخصيته، وكان تحليله هذا يشدّ الانتباه، ورُبَّما يضحك أحياناً عندما يتعرضُ إلى موقف طريف"[٤].

---

(١) انظر: الجزيرة- العدد (١٥٦٩٦)، ١٤٣٦/١٢/٥هـ – مقال سابق. د: سامي السلمان. وانظر: اللقاء الشفهي الذي أجراه محمد القشعمي مع الشيخ.

(٢) الجزيرة – العدد (١٤٤٢٦) ١٤٣٣/٥/٥هـ- مقال سابق. خالد الهويش.(ص١٩)

(٣) كتاب الشيخ محمد بن إبراهيم بن جبير- د. عبد الرحمن الشبيلي، (ص٤٤)

(٤) دار التوحيد نقوش في ذاكرة التعليم والمجتمع،(ص٨)

٣) ووصفه الدكتور عبد العزيز الخويطر، بأنه: "عبقري لا يجارى، وظهرت عبقريته واضحة عندما التحق بمدرسة دار التوحيد بالطائف، فكان أعجوبة في الذكاء وقوة الذاكرة، وسرعة التحصيل"(١).

٤) وقال عنه عبد العزيز بن عبد المحسن آل الشيخ: "الأستاذ الفاضل عبدالله صالح الفالح، وسميته الأستاذ؛ لأنه يدرسنا، ونحن طلابٌ في القسم الداخلي أو في مسجد الدار، ويحلُّ الخلاف العلمي بين المدرسين"(٢).

٥) ووصفه أيضًا فقال: "وكان لزميلنا وشيخنا عبدالله الصالح الفالح، وأقول شيخنا لأنه كان يدرسنا -وهو طالب معنا -ويُنْهِي الإشكال بين المدرسين في اللغة العربية وغيرها من العلوم. كان لزميلنا المذكور نشاط مفيد، ولديه برنامج خاص اسمه: عدسة المعنويات، يلتقط صوراً لهؤلاء (يعني المدرسين والطلاب)، وكان غاية في الفائدة والمرح وسلامة الصدر"(٣).

٦) وقال عثمان بن سيّار عنه: "كان فلتةً في كل شيءٍ، وعلي الأخصِّ في النقد والشعر والكتابة النثرية، إلاَّ أنه أصيب بعارض نفسي؛ فانصرف عن الأدب"(٤).

---

(١) وسم على أديم الزمن (٣٦٣/١).

(٢) دار التوحيد نقوش في ذاكرة التعليم والمجتمع،(ص٣٧)

(٣) المصدر السابق،(ص٤٠)

(٤) المسائية: العدد -(٣٧)، ١٤٠٢/٣/٧هـ، (ص٤)

٧) قال عنه زميله الأستاذ عبدالعزيز السالم –عندما كان طالباً في دار التوحيد–: "إنه شيخ في هيئة تلميذ، وعالم في صورة طالب"(١).

٨) أما الدكتور عبد الله العثيمين، فقال عنه: "كنت وزملائي في المعهد العلمي في عنيزة، نفرح كثيرا إذا قدم إليها في إجازة الصيف؛ لأننا كنا نرتوي من علمه الغزير، ونستمتع بتعليقاته وملحه اللطيفة"(٢).

٩) وقال عنه إبراهيم بن عبد الله التركي: "كنا نقتنص الفرص لنجلس معه بعض الوقت، فكان يوجهنا ويتحفنا(٣). وفي موضع آخر يُجلي لنا عن إيثاره للعزلة، وسعة علمه، وتنوع معارفه، فقال: "عالم يشار إليه حين يَحِلُّ ذكره، غير أنه اعتزل الناس مبكراً، وانكفأ على عمل رسمي يلائمه. وهو فقيه وشاعر ومحدث، عرف بذكائه وسرعة بديهيته"(٤).

١٠) أما الدكتور سامي السلمان فذهب إلى وصف بعضٍ من خُلقه في الزهد والتواضع، فقال عنه: "لقد ملأتِ القناعة قلب الشيخ، فأعرض عن متع الدنيا كلها، فرضي منها بميسور العيش، واكتفى منها بما يقيم أوده، ويحفظ

---

(١) انظر: الجزيرة – العدد (١٥٦٩٦) ١٤٣٦/١٢/٥هـ– مقال سابق د. سامي السلمان.(ص٢٣)

(٢) الجزيرة،–العدد (١١٩٨١) ١٤٢٦/٦/١٣هـ،– مقال سابق د. عبد الله العثيمين.(ص٢٠)

(٣) اللقاء الشفهي الذي أجراه محمد القشعمي مع الشيخ.

(٤) انظر: الثقافية (ملحق الجزيرة) – العدد (٣٠٩) ١٤٣١/٥/٢٢هـ–مقال سابق د. إبراهيم بن عبد الرحمن التركي،(ص٣)

عليه حياته، فعاش الشيخ فيها حصوراً ورعاً قانعاً زاهداً متواضعاً إلى حد الإزراء بالنفس ونكرات الذات"[١].

١١) ووصف محمد السليمان الشبل شعره، فقال: "لا تزال تَرِنُّ في أذني قصائدك الحلوة، وأبياتك العذبة الجذَّابة، هل من عودة لها"[٢].

١٢) وعن شعره أيضًا قال الشيخ محمد الهويش: "شعره قوي ولو أراد لتكلَّم وأجابك شعراً على السليقة"[٣].

١٢) ويبرز الدكتور علي بن محمد التويجري قيمة برنامج عدسة المعنويات للفالح، فقال: "وكان الأستاذ عبدالله الصالح الفالح له زاوية في البرنامج، سَمّاها: "عدسة المعنويات تلتقط صوراً لهؤلاء" يعرض فيها شخصية من شخصيات الطلاب يُعَدّدُ سلبياته وإيجابياتهِ، وكنا ننتظرُ هذا الباب بفارغ الصبر، لنعرف عن زميل طباعه ومثالبه"[٤].

١٤) ويوضح عبد المحسن الحقيل تفضيل الفالح للعزلة وانصرافه عن التدوين والنشر، فقال عنه: "اسم يحضر بهدوء ودون جلبة، ولكنه يثبت في الذاكرة، رجل يملك الكثير، ولكنه يفضل التواري، هو من الذين تأبى الذاكرة نسيانهم،

---

(١) انظر: الجزيرة- العدد (١٥٦٩٦) ١٤٣٦/١٢/٥هـ- مقال سابق د، سامي السلمان.(ص٢٣)

(٢) الجزيرة – العدد (٨٤٥٠) ١٤١٦/٦/٢٤هـ- لقاء مع محمد السليمان الشبل.(ص٨)

(٣) انظر: الجزيرة – العدد (١٤٤٢٦٩)، ١٤٣٣/٥/٥هـ – مقال سابق . خالد الهويش.(ص١٩)

(٤) دار التوحيد: نقوش في ذاكرة التعليم والمجتمع،(ص٥٥).

ولكنه يأبي التدوين لنفسه، وله آراء مهمة، ولكنه لا يدون، وإن دوّن فلا ينشر"[١].

١٥) ويصفه الحقيل بأنه: "هو رجل ذو روح طريفة، ومجلسه فيه الكثير من الطرافة والملح، لا سيما إذا كان الجلساء ممن يرتاح له، ويحسن إثارة الأسئلة الموجهة له"[٢].

* * *

(١) انظر: الثقافية (ملحق الجزيرة) -العدد (٢٢٣)، ١٤٢٨/١١/٩هـ- مقال سابق . عبدالمحسن الحقيل.(ص٨)

(٢) انظر: المصدر السابق.

مواقف من حياته:

١ـ روى الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله العبدان الملحق الثقافي بالعراق ومصر سابقاً، والذي كان قد التحق بدار التوحيد سنة ١٣٦٦هـ، وتخرج فيها عام ١٣٧٠هـ[١] أنه في أحد الاجتماعات التي يعقدها الشيخ محمد بهجت البيطار مدير الدار؛لإلقاء بعض النصائح والإرشادات على أبنائه الطلاب، دعا المراقب عثمان عجاج[٢]بقوله: يا عثمان، هل الشيخ الخليفي حضر؟ فأجابه عثمان عجاج بقوله: لَمْ حزر يا أستاذ، فضجَّ الطلاب بالضحك. فنظم عبدالله الفالح –وكان حاضر البديهة – هذين البيتين على سبيل الطرفة:

وجوزوا دخول لم على المضي

كما تقول: لم أتى، ولم رضي

وهذا في لغة العجاج

لكونها واضحة المنهاج[٣]

---

(١) انظر: الجزيرة – العدد (٨٢٩٤) – ١٤١٦/١/٢٦هـ– ذكريات ال، ٥٠ عاماً في دار التوحيد(ص١١).

(٢) عثمان عجاج: مراقب في الدار, ثم أصبح فيما بعد محاسباً للشؤون المالية بالدار.انظر المدينة – العدد (١١٧٥٧) – ١٤١٦/١/١٦هـ– مقال : دار التوحيد في عيون الأدباء ورواد الكلمة (ص٨) وانظر: دار التوحيد في ميزان التاريخ (ص١٠٦)

(٣) انظر: الجزيرة – العدد (٨٢٩٤) ١٤١٦/١/٢٦هـ– ذكريات ال ٥٠ عاماً في دار التوحيد (ص١١). وانظر: المدينة العدد (١١٧٥٧) – ١٤١٦/١/١٦هـ دار التوحيد في عيون الأدباء ورواد الكلمة (ص٨): وانظر: دار التوحيد تطور تعليمي وتغير اجتماعي (ص٧١).

(من الرجز)

ورواها أيضاً د. عبدالله العثيمين بنحو من ذلك[١] وكذلك د. محمد بن سعد الشويعر[٢].

وهناك رواية أخرى للقصة ذكرت أنه في أثناء دراسته في كلية الشريعة بمكة، كان يقرأ مجلة أدبية في أحد دروس النحو، وفاجأه الأستاذ بقوله: لِمَ لَمْ تكن معنا يا شيخ عبدالله؟ فرد قائلاً: أنا معكم يا أستاذ، وقد ذكرت لنا أن (لم) لا تدخل على الفعل الماضي؛وهذا يخالف ما قاله الناظم:

وجوزوا دخول (لم) على المضي
ك (لم) دعا ولم سعى ولم رضي.

فما توجيه ذلك يا أستاذ؟

فتوقف الأستاذ عن الإجابة، ولما انصرف من الكلية شرع يبحث في شروح الألفية وحواشيها عن هذا البيت، فلم يعثر على شيء، فرجع إلى الشيخ عبدالله، وقال: أين ذكر الناظم ذلك البيت؟ فقال الشيخ: أنا ذكرته تخلصاً [٣].

ولعل الرواية الأولى هو الصحيحة؛ لأنها من رواية الشيخ عبدالعزيز العبدان وهو من طلاب دار التوحيد[٤]. ولأنها مرتبطة بشخصية كانت تعمل في الدار وهي شخصية المراقب، كما أن في الرواية الأخيرة خروجاً عن آداب طالب العلم، والشيخ يبعد عن ذلك.

---

(١) انظر: دار التوحيد تطور تعليمي وتغير اجتماعي،(ص٧١)

(٢) انظر: الجزيرة – العدد (١١٩٨١) ، ١٤٢٦/٦/١٣هـ- مقال سابق د- عبدالله العثيمين.(ص٢٠)

(٣) انظر: الجزيرة – العدد (١٥٦٩٦) ١٤٣٦/١٢/٥هـ – مقال سابق، د. سامي السلمان.(ص٢٣)

(٤) انظر: دار التوحيد تطور تعليمي وتغير اجتماعي، ص (٧١).

٢ـ أقامت المدرسة السعودية النموذجية بعنيزة في ١٣٧٢/٢/١هـ، حفلة كبرى بمناسبة انتقالها إلى مبناها الجديد، الذي تفضل بإنشائه آنذاك ولي العهد الأمير سعود، وتعهد بإنجازه وزير المالية الشيخ عبدالله السليمان. وقد حضر الحفل كثير من أعيان البلاد ووجهائها، وفي مقدمتهم: أمير عنيزة عبدالله الخالد السليم، والشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، وقاضي البلاد الشيخ عبد الله ابن عقيل، وقدّم الحفل عبدالله الجلهم، حيث بدِئ الحفل بتلاوة من القرآن، تلاها عبدالله الفالح، ثم ألقى عبدالله البسام قصيدة، ثم ألقى مدير المدرسة عبدالرحمن العليان كلمة الحفل، ثم ألقى عبدالله الصالح الفالح قصيدة: (موكب النور) وستأتي، ثم ألقى محمد السليمان الشبل قصيدة عنوانها (فجر جديد) : يقول فيها:

لم تكن غير هشيم دارسٍ
يزحفُ الكونُ على شوك هواها
لاح في آفاقها اليوم صدى
وَتَغَنَّى بين أحضان كراها
شقَّ للعِلم سبيلاً خالداً
وبنى للمجدِ صَرْحاً لا يضاهى
بُورك العِلمُ، فكم من أمة
هزَّت الكونَ بما صَاغت يداها.

(من الرمل)

وألقى حمد العبدلي كلمة، ثم ارتجل الشيخ عبدالرحمن السعدي، كلمة شكر فيها المشرفين على الحفل[١].

وكان المشرفون على هذا المناسبة قد عرضوا على الفالح أن يلقي كلمة، فاعتذر إليهم، وألحوا عليه، وقالوا: سوف يطرح اسمك في أثناء الحفل لتلقي ما شئت، وفي صبيحة ذلك اليوم رآه إبراهيم بن عبدالله التركي يدون في ورقة، وبعد أن فرغ منها ذهب وتوضأ، وقصد المدرسة، وألقى قطعة من النثر الرائع، أتبعها بقصيدته التي أشرنا إليها سابقاً[٢].

٣ـ قيل: إن مدرس الإنشاء لامه على عدم اهتمامه بدرسه، فما كان منه إلا أن أتى إليه بعد يوم أو يومين، مالئاً كراستين عن الحرب والسلام من إنشائه[٣].

٤ـ روي أنه كان يقرأ جريدة في آخر الفصل، وكان الأستاذ يشرح درساً في القواعد، فلما سأله الأستاذ عما شرح، أملى عليه كل ما ذكره[٤].

---

(١) انظر: المدينة المنورة –العدد (٤٥٨) – ١٣٧٢/٢/٢٥هـ – والبلاد السعودية – العدد (١٢٤٩) ١٣٧٢/٢/١٨هـ.

(٢) انظر: اللقاء الشفهي الذي أجراه محمد القشعمي مع الشيخ، من كلام أبي قصي إبراهيم التركي، وانظر: الثقافية (ملحق الجزيرة) – العدد (٢٢٣) ١٤٢٨/١١/٩هـ مقال سابق_ عبدالمحسن الحقيل.(ص٨)

(٣) انظر: الجزيرة – العدد (١١٩٨١) ١٤٢٦/٦/١٣هـ – مقال سابق د. عبد الله العثيمين.(ص٢٠)

(٤) انظر: اللقاء الشفهي الذي أجراه محمد القشعمي مع الشيخ.

٥ـ سافر الشيخ عبدالله إلى مصر مرة واحدة لرؤية والده المقيم هناك، وفي أثناء تلك الزيارة زاروا إسطبل الشيخ فوزان السابق رحمه الله، وكان يجتمع فيه بعض العقيلات.(١)

٦ـ كان الشيخ يتأخر في الوضوء، وربما أقيمت الصلاة وهو يتوضأ، وذات يوم عندما هَمّ بدخول جامع الشيخ محمد ابن عثيمين قابله الناسُ خارجين، فقال على البديهة:

إذا العُمري عجَّل بالأذان

وجاءَ الشيخُ يعْدو كالحصانِ

فلا تعجبْ إذا فاتتْ صلاةٌ

تولّى أمرَها المستعجلانِ

(من الوافر)

ويقصد بالمستعجلين؛ الشيخ محمد ابن عثيمين، والمؤذن الشيخ عبدالله العمري. ولما بلغ هذان البيتان الشيخ ابن عقيل أتمهما بقوله:

خصوصاً للموسوس في وضوء

مجاوزاً الثلاث إلى الثمان

فلو أن قد تعوذ شرَّ نَفْسٍ

ووسواس وُقِي شر التواني

(١) المصدر السابق.

وعارض هذين البيتين الشيخ سامي بن محمد الصقير – وهو من طلاب الشيخ محمد بن عثيمين – فقال:

فبادِرْ بالحضور إلى صلاة
ودَع عنك التشاغلَ والتواني
تأهب للصلاة قُبيل وقت
وأسرعْ في مجيئك كالحصان
لإدراك الصلاة وراء شيخ
يُصلي الفرض من حيث الآذان

وأجابه ثالث بقوله:

إمامٌ راضه في ذا ابن سعدي
وما روضُ الأصيل سوى الهجان
مجيء الشيخ محفوظٌ بوقتٍ
دقيقٍ دونه حدُّ السنان
ولكن فاتك النظر الكليل
فغرّك في الدقائق والثواني

وأجابه الشاعر الشيخ إبراهيم بن حمد الجطيليّ بقوله:

إذا العمريُّ بكَّر في الأذان
وجاء الشيخ يعدو كالحصان
فلا تعجب إذا فاتت صلاة
تولى أمرَها المستعجلان

فأكملت الكلامَ بغير نَظْمٍ
على الأوزان من دون التواني
إذا نادى المؤذنُ قُمْ فبادر
توضأ عاجلاً قَدْرَ الثواني
دع الوسواسَ فهو له بلاءٌ
يهدُّ الروح يا أهل الأمان
تَشَهَّدَ بعد ذاك جُزِيت خيراً
بقلب صادقِ باب الجنان
فمن عهد الطفولة أنت فَهْمٌ
وَحِفْظٌ للعلوم وللمعاني
فأما في الشتاءِ ففي الحجاز
وفصلُ الصيف في جوز [1]المباني
فلستُ بناظم عذب القوافي
ولست بشاعرٍ بالشعر هاني
فشعري ناقصٌ بل إن فيه
أحاديثاً ألا والعمر فاني
هما العمري والفياض كلاً
له صوتٌ يجلجل في الأذان

(١) الجوز أحد أحياء عنيزة.

وجامعنا له سبع قرون

بسبع مائة أيا صافي الجنان

ومن بعد الصلاة مع السلام

على المختار عنوان البيان[١]

٧- قال عبدالله بن عبدالعزيز السالم: كان الشيخ يشتري المجلات والصحف من مكتبة الثقافة، الواقعة بباب السلام في الحرم المكي؛ وفي حصواتِ المسجد الحرام في ذلك الحين كنا نتناقش ونتداول ما يطرح من آراء وأفكار فيما ينشر من مطبوعات أو صحف أو مجلات، فنقضي ما بين صلاتي المغرب والعشاء في مداولات ثقافية هو المتجلي فيها وأنا المستفيد[٢].

٨-ومن المواقف التي تدل على تواضعه وتفضيله للانطواء والعزلة، ما رواه الدكتور إبراهيم بن عبدالرحمن التركي، أنه كان يُدير ندوة أقيمت في مركز ابن صالح، وأُخبر أن الشيخ الفالح ضمن الحضور، ويجلس في الصفوف الخلفية، وبعد انتهاء الندوة، أثنى د ـ إبراهيم على الشيخ الفالح، وشكر له حضوره، وطلب منه التعليق، وأحضر (المايكرفون) إليه ليتكلم، فكان مُطْرِقَ الرأس لا يرفعه، فحاولوا معه؛ ولكن أخلد إلى الصمت ولم يجبهم[٣].

---

(١) انظر: معجم عنيزة/ (١٩٣/١٢).

(٢) الجزيرة – العدد (١٢٢٤١) ١٤٢٧/٣/٦هـ، مقال سابق – عبد العزيز السالم.(ص١٣)

(٣) انظر: الثقافية (ملحق الجزيرة) – العدد (٣٠٩) ١٤٣١/٥/٢٢هـ- مقال سابق د . إبراهيم بن عبدالرحمن التركي.(ص٣)

٩-ومن مواقفه الدالة على تحليه بروح الدّعابة، أنه عندما نُشِرَت أسماء الخريجين في كلية الشريعة، وكان اسمه يتصدر القائمة؛ لأنه الأول، هَنَّأَه صديقه الأستاذ عبدالعزيز بن عبدالله السالم بذلك، قال: أنا الأول في نهاية القائمة[١].

١٠-كان بعض الأساتذة عندما كان يطرح عليه السؤال، لا يكلمه باسمه المجرد، وإنما يُضْفي عليه لقب الشيخ، فهو شيخ في هيئة تلميذ، وعالم في صورة طالب[٢].

١١-عندما عمل لم يسأل عن راتبه، فإذا لم يهتم أحدٌ من محبيه باستلامه، فإنه لا يسأل عنه، ولا يطالبُ به، وهو يعيش على الكفاف، ويقتنع باليسير[٣].

١٢-لما تجاوز عمره الثمانين، تذكر أحد زملائه في كلية الشريعة بمكة، فقال لملازمه إبراهيم المهنا التركي: أريدُ أن أصل فلانا؛ ولكن لا أدري أين يسكن الآن؟ فقال له إبراهيم: وما حاجتك به؟ قال الشيخ: كنت جالساً مع بعض الزملاء في يوم من الأيام نتحادث ونتحاور، ودخل علينا ذلك الزميل حاملاً معه بعض الكتب، فقلتُ له: ما هذه الأسفار التي تحملها؟ فقال أحد الحاضرين – سامحه الله –: يقصد أبو صالح الآية في سورة الجمعة. فضحك مَن في المجلس. يقول الشيخ عبدالله: وما كنت أقصد ذلك، وأخشى أن يظنَّ بي ذلك. فأريد أن أبيّن له حقيقة الأمر، يقول إبراهيم المهنا: فسألت عن الرجل حتى عرفت أنه يسكن في مدينة قريبة من عنيزة، فأخذت الشيخ، وقمنا بزيارة ذلك الرجل، وكان على فراش المرض، فسلمنا عليه، وذكّره الشيخ بتلك القصة

(١) انظر: الجزيرة، العدد (١٢٢٤١) – ١٤٢٧/٣/٦هـ – مقال سابق – عبدالعزيز السالم.(ص١٣)

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: المصدر السابق.

فذكرها، وبيّن له أنه لم يقصد الإساءة إليه، واعتذرَ منه، فقبل عذره، وسُرَّ المريض بما سمع. ولما خرج الشيخ مع إبراهيم كان الفرح بادياً على وجهه، وكأنه قد ألقى عن كاهله حملاً ثقيلاً[١].

١٣-أما عن مواقفه الدالة على زهده وقناعته وانصرافه عن متاع الحياة ورضاه بما قسم الله له، فهي كثيرة، منها ما ذكره ملازمه إبراهيم المهنا التركي أنه لما ذهب به إلى الطبيب، من أجل الكشف على عينيه، فأخبره الطبيب أنّ بصره قد ذهب، فما زاد الشيخ على أن قال: الحمد لله[٢].

١٤ -ومنها أنّ الشيخ انقطع عن أداء صلاة الجماعة في المسجد بسبب مرض ألمَّ به، فسأل عنه أحد جماعة المسجد من أهل التقوى والورع، فَدُلَّ على بيته، فقام بزيارته، ولما رأى بيت الشيخ، وهو خال من متع الدينا وزينتها، بكى ذلك العابد، فلما دخل على الشيخ في غرفته، رآه منطرحاً على فراشه خائر القوى، فتأثر الزائر لمرآه، وسأله عن صحته. والبكاء يخنقُ صوته، فردَّ عليه الشيخ قائلاً: أهلاً أبا فلان، أنا بخير ونعمة، ولكنّ ألمَ الظهر أقعدني، والحمد لله على كل حالٍ[٣].

١٥- قام الأستاذ محمد بن عبدالرزاق القشعمي بإجراء لقاء نادرٍ مع الشيخ في جامع الشيخ عبدالرحمن السعدي، بعد ظهر يوم ١٤١٩/٢/٢٩هـ، واستطاع انتزاع بعض المعلومات عن الشيخ وأسرته ودراسته. وقد استفدت من هذا اللقاء في هذا البحث، وهو ضمن محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية.

---

(١) انظر: الجزيرة – العدد (١٥٦٩٦)، ١٤٣٦/١٢/٥هـ - مقال سابق -د. سامي السلمان.(ص٢٣)

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: المصدر السابق.

شعره:

امتلك الفالح موهبة شعرية قوية أسهم في تكوينها قريحةٌ طَيِّعة، وذهنٌ متوقد، وذكاءٌ متميز، واطلاعٌ واسع، وذاكرةٌ قوية؛ فأخذ يكتب قصائد رومانسية جميلة، أشاد بها النقاد، وأعجب بها متذوقو الأدب. ولكن تلك الموهبة سرعان ما انطفأت، وآثرت العزلة، واختارت الانزواء، فتلاشى حلم مولد شاعر قد يعانق الشعراء المشهورين، وذلك الانزواء لا يُعرف سببه، ولا يُدرَك كنهه، فعاش بعد ذلك بعيداً عن الأضواء، يمارسُ عَمَلَهُ في مدرسة غير مشهورة أو في مكتبة متواضعة، إلى أن تقاعد، وترك الوظيفة، وظل يعيش في الظل حتى توفاه مولاه.

وبين أيدينا من شعره عشر قصائد، وثلاث مقطعات تعطي القارئ دليلاً على مبلغ شاعريته، ونضجِ تجربته، وفيض موهبته، مما مكّنه من ارتجال الشعر في أحيان كثيرة(١).

قال عنه الشيخ محمد الهويش: "ضاع كثير من شعر الشيخ عبدالله، وربما شكّل ديواناً كاملاً، ويعود ذلك إلى عدم اكتراثه بالشعر وقوله(٢) ".

ويبدو أنّ انصراف الفالح عن تدوين شعره والعناية بكتابته دفع عبدالعزيز السالم أنّ يصف شعر الفالح بصفات فنية، وينعته بالشاعر المقلّ، فقال: أنه أديب وشاعر أنيق العبارة، مرهف الحس، شفيف الروح، يقول الشعر، وإن كان مقلاً فيه(٣).

---

(١) انظر: الجزيرة – العدد (١٤٤٢٦) – ١٤٣٣/٥/٥هـ مقال سابق. خالد الهويش.(ص١٩)

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: الجزيرة- العدد (١٢٢٤١) – ١٤٢٧/٣/٦هـ – مقال سابق. عبدالعزيز السالم.(ص١٣)

أما الدكتور عبدالله العثيمين فكشف عن بعض السمات الفنية لشعر الفالح، فقال: "شعره جميل ورصين، جديرٌ بأن يبحث عنه ويعتنني به"[١].

والمتأمل في شعره يدرك أنّ الاغتراب هو الموضوع الأبرز فيه والغالب عليه، بل إنّ عناوين قصائده لتوحي بذلك، مثل: (خداع، أصداء الخريف، عقاقير، لحن شارد، نشيج قلب)، ولعلّ هذه الروح لتأثره –كما ذكر قبل – بشعر أبي العلاء المعري.

فأولى قصائده التي نشرها قصيدة (خداع)[٢] ، وهي تصور مدى تعلقه بالأماني التي رأى فيها تحقيق أحلامه، وإشباع رغباته، فأطلق العنان لخياله، ليرسم له واقعاً مفعماً بالصفاء، ممتلئاً بالتفاؤل والبِشر، فإذا به يستحيل سراباً خادعاً، يقول:

يا كؤوس المنى نعمت شراباً
غير أني أُلْفِينَّك بَعْدُ سرابا
تمنحينَ الفتى الوعود خداعاً
وَتُرجِّينه الجَنَى المستطابا
يَرِدُ المرءُ منهلاً منك عذباً
فإذا بـه يستحيـلُ عذابـا
فطفقنا نهيمُ في كُلِّ وادٍ

(١) انظر: الجزيرة – العدد (١١٩٨١) – ١٤٢٦/٦/١٣هـ-مقال سابق . د – عبدالله العثيمين.(ص٢٠)

(٢) المدينة المنورة،-العدد (٢٧٠) ١٣٦٧/١/٢٤هـ،- خداع . عبدالله الفالح،(ص٤).

للأماني نرتادُ فيه الرغابا
غيرَ أنَّ العُمْرَ انطوى دون جدوى
وصحونا نجرعُ اليوم صابا

وفي قصيدته (عقاقير) [1]يدعو نفسه إلى الصبر، وتحمل الجفاء، واحتمال الأسى حتى تنجلي غيابات الآلام، وإن أصابها ضَعْفٌ أو وَهَنٌ فعلاجها الآمالُ والتفاؤل:

صبِّرِ النفس على مرّ القضاء
وادعها رغم التجافي للرضاء
وإذا ما خِلْتَها مُوْهِنةً
فابعث الآمال فيها والرجاء.
وارتقبْ إنْ ما الدياجي استحكمت
فَلَقَ الإصباحِ وَضَّاحَ السَّنَاء

والحياة مليئة بالمشاق، حافلةٌ بالمصائب، ولئن أضحكت يوماً أبكت، ولئن أسعدت أشقت، والمغرور هو من يركن إليها، ويظن أن الحياة مسرَّاتٌ ومباهج؛ يقول:

وحياة المرء كدٌ كلها
من عناء فيه يفْضِي لعناء

(١) المدينة المنورة – العدد (٢٨٢) ١٣٦٨/٤/١٩هـ- عقاقير – عبدالله الفالح.(ص٤)

ضلَّ من يطلبُ فيها راحةً
ليس بالعيشِ لذي حِجْر هناء

والعاقل اللبيبُ والمؤمنُ المستسلم لقضاء الله يتلقَّى مصائبها بالرضا والتسليم، وترك التَّسَخُّطِ والتشكي:

فدع السُخْطَ فما في ورده
قطرةٌ تشفي غليلاً من ظماء

ثم يدعو إلى ترك اليأس والقنوط، وأن يعتصم المرء بحبل الله الوثيق، ليعيش حياة هنية سعيدة:

وحذارِ اليأس لا تركنْ له
كم صريع فيه أعياه الشفاء
وبحبل الله كن معتصماً
وَكُلِ الأمرَ إلى ربِّ السماء

أما قصيدته: (لحن شارد)[1] فاستهلها بوصف للطبيعة الجميلة "والطبيعة عند الرومانسي تمنحه القدرة على التأمل، كما تعطي خياله الفني الفرصة للعمل[2] "؛لأن "الخيال فرار من واقع مرذولٍ إلى ممكن مأمول[3] ". ويرى

(١) المدينة المنورة – العدد (٣٧٧) ١٣٧٠/٥/٢٢هـ – لحن شارد،–عبد الله الفالح.(ص٤)
(٢) القصيدة الرومانسية في مصر د– يسري العزب . الهيئة المصرية العامة للكتاب_ القاهرة . طبع ١٩٨٦م، (ص٤٩)
(٣) مع الشعراء، زكي نجيب محمود، . دار الشروق . القاهرة . الطبعة الثانية ١٣٨٠هـ، (ص١٠٩).

الرومانسيون "في الطبيعة المرآة التي تنعكس على صفحتها صور نفوسهم بما يعتملُ داخلها من مشاعر وأحاسيس (١)".

والفالح في قصيدته هذه يتخذ من الرومانسية معبراً لتصوير ما جاشت به نفسه، وقد ترسّم طريقة الرومانسيين، وسلك مسلكهم، يقول:

للسنا الشارق المطِلّ على الأرضِ يُنَاجِي رحابها في سُكُوْن

والأغاني العِذَابُ تبعثُ للروح نَدَى الرِّضا وعطرَ الفنون

ورفيف الزهر فَوْقَ الرياض الخُضْرِ يغري الفتى بِسَكْبِ اللُّحُون

وللنسيمِ العليلِ يَعْبَقُ بالأنفِ شذاه منمقاً بالفتون

فهذه الصور الجميلة المتلاحقة للطبيعة بمباهجها وحسنها، تستهوي الشاعر، ولكنها في الوقت نفسه تثير أحزانه عندما يرى واقعه المر بما يحمله من أهوال ومصائب، يعيشها الشاعر مضطرباً قلقاً، فيقول:

هي عندي مباهجُ الكونِ في هذي الحياة التي تثيرُ شُجُوني

وتريني العَيْشَ المنَكَّدَ والحزن ضروباً من الأسى المأفون

(١) القصيدة الرومانسية في مصر،(ص٤٩).

وفي المقطع الثاني من القصيدة، التفت الشاعر إلى نفسه، وعكف على ذاته مصوراً مدى الصراع النفسي الذي يعتملُ في نفسه؛صراع بين أحلامه التي يرجو تحققها، وبين واقعه الذي يصادمها؛ فيقول:

أنا أحيا على بقية آمال، أراها تهافتت للفناء

أقطع العمر في مناجاة أحلامي وأطوي بين الجوانح دائي

مستهامُ الفؤادِ لجَّ بي الشوقُ، فأورى الجحيم في أحشائي

ثم يتطور موقف الشاعر في المقطع الثالث إلى أن يصل إلى مرحلة اليأس، وانقطاع الأمل والرجاء، والهروب إلى العزلة واللجوء للوحدة، فربما كان الموت هو النهاية لذلك الصراع النفسي؛ يقول:

أين سلوايَ بعدما تهتُ في مَهْمَهِ بلواي واحتسبتُ حياتي

وجفاني الإسعادُ، فانقدتُ للحرمانِ أسوانَ أمتطي حسراتي

ورمتني أيامي السودُ في الحَيْرةِ حتى غَصَصْتُ في آهاتي

يَئِسْتُ ألقى الصديقَ يُفَرّجُ عني ما ألاقيه من جَوىً وشَتَاتِ

لا، ولا تسمح الليالي بإسعافي بما في سلوتي ونجاتي

فاتركوني أهيم في حيرتي الكبرى إلى أَنْ أرى الطريق المواتي

أو ألاقي دون الذي أنا أهواه صعاباً تَرُدَّنِي لمماتي

ويؤكد الفالح في قصيدته (نشيج قلب)[1] أنه سئم الحياة، وَمَلَّها فلقد أمضه الجوى، ولجّ به الغرام، وشرب كأس الألم، وذاق طعم العذاب، ولذلك لم يعد للحياة معنى، ولا للوجود مغزى؛ فيقول:

يا شجونَ القلبِ أرفقي

بغريبٍ عاف الحياه

وعلى القلب أشفقي

فلقد ذاب في أساه

وإذا شئتِ أشرقي

لفتى في دجاك تاه

حسبُه اليومَ ما لَقِيْ

من ضَنَى الشوق في هواه

فارحمي مِنْهُ ما بَقِى

فلقد ودعت مناه

وتتوالى أبيات القصيدة مصورة عمق مأساته وطول وحدته وانكفاءه على نفسه:

(١) المدينة المنورة – العدد (٣٨٩) ١٣٧٠/٨/١٧هـ- نشيج قلب- عبدالله الفالح.(ص٤)

شفَّه الوجدُ فانظري
مودعاً سرَّه الظَّلاْمَ
وَتَجَافَى به النَّوَى
فتمادى به الغرام

وفي المقطع الأخير من القصيدة، يبلغ به التشاؤم مبلغه، فليست الحياة ذات بهجة، وليس للوجود قيمة؛ فيقول:

الرؤى الحالماتُ لم
تعد اليوم في الدنى
والأماسي في الظُلَم
لم تَعُدْ تذكرُ السَّنا
والأزاهيرُ للعدم
قد تهاوتْ قبل الجنى

أما في قصيدته المخمسة (ومضات)[1] فيظهر حزنه، ويشكو ضياعه، وتشتت نفسه، فهو يعيش في شجن وكآبة، ويعاني الآلام والمتاعب، ويقاسي المصائب والبلايا، فلم تتحقق آماله، ولم تنجَلِ كرباته؛ يقول:

أين أمضي في ركابي
بين هاتيك الرحاب
طُرُقٌ ذاتُ شعاب

(١) ورقة مخطوطة مكتوبة بيد الشاعر.

أسلمتني للصعاب

دون أن ألقى طلابي!

طال شجوني وانتحابي

وَتَقَمصَّتُ اكتئابي

أترى ينجابُ ما بي

من شجونٍ واغتراب

أوقعاني في عذاب

وكلما أراد أن ينجو من خضم هذه الشجون والأحزان، عاد حسيراً كسيراً، فهي أشدّ وأعنف من عزمه وإرادته؛ فيقول:

أنا في بحرٍ خِضِمّ

غارق فيهِ بوَهْمِي

كُلَّما استجمعتُ عزمي

علَّني أنجو بعومي

غطني موجُ العباب

ويأتي ختام قصيدته معبرا عن الأمل الكذوب واليأس القاتل، والمستقبل القاتم؛ فيقول:

نضب الماءُ النمير

واختفى الخير الكثير

صوّح الزهورُ النظير

وخبا البدرُ المنير

أترى أين مآبي؟

ويتجلى موقفه من المرأة في قصيدته (أصداء الخريف)[1] ، "والمرأة عند الرومانسيين هي الملاذ الذي يحتمون بحبه من اغترابهم في الواقع الإنساني؛ لأنها هي الكيان الإنساني الجميل الذي تكتمل به حياة الرجل، ولذا فإنه يبذل في سبيل الحصول عليه الكثير من الضنى والسهد و"العذاب [2]".

فقد تلاشت أحلام شاعرنا قبل أن تكتمل، وضاعت منه قبل أن تتحقق، فنضب معين آماله، وتحطمت على صخرة الفراق أمانيه، ؛فقال:

يا زَهْرَة العُمْرِ التي صَوَّحت
من قبل أن نستاف منها العبير
و يا مُنَى القلبِ التي هَوَّمت
في عالم الأطياف تشكو المسير
ملتاعة حتى لقد أوشكت
أن تترك القلب لأسر الشرور

وكانت تلك المرأة التي أحبها هي سلواه في أحزانه، وملاذه في أشجانه، وهي مبعث إلهامه، ومنبع خياله:

ويا رؤى الأفراحِ في مُهْجتي
تختال إدلالا بِسِحْرِ الفتون

---

(١) المدينة المنورة- العدد (٤٠٨) ١٣٧١/٢/٧هـ- أصداء الخريف- عبدالله الفالح.(ص٤)

(٢) القصيدة الرومانسية في مصر، (ص٤١)

وبسمةَ الآمالِ في حيرتي

تُزَوِّدُ عني غائمات الشجون

وفي المقطع الرابع، يبين الشاعر شدة تعلقه ومبلغ هيامه، كلما لاح طيفُها، وتمثل له رسمها:

أَكُلُّما مرت عل خاطري

نجواك هام القلب في شقوته

واسْوَدَّت الأشباحُ في ناظري

والكونُ ساد الصمت في لُجَّتِهِ

ولكن هل ستعود الحياة كما كانت ويعود الوئام بعد الخصام، والوصل بعد الهجر، والفرح بعد الحزن؛ يقول:

هل بعد آلامي يشعُّ السرور

على فؤادٍ عاشَ رَهْنَ الظلام

وهل بُعيد الهجر تصفو الأمور

فنلتقي نشوى بروح الوئام

وتتواصل أبيات القصيدة مبينة مبلغ آلامه وأحزانه، ثم يختمها بقوله:

لعل أيام الهناء أو عسى

تعود في أفراحنا الشاديه

أو لا، فإن القلب لن يَهْجَسَا

من بعدُ في آمالِهِ العاليه

سيَّان إن رقَّ الهوى أو قسا

إذا انطوت أحلامنا الزاهيه

ونظم قصيدته ذكرى[1] بمناسبة بدء العام الهجري ١٣٦٨هـ، والهجرة النبوية كانت مبعث إلهام للشعراء، لأنها بدء تاريخنا الإسلامي الناصع البياض، عندما هاجر المصطفى عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة، وبدأ التاريخ الإسلامي يسطر أروع صفحاته وأزكاها، فوقف الشاعر الفالح أمام هذه المناسبة مستجلياً أثرها في نفوس المسلمين، وبما تبعثه من الذكريات الرائعة والإشراقات الجميلة، يقول:

ألهمني يا مَبْعَثَ الذكريات
لغة الشعرِ صادق اللهجات
وأفيضي عليَّ من نبعك الصافي بياناً أُزْجِي به نَفَثاتي
وابعثي في مشاعري كُلَّ مَعْنَى
سرمديِّ الجلالِ جَمِّ العِظَات
فلذكراك في فؤادي رَمْزٌ
ثابتُ الأصيل مُعْتَلِي الدَّرَجاتِ
كم حنينٍ إليك عاودَ نفسي
فاستفاضتْ لذكره عبراتي

(١) أم القرى – العدد (١٢٤١) ١٣٦٨/٢/٢٣هـ – ذكرى الهجرة النبوية– عبدالله الفالح.(ص٢)

والهجرة فرصة لاسترجاع الذكرياتِ الخالدة؛ حيث حياة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وصحبه الكرام – رضوان الله عليهم – عندما تهادت مواكب الإيمان تنشر الإسلام في ربوع الأرض، فاستنارت البشرية بعد جَهْلٍ، واطمأنت بعد خوف وتشتت، وانتشرت كتائب المؤمنين، تنشر الخير والنور؛ إذ يقول في هذه المعاني:

إيه رَمْزَ الهُدَى اسْتَهِلّي حديثاً
فيه نَفْحٌ من آيك البينات
وأعيدي الذكرى لعصرٍ مجيد
حافلٍ في روائعِ المعجزات
وأريني مواكبَ المجد لما
أوغلت في مهامه الفلوات
هبةُ اللهِ للخليقةِ سِرٌ
يتخطَّى السهول والهضاب

واسترسل الشاعرُ يُجَلّي صوَر ذلك الضياءَ، الذي جاء به النبي المرسل عليه الصلاة والسلام:

فاستنارتْ بنورها واستمدَّت
من سناها عوالمُ الكائنات
وسرت في الآفاق شرقاً وغرباً
بذكاءٍ مباركِ الخُطُوات
أشرقت منه أنفسٌ طاهراتٌ

نَظَمَتْها رسائلُ الرَّحمات

وهكذا تتوالى أبيات القصيدة في تناسق بديع، وإيقاع منسجم، تُحَرِك المشاعر، وتثير الهمم.

وتمثل قصيدته (موكب النور) نمطاً مختلفاً لشعر المناسبات، ـ التي نظمها في حفل افتتاح مبنى المدرسة السعودية بعنيزة، وقد سبقت الإشارة إليها ـ؛ إذ جاءت في قالب فني رومانسي فريد، ليس فيها إسراف في المديح أو تقريرية في النظم، بل جاءت مليئة بالخيال الرائع، وهي آخر قصائده نظماً، وتمَثِّلُ ذروة نضجه الأدبي، ومطلعها:

طلع الصباحُ فهل رنوتَ إلى هُنا
لترى السنا الرفَّاف يهتف بالمنى

وهذا الاستهلال جميل، يحمل معنى التفاؤل، فالعلم نور، يشرق على الدنيا، والجهل ظلام، فها هو فجر العلم قد انبلج، معلناً افتتاح ذلك الصرح العلمي الشامخ، الذي كان أمنية فتحقق، ثم شرع يصف الجمعَ الكبيرَ الذي حضر ذلك الاحتفال في يوم علتْ فيه راية العلم، وشمخت قمة المجد:

فانظر إلى الحشد العظيم وقد أتى
ليخلد اليوم السعيد لحفلنا
يومٌ به تحلو أغاريد المنى
ويصافح المجد التليد المحسنا

وتتتابع أبيات القصيدة حاملة ألفاظ البشر والفرح، في إيقاع جميل، وتوازن لفظي متناسق، وكلمات موحية بالمستقبل الوضاء الجميل لذلك النشء، الذي

سوف يَضُمُّه ذلك المحضن التربوي العلمي، ثم أخذ يصف روعة ذلك البناء وعظمته:

وانظر إلى هذا البناء وقد بدا
في روعة بهرت رؤاها الأعينا
واسأل فؤادك مَنْ تُرَى قد شادها
حصناً لأبناء البلاد ومأمنا

وعرَّجَ الفالح على مَن بناها، وأشاد صرحها؛ فهو مستحق للمدح والثناء، ولكن الألفاظ لا تفي بشكره والعبارات لا تكفي لبيان فضله.

فاهتفْ لمن قد شادها متفضلاً
لله ما قد يبتنيه وما بنى
في مثل ذا تُحْلَى السماحة والندى
أعظمْ بِمَنْ تخذ المكارم دَيْدَنا
عبثاً أحاول أن أشيد بذكره
من دونه الألقابُ تَقْصُرُ والكُنَى

ويأتي الشاعر بحكمة رائعة سديدة، فإن الأمور تحتاج إلى عزيمة ومبادرة، فالعقبات تذللها العزائم، والصعوبات تهونها الهمم:

تبدو الأمور على التواني صعبةً
فإذا عزمتَ لَقِيْتَ شيئاً هينا
كم ذا ظننا المستحيل فراعنا
لما بدا في السعي أمراً ممكنا

وبعد ذلك بَيَّن الشاعر فضل العلم، فهو ينبوع التقدم، وروح الحياة، به تقوى الأمم، وترتقي الدول:

والعلم ينبوع الحياةِ وروحُها
وهل الحياةُ بغيره الا الضَّنَى
..... بالعلم يُحْمَى يا بني وطني الحِمْى
لا بالسيوف كما مضى أو بالقنا

ثم يستنهض الشباب داعياً لهم إلى استذكار الماضي التليد، والمجد القديم، لنعيدَ وهجه، ونقتبس من نوره، لا أن نستكين إلى الذكريات فقط، وندع العمل، فلا بد من الاتكاء على الماضي والانطلاق منه لمواجهة تحديات الحياة، ومنافسة الأمم في التقدم والرقي:

عودوا إلى الماضي البعيد لكي تروا
عهداً أضعناه فشتت شملنا
وإلى الأمام إلى الأمام فقد بدا
عهدٌ جديدٌ، واستهل مؤذنا
للنهضة الكبرى أعِدُّوا أمركم
فإلام ترضى أنفس أن تغبنا

وتبرز وطنية الشاعر في ختام قصيدته الرائعة، فنحن فداء لهذا الوطن، الذي درجنا على ثراه ونهلنا من معينه، فإذا اشتكى وطني بكيتُ، وإذا أضحى قوياً غنياً فأنا غَنِيٌ بغنى وطني، ولو كنت فقيراً معدماً. وتصل عاطفته الجياشة قمَّتها

في البيت الأخير، ففي فؤاده حرقة، وفي مهجته وَقْدةٌ، لن تنطفئ وتخمد، حتى يرى وطنه وقد ارتقى ذرا المجد ووصل إلى مراتب الكمال:

في مهجتي ألم وفي قلبي أسى
حتى أرى وطني أعز وأمكنا

وقد طرق الفالح موضوعه هذا طرقاً طريفاً غير معتادٍ في قصائد المناسبات، فلم نر فيها المبالغات، بل جاءت واقعية متناسقة العبارات، سلسة الألفاظ، كلمات بعضها آخذ بحجز بعض دون نبوٍّ وركاكة، ومعانٍ جليلة، وأفكار رائعة، ورؤى تدل على نضج فكري وأدبي.

نثره: أما نثره فقد أثبت منه خمسة نصوص، نصان من مشاركته في زاوية: عدسة المعنويات، نستطيع أن نستشف منهما الملامح العامة لنقده للشخصيات، وهي:

١) يمهد لكلمته بذكر منزلة الشخصية وقربه مِنْهُ، وهل هو صديق مقرب له أو زميل دراسة فقط؟

٢) يذكر اسم الشخصية بعد ذلك، ويبين سنته الدراسية، ونبذة موجزة عن نشأته ودراسته السابقة.

٣) يبين طريقة التحاق المتحدَّث عنه بدار التوحيد.

٤) يخمن العمر التقريبي للشخصية؛بحسب ما يظهر على جسمه وملامحه.

٥) يعرض لجوانب تلك الشخصية الظاهرة والخفية، وصفاته الخِلْقية والخُلُقية.

٦) يحاول تعليل بعض جوانب النقص في الشخصية.

٧) يستشرف المستقبل لتلك الشخصية، ويحدد الجو الملائم لعملها.

٨) يبين مستوى ذكائه وتحصيله الدراسي واستذكاره.

٩) يذكر طريقته في الحديث والحوار، ومنهجه في الكتابة، إلى غير ذلك.

وقد سبق الفالحَ في تحليل الشخصيات على هذه الطريقة المستملحة عبدُ العزيز البشرى في كتابه (في المرآة) يقول في مقدمته للكتاب: "والغاية التي تذهبُ إليها المرآة هي تحليل شخصية مَن تجلوه من الناس، والتسلل إلى مداخل طبعه، ومعالجة ما تَدَسَّى من خلاله، ونفض هذا على القارئ في صورة فكهة مستملحة. وهذا النوع من البيان إنما تَرَّويناه من كُتَّاب الغَرب، وما فتئنا نقلدهم فيه تقليداً، على أن بعض كُتّاب العرب من أمثال الإمام الجاحظ قد سبقوا إلى شيء من هذا التصوير البياني، إلا أنهم لم يعدوا فيه تسقط هنات المرء، والصولة عليها بألوان التندر والتطريف. أما التوسل بمظاهر خلال المرء إلى مداخل نفسه ومنازع طبعه، وإجراء هذا على أسلوب علمي وثيق، فذلك مالم أقع عليه في منادراتهم ووجوه تطرفهم"[١].

وقد سلك هذا المسلك أيضاً إلياس أبو شبكة في كتابه الرسوم[٢]، ومثله ما كان يكتبه طاهر الطناحي في مجلة الهلال تحت عنوان: حديقة الأدباء، فهو ينقد الشخصيات في قالب فكاهي[٣].

---

(١) في المرآة- عبدالعزيز البشري،-مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة -الطبعة الثانية ١٣٦٦هـ (ص :و)

(٢) انظر: كتاب الرسوم - إلياس أبو شبكة- مطبعة المعرض- بيروت -طبعة سنة ١٩٣١م(ص٥)

(٣) انظر: مجلة الهلال- العدد (٧)- المجلد (٥٩) ١/ يونيو ١٩٥١م، ٩/٢٧/ ١٣٧٠ هـ(ص٢٦)

الخاتمة:

وبعد، فقد ترجم هذا البحث لعالم أديب، بدأ حياته العلمية والأدبية متوهجاً، ينشر ويبدع، يغشى المنتديات، ويخطب في المحافل، ولكنه لم يستمر على ذلك طويلاً، فقد غير مسلكه وبدل طريقه، فاختار طريقاً يؤثر العزلة، ويركن إلى الانزواء، والبعد عن الأضواء.

وقد أوضح هذا البحث الجانب المبدع الذي عاشه الفالح، في أثناء دراسته في دار التوحيد، وفي كلية الشريعة بمكة.

وأبان عن الحراك الثقافي والأدبي الذي كان يلقى في ردهات تلك المنارتين، ولكن كثيراً منه قد ضاع، فليس بين أيدينا مما كان يلقى في تلك الحفلات والندوات إلا القليل جداً.

وأثبت هذا البحث قصائد شعرية ونصوصاً نثرية، تدل على عمق موهبة الفالح الأدبية.

وأبرز أيضاً تأثر الفالح بالمذهب الرومانسي الذي كان شائعاً إبان نظم تلك القصائد، فاستطاع أن ينظم قصائد حوت جمالاً وإبداعاً.

ولعل أدب الفالح يجده مكانه المناسب في كتب الأدب السعودي، ولعل ترجمته تجد طريقها إلى الكتب التي تترجم للأدباء السعوديين.

نماذج من شعره:

(خداع)[1]

يا كؤوس المنى نَعِمْتَ شرابا
غير أَنّي ألفيتُّك بعدُ سرابا
تمنحين الفتى الوعود خداعا

(١) المدينة المنورة- العدد (٢٧٠)، ١٣٦٧/١/٢٤هـ- خداع- عبدالله الفالح،(ص٤)

وَتُرَجيّنه الجَنَى المستطابا
فيظلُ المغرورُ في حُلْمِه الناعمِ
يرجو وراء ذاك ثوابا
يردُ المرءُ منهلاً منك عذباً
فإذا به يستحيلُ عذابا
كم وعودٍ قد احتسينا عقاراً
نشوة منه أفقدتنا الصوابا
فطفقنا نهيمُ في كُلِّ وادٍ
للأماني نرتادُ فيه الرِّغابا
غَيْرَ أَنَّ العُمْرَ انطوى دون جدوى
وصحونا نجرعُ اليوم صابا
(من الخفيف)

الطائف ـ عبدالله الصالح الفالح.

(ذكرى الهجرة النبوية)[1]

ألهمني يا مبعثَ الذِّكرَيات
لُغَةَ الشِّعْرِ صادقَ اللَّهجات
وأفيضي عليَّ من نبعك الصاف
ي بياناً أُزْجِي به نفثاتي
وابعثي في مشاعري كل معنى

(١) أم القرى – العدد (١٢٤١)، ١٣٦٨/٢/٢٣هـ- ذكرى الهجرة النبوية- عبدالله الفالح.(ص٢)

سرمديِّ الجلال جَمِّ العظات
فلذكراك في فؤادي رمزٌ
ثابتُ الأصل مُعْتَلِي الدَّرجات
كم حنينٍ إليك عاودَ نفسي
فاستفاضتْ لذكره عبراتي
واستفزَّ الشعورَ مِنِّي حَتَّى
كَدِتُ أبقى أَسِيْرَهُ في حياتي
ورماني في حيرة بين يأس
ورجاءٍ أهيمُ في خطراتي
فإذا بي قد رجعتُ لنفسي
أتهادى في عالم الذكريات

بين عامين وقفةٌ هي درس
مستفيضٌ لصادقِ العزمات

* * *

إيه رمز الهدى استهلي حديثاً
فيه نفح من آيك البينات
وأعيدي الذِّكرى لعصر مجيد
حافل في روائع المعجزات
وأريني مواكب المجد لما

أَوْغَلَتْ في مهامه الفلواتِ
هبةُ الإله للخليقة سِرٌّ
يتخطَّى السهول والهضبات
مشهدٌ رائعٌ به قد أحاطت
هالةُ النُّورِ عبقريُّ السمات

* * *

إيه زُفِّي لنا الأقاويل يا ذكرى وجُودِي بثاقبِ اللمحات

وأميطي اللِّثام عن سالفِ الأجيال تَرْوِي لنا حديث الرواة

حيث تُملي على الأنام سُطُوراً
مِنْ سجلِ المواقفِ الخالداتِ
يوم جاء الهدى يُشِعُ ضياءً
قُدْسيّاً يفيض بالبشريات.
وتجلَّت شموسُ رحمةِ ربي
تتحدى غياهب الظلمات
فاستنارت بنورها واستمدَّتْ
في سناها عوالم الكائنات
وسرت في الآفاق شرقاً وغرباً

بذكاءٍ مبارك الخطواتِ
أشرقت منه أنفسٌ طاهراتٌ
نظمتها رسائلُ الرَّحَمات
وَجَلاها في صَيْقَلِ الحقِّ حتى
برئت من شوائبِ النزواتِ
فأنابت لربِّها واستجابت
لنداءِ الإيمان والمِكْرُمات
وتزَكَّت لما أتاها تقاها
فتسامت عن حَمْاةِ الشهوات.

* * *

نفحاتٌ من المهيمن جَلَّت
حكمةُ اللهِ واهبُ النفحات
حَلَتِ الأرضُ من حُلاَها وشيكاً
تنقذُ النَّاس من حُمَى الهَلَكَات

وَتَبُثُّ الهناءَ والخيرَ والرشد جميعاً في هذه الرحبات

فهي السرُّ للسعادة في الخلق، ومنها تَحَقَّقُ الأمنيات

وهي مِنْ بعدُ مصدرٌ للجمال الفذِّ والحُسْنِ رائعِ القسمات

(من الخفيف)

الطائف- دار التوحيد-عبدالله الصالح الفالح.

(عقاقير)[1]

صَبِّرِ النفس على مُرِّ القضاء
وادْعُها رغم التجافي للرضاء
وإذا ما خلتها موهنةً
فابعثِ الآمال فيها والرجاء

وارتقبْ إن ما الدياجي استحكمت
فَلَقَ الإصباحِ وَضَّاحَ السَّنَاء
فَلِكُلِّ أجلٌ يسعى له
ليس بعد البدءِ إلا الانتهاءِ
وأمورُ الخلق مهما عظمت
ولئن طال المدى ـ رَهْنُ الفناء
وحياة المرءِ كَدٌّ كُلُّها
من عناءٍ فيه يُفْضي لعناء
ضلَّ من يطلبُ فيها راحةً
ليس بالعيش لذي حِجْرٍ هناء
فدع السخط فما في وِرْدِه
قطرةٌ تشفي غليلاً من ظماء

---

(١) المدينة المنورة -العدد (٢٨٢)، ١٣٦٨/٤/١٩هـ- عقاقير -عبدالله الفالح.(ص٤)

فهو بالقلبِ جحيمٌ سُعِّرَتْ
ولظى تَفْرِي شَراسيفَ الحشاء
كيف نبغيه عزاءً وبه
لو عقلنا شرَّ أنواعِ الشقاء
وحذارِ اليأسَ، لا تركنْ له
كم صريعٍ فيه أعياه الشفاء
وبحبلِ الله كن معتصماً
وَكلِ الأمرَ إلى رَبِّ السماء
فجميعُ الكونَ في قبضته
جَرَتِ الأقدارُ فيه كيف شاء
وإذا نَفْسُك من أشجانِها
صَدَأَتْ وانكدرتْ بعد صفاء
فعلى الآمالِ عَرِّجْ ناشداً
صَيْقَلَ الآلام فيها والجلاء
(من الرمل)

الطائف ـ دار التوحيد ـ عبدالله الصالح الفالح.

* * *

(في مراقب الكلية)[1]

قالها في مراقب كلية الشريعة بمكة آنذاك الشيخ عبدالرحمن المانع، ومساعده أبي الوجيه، وقد زارا دار التوحيد:

مرحى لهذا المانعي الألمعي المجْتَبَى

أخلاقُهُ عطرٌ كأزهار البنفسج في الربى

وأبو الوجيه وزيره يهنيه ذاك المنصبا

وإذا تبدَّى في العقالِ، وقد تَلَفْلَفَ في العبى

ألفيتَهُ كأميرِ قومٍ لا يزال مُقَرَّبا

كانوا في المبني في الماضي فأضحوا معربا

(من مجزوء الكامل)

(لحن شارد)[2]

للسنا الشارقِ المطِلُّ على الأرض يناجي رحابها في سكون

والأغاني العذاب تبعثُ للروح ندى الرِّضى وعطرَ الفُتُون

---

(١) الجزيرة – العدد (١٤٤٢٦) ١٤٣٣/٥/٥هـ- مقال سابق –خالد الهويش.(ص١٩)

(٢) المدينة المنورة- العدد (٣٧٧) ١٣٧٠/٥/٢٢هـ- لحن شارد- عبدالله الفالح.(ص٤)

ورفيفَ الزهرِ فوق الرياض الخُضْرِ يغري الفتى بسكب اللحون وللنسيم العليل يعبق بالأنفِ، شذاه منمقاً بالفنون هي عندِي مباهجُ الكونِ في هذي الحياة التي تثير شجوني وتريني العيشَ المنَكَّدَ والحزن ضروباً من الأسى المأفونِ أحتسيه مدى الزمان احتساءَ المدمنِ المرتمي بِحُضْنِ الجنون

* * *

أنا أحيا على بقية آمال، أراها تهافتت للفناء أقطع العمر في مناجاة أحلامي وأطوي بين الجوانح دائي مستهام الفؤاد لجَّ بي الشوقُ فأورى الجحيم في أحشائي كلما جئت أستفيء ظلال الحُسْنِ ثرَّ السَّنا بهيِّ الرواءِ دفعتني عنه أيادي أتعاسي، فَخَيَّمَتْ في هجير شتائي أرمق الماضي البعيد، فتستشرفُ نفسي وأستطيب رجائي

وَأُمَنِّي النفسَ التي طال مسراها، ولم تلق فيه غير العناء

* * *

أين سلواي بعدما تِهْتُ في مهمه بلواي واحتسبت حياتي وجفاني الإسعاد، فانقدتُ للحرمانِ أسوانَ أمتطي حسراتي ورمتني أيامي السودُ في الحيرة حتى غصصت في آهاتي يَئِسْتُ ألقى الصديق يُفَرّجُ عني ما ألاقيه من جَوًى وشتاتِ لا ولا تسمح الليالي بإسعافي بما فيه سلوتي ونجاتي فاتركوني أهيمُ في حيرتي الكبرى إلى أن أرى الطريق المواتي أو ألاقي دون الذي أنا أهواه صعاباً تَرُدَّنِي لمماتي

(من الخفيف)

عنيزة – عبدالله صالح الفالح

(نشيج قلب)[1]

يا شجونَ القلب أرفقي
بغريبٍ عاف الحياه
وعلى القلب أشفقي
فلقد ذابَ في أساه
وإذا شئت أشرقي
لفتى في دجاك تاه
حسبُه اليومَ ما لقي
من ضنى الشوق في هواه
فارحمي منه ما بقي
فلقد وَدَّعْتِ مناه

* * *

طال في غمرة الهوى
سبحةُ القلب المستهام
شَفَّة الوجدُ فانظري
مودعاً سرَّه الظلام

(١) المدينة المنورة- العدد (٣٨٩)، ١٣٧٠/٨/١٧هـ- نشيج قلب- عبدالله الفالح.(ص٤) وكان قد سماها في الأصل المخطوط: (يا شجون القلب) لكنه شطب عليه، وأثبت المذكور.

وتحافى به النوى
فتمادى به الغَرَام
لا تلمه إذا ثوى
ضارعاً بلثم الرَّغام
فلقد مسَّه الجوَى
فسقاه كَأْسَ الحِمَام

* * *

الرؤى الحالماتُ لم
تعد اليومَ في الدُّنا
والأماني في الظُّلَم
لم تعد تذكر السنا
والأزاهير للعدم
قد تهاوت قبل الجنى
والتهاويم بالنَّغَم
راقصاتٌ بقربنا
ما لها اغتالها السأم

فانبرت تشكو الضَّنَى

فارقبْ النأي قد وجم

وطوى لَحْنَهُ الفنا

عانقَ الروحَ فابتسم

وأنكرته فانثنى

(من مجزوء الخفيف)

عنيزة– عبدالله صالح الفالح.

(أصداء الخريف)[1]

يا زهرةَ العُمْرِ التي صَوَّحَتْ
من قبلِ أن نَسْتَافَ منها العبير
ويا مُنَى القلب التي هوَّمت
في عالمِ الأطيافِ تشكو المسير
ملتاعةً حتى لقد أَوْشَكَتْ
أن تتركَ القلب لأسر الشُّرور

* * *

ويا رؤى الأفراحِ في مهجتِي
تختالُ إدلالاً بسحر الفتون
وبسمةَ الآمال في حيرتي

(١) المدينة المنورة، – العدد (٤٠٨)، ١٣٧١/٢/٧هـ– أصداء الخريف– عبدالله الفالح.(ص٤)

تزوَّد عَنِّي غائماتِ الشُّجون
ويا (.....) أنت أو شقوتي
قد ساورتني فِيْكَ شَتَّى الظنون
* * *

أيقظتِ في قلبي المنَى الباسمات
لكنك استأثرتِ في سِرّها
وهِجْتِ لي في عالمِ الذكريات
مواجدي فاحترتُ في أَمْرِها
فودّع القلبُ صَدَى النعيات
ليبعثَ الأشجانَ من قبرِها
* * *

أَكُلَّما مرَّت على خاطري
نجواك هام القلبُ في شقوته؟
واسودَّتِ الأشباحُ في ناظري
والكونُ ساد الصمت في لُجَّتِهِ
فَعُدْتُ في دنيايَ كالسَّادر
يلوذُ بالأوهامِ من حيرته
* * *

هل بعد آلامي يشعُّ السرور
على فؤادٍ عاشَ رَهْنَ الظَّلام
وهل بُعَيْدَ الهَجْرِ تصفو الأمورُ

فنلتقي نشوى بروح الوئام
تحنو علينا ناظراتُ الزهور
في روضةٍ فاضت بسحرِ الغرام
أم سوف نبقى في شِعَابِ الزَّمن
تلوي بنا أشواقُنا الثائره
مِنْ كُلِّ قلبٍ قد طواه الشَّجَنْ
وأرَّقته اللهفةُ العاثره
غَنَّى بألحانِ الهوى فافتتن
لما استبته المقلة الساخر
* * *
ونرتمي صَرعى بظل الأسى
تئن بنا جراحنا الداميه
تنأى بنا الآمال أن نيأسا
ولا تروي الأكبد الظاميه
لعل أيام الهناء أو عسى
تعود في أفراحنا الشاديه
أو لا، فإن القلب لن يهجسا
من بعدُ في آمالهِ العاليه
سيان إن رق الهوى أو قَسَا
إذا انطوتْ أحلامُنا الزاهيه

(من السريع)

عبدالله صالح الفالح (عنيزة)

(ومضات)[1]

أين أَمْضَي في ركابي بين هاتيك الرحاب

طُرَقٌ ذاتُ شعاب أسلمتني للصعابِ

دون أن ألقى طلابي!!!

طال شَجْوي وانتحابي وَتَقَمصَّتُ اكتئابي

أَتُرى ينْجَابُ ما بي من شُجُونٍ واغتراب

أوقعاني في عذاب!!!

خطرات من فؤادي نَغَّصَتْ صفو رُقَادي

ورمتني من سُهَادي بسهامٍ لاصطيادي

ما رَمَتْ غير صوابِ!!!

(١) ورقة مخطوطة مكتوبة بيد الشاعر(من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية).

أملٌ يبسم طورا ثم يخبو مكفهرا

كلما قلتُ استقرّا رام تكذيبي ففرَّا

وتوارى بالحجاب!!!

ها أنا أطلب شأوا وهو عَنِّي اليوم يُزْوى

أَتَرى لي عنه سلوي أم أعود اليوم نضوا؟

ودموعي بانسكاب!!!

كم تعشقت الزهورا وتذوقت الحبورا

أَعْصُرٌ وَلَّت نُفُورا كم بودي أن تحورا

غير أن الجد كابي!!!

أفأشدو بالقصيد وَأُغَنِّي بنشيدي؟

وأنا غير مُرِيْد لَسْتُ من ذا بالمجيد

لو تَمَحَّلْتُ لبابي!!!

أنا في بَحْرٍ خِضَمٍّ غارقٌ فيه بوَهْمِي

كُلَّما استجمعتُ عزمي عَلَّنِي أنجو بِعَوْمِي

غطَّني موجُ العباب!!!

أُتْرِعتْ كأس حياتي بمزيجِ الحسراتِ

يا لها من جَرَعَات جَلَبَتْ لي شقَّواتي

فهي كالسُّم المذاب!!!

آدني فَرْطُ التأسِّي واستوى يومي وأمسي

كُلَّما حاولتُ نفسي زادني نَحْسَاً لنحسي

هاجسٌ ليس يحابي

امضِ في دَرْبك صاحِ واترك اليوم سَرَاحي

فلقد هِيض جناحي رغم أني ذو طماح

آه من عظم مصابي!!!

أَنْتَ حَتَّام تَجَنَّى أَيُّها القلبُ المعَنَّى

إن تكن للحزن رهناً فسواك اليومَ مُضْنَى

فدع الآن عتابي!!!

لا تُؤَنِّبني كَفَاني عظةً صرفُ زَماني

فَرْقُه بَعْدَ التداني وجَفَا بعد التفاني

هدَّ ما صرح شبابي!!!

كم تداويتُ بدائي أبتغي فيه شفائي

فإذا طول عنائي بالذي كان عزائي

أين من بعد رغابي!!!

أيُّها الساكب دمعا لست في ذلك بدْعا

غيرَ أَنِّي لك أنعى حيثُ لا يجديك نفعا

غير تضعيف العقاب!!!

نضبَ الماءُ النميرُ واختفى الخيرُ الكثيرُ

صوَّح الزَّهْرُ النظيرُ وخبا البَدرُ المنيرُ

أتري أين مآبي!!!

(من مجزوء الرمل)

(!!!؟)[1]

ح: حلم داعب جفني زمنا ثم وَلَّى فشجاني حزنا

سكنتْ نفسي إليه ساعة ثم لا أعلم أيّان أنا؟

ن: نظرتْ عيني سراباً عندما أشرفت تبحثُ عنه في الدُّنا

آهِ يا حلمي الذي عشْتُ به قد تولَّى عندما طاب الجنى

ليتني ما عَلِمَتْ نفسي به وتولَّى قبلما عوَّدنا

إنَّها الأيَّامُ هذا دأبها تَصْدَعُ الشَّمْلَ وتُقْصِي من دنا

لا أبالي بالليالي فافعلي كُلَّما شئت أراه هينا

ش: شيمةُ الحب اصطبارٌ خالدٌ بين أشتاتِ ظنونِ ومُنَى!!!

(١) ورقة مخطوطة مكتوبة بيد الشاعر (من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية).

ي: يأخذُ الشوقُ الذي شاء له والرُّؤَى تبعثُ ذكرى قربنا

خَفِّفِي من حُبِنَا أو ضاعفي يا ليالي من عذابي والضَّنى

(من الرمل)

"غلبان"

"م، أ"

* * *

(موكب النور)[1]

قالها بمناسبة افتتاح مبنى المدرسة السعودية بعنيزة في يوم ٢ صفر ١٣٧٢هـ:

طلعَ الصباحُ فهل رنوتَ إلى هُنا ... لترى السَّنَا الرفاف يهتف بالمنى

يختالُ بالأفقِ الرحيبِ كأنما ... كشفت له الأيام مما استبطنا

فمضى يتيهِ على الزمانِ وأهلهِ ... ويريقُ لحن البشرِ في سَمْعِ الدُّنى

ويطلُّ من أعماقِه روحُ الرِّضا ... فيشيدُ الأملَ البهيجَ مُلَحِّنَا

مستبشراً فيما رأى متفائلاً ... مما بدا متهللاً لما رنا

ألقى له الأملُ الضحوكُ زِمَامَه ... فأتى به جذلانَ يمنحُهُ لنا

فانظر إلى الحشدِ العظيمِ وقد أتى ... ليخلِّد اليومَ السعيدَ لحفلنا

يومٌ به تحلو أغاريدُ المنَى ... ويصافحُ المجدَ التليدَ المحسنا

وترفرفُ الأطيارُ في وُكُنَاتِها ... فرحاً بمقدمِه ويرتعشُ السَّنا

---

(١) الثقافية (ملحق الجزيرة) – العدد (٢٢٣) ١٤٢٨/١١/٩هـ- مقال سابق - عبد المحسن الحقيل(ص٨). وانظر: معجم عنيزة (١٩٥/١٢).

وَيُرَتِّلُ الوطنُ الحبيبُ على الملا أغرودةً يشدو بها متفننا

يسخو بها من قلبه في نغمةٍ يصغي لها النائي البعيدُ ومن دَنَا

فاسمعْ إلى أنشودةِ الفخرِ الذي قد لاح في سِفْرِ الخلودِ مُدَوِّنا

وانظرْ إلى هذا البناءِ وقد بدا في روعةٍ بهرت رؤاها الأعينا

وأسأل فؤادكَ من تُرى قد شادها حصناً لأبناءِ البلاد ومأمنا؟

العلمُ فيه على الذُّرا متربَّعٌ والجهلُ يُنْبَذُ في التراب مكفّنا

يتفيأُ النشءُ العزيز ظلالَها وينالُ من أثمارِها طيبَ الجَنَى

ويعيشُ في أفيائِها متخطياً سُبْلَ الصعابِ إلى العلومِ بلا ونى

ويعُبُّ من نهرِ الحقيقةِ والهدى مستقبلاً عهد المسرَّة والهنا

ويرودُ للعرفانِ أسباب العلى فتجيبه النُّعمى وينقادُ الغنى

ويعيشُ في ظلِ النعيمِ على هدى متمتعاً بحياتِه مستأمنا

فاهتفْ لمنَ قد شادَها مُتَفَضِّلا ... للهِ ما قد يبتنيه وما بنى

في مثلِ ذا تُحْلَى السماحةُ والنَّدى ... أعظمْ بمن تَخِذَ المكارمَ ديدنا

عبثاً أحاولُ أن أشيدَ بذكرِه ... من دونه الألقابُ تَقْصُرُ والكُنَى

صَدَحَتْ له الأيامُ أعذبَ نغمةً ... قد ضمنتها الشكرُ يَعْبِقُ بالثنا

وبِكُلِّ قلبٍ فرحةٌ جياشةٌ ... نَظَمَتْ بعيدَ الدارِ والمستوطنا

قد كنتُ أحسبهُ خيالاً عابراً ... فإذا به يحلو بعيني مسكنا

تبدو الأمورُ على التواني صعبةً ... فإذا عزمتَ وجدتَ شيئاً هينا

كم ذا ظننا المستحيلَ فراعنا ... لما بدا في السعي أمراً ممكنا

آمنتُ أنَّ العلمَ سرٌ باهرٌ ... يمحو الجهالةَ والمذلَّةَ والضَّنَى

ويهيبُ بالآمالِ وهي عزيزةٌ ... فإذا بها وقد استقرَّت عندنا

والعلمُ ينبوع الحياة وروحها ... وهل الحياةُ بغيرِه إلا الضَّنَى

فانظرْ ترَ المشبوبَ من نفحاتِه يهبُ الشعوبَ حضارةَ وتمدُّنا

ويمدّها في كُلِّ ما تصبو له فترى لها في الناس شأناً معلنا

هم فيه يبتدعونَ كُلَّ عظيمةٍ تتخطفُ الأبصارُ مما حولنا

كم نال فيه ذووه كُلَّ كريمةٍ وأحلَّهم سمتَ الكواكبِ مكمنا

بالعلم يُحْمَى يا بني وطني الحمى لا بالسيوفِ كما مضى أو بالقنا

وبه يعيشُ الشعبُ مرهوبَ القوى متسنماً أعلى الذُّرا متمكنا

يحيا كما أملت له أحلامُه ويهيمُ في سبلِ السعادةِ ممعنا

إن الحياةَ لمن تدبَّر أمرها لم تستجبْ أبداً لغِرّ أرعنا

فإلامَ نبقى نحنُ في أحلامِنا صرعى كأنا قد نسينا مجدنا؟

ياليت أنَّا نستفيقُ من الكَرى حتى نراجعَ مجدنا ياليتنا!

أوليسَ في الماضي الأغرِّ دلالةٌ أن العلى كانت قديماً ملكنا؟

عودوا إلى الماضي البعيد لكي تروا عهداً أضعناه فشتت شملنا

وإلى الأمام إلى الأمام فقد بدا عهدٌ جديدٌ واستهل مؤذنا

للنهضة الكُبْرَى أَعِدُّوا أمركم فإلام ترضى أنفس أن تُغبنا؟

ما المالُ ما الحسبُ الرفيعُ إذا انزوى عن كُلِّ ما يُعلي ويحيي الموطنا

ماذا يفيدُ إذا أضعنا عمرنا في غيرِ ما يُجْدِي ويصلحُ أَمْرَنا

يا موكبَ الأنوارِ طال بنا الظَّما فاسكبْ لنا من فيضِ نورك واسقنا

لم تأذنِ الأيام أن نلقى العلى فيما مضى فاهتف بها كي تأذنا

بدمي بروحي أفتدي هذا الثرى أَنَّا دون مغناي المُفَدَّى من أنا

أبداً أنا الباكي إذا وطني اشتكى وأنا الغنيُّ ـ ولو عَدَمْتُ ـ إذا اغتنى

من كان يَرْعَى للبلاد حقوقَها فأنا الذي ما زال فيها مؤمنا

في مهجتي ألمٌ وفي قلبي أَسَى حتَّى أرى وطني أعزَّ وأمكنا

(من الكامل)

عنيزة ٢ صفر ١٣٧٢هـ

المقطوعة الأولى[١]

ونظم هذه المقطوعة التي بدأها بقوله:

فاستدرك ما فاتك بما بقي لديك، قبل أن يفوتك الأوان ثم تبقى صريع الأحزان، مالك والتسويف، فليس من الحزم في شيءٍ، وإنما هو مصائب يصابُ بها الإنسان.

هذا أخو "الجوز" استنار طريقه ... فَهَلُمَّ يا أقوامُ للعلياء

خلوا الحديث عن (الُعَبيْدِ) فما لكم ... (وأُسَيْوِدٍ) ذي عَيْلة وعياء

القوم ساروا للعلى وأراكُمُ ... في جهلكم حلفاء كل عناء

هَلَّا اتخذتم للمعالي سُلما ... تعلون فيه مقاعد الكرماء

وبه تشيدون المفاخر جَمَّةً ... حتى تعيشوا في رضىً وهناء

(من الكامل)

* * *

(١) ورقة مخطوطة مكتوبة بيد الشاعر. (من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية).

المقطوعة الثانية[١]

وقال:

أنا مِنْ حُبِّي العميق أُغنِّي لو يفيدُ الغناءُ قلبَ المتيمْ

قد أثار الشوق المجَنحُ وجداني فأصفيته الفؤاد المقسَّمْ

كل يوم أرى كياني على صَخرِ شجُوني وحرقتي يتحطَّمْ

يا لها روعةٌ تفيضُ بنفسي ظلماتٌ حليفها يتوهم

آه ما أنكد الحياة وما أقسى جفاها لوالهٍ يتظلَّمْ

(من الخفيف)

المقطوعة الثالثة[٢] :

قال:

أنا يا حبيبي في هواك قلقُ المشاعر والفؤاد

ما كنت يوماً في رضاك أبقي بديلاً في المراد

---

(١) ورقة مخطوطة مكتوبة بيد الشاعر(من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية). وكان الشطر الثاني من البيت على النحو التالي: (ومنه الكيان قد تحكم). وغيّره الفالح كما في الأصل المخطوط.

(٢) ورقة مخطوطة بيد الشاعر. (من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية).

فمتى ألاقي من جناك ما فيه موفور السداد

أواه ضاقت بي الشباك وبكيت من هول البعاد

آه، آهٍ، آهٍ آهٍ، آهٍ يا مرادي

ـ مقتطفات[1] **ـ**

قال:

إذا القلبُ أعطى للغرامِ زِمامَه

فلا تعِذله إن هَوَى فتحطّما

وَحَدَّث في نجوى الخواطر نفسَهُ

فأعربَ في نجواه طوراً وأعجما

(من مجزوء الكامل)

ـ بيت مفرد ـ

وقعُ الصبابةِ بالفؤادِ أليمُ

بين الجوانح شب منه جحيم

(من الكامل)

ـ بيت مفرد ـ

(١) ورقة مخطوطة مكتوبة بيد الشاعر(من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية).

هو الحسنُ يفضي للمشاعر سحره
فيصحو بها المسكين صَبّا مُتيما
(من الطويل)
ـ بيت مفرد[1] ـ
حَدَتْهُ صبابات الهوى فترنما
وأغراه موفورُ المواجدِ فارتمى
(من الطويل)

* * *

(١) أوراق مخطوطة مكتوبة بيد الشاعر(من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية).

نماذج من نثره:

١) النص الأول[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

عدسة المعنويات (تلتقط صوراً لهؤلاء)

هذا الذي سأقدمه اليوم أيضاً أحد زملائي، وهو ممن حظيت بشرف صداقته، وما زلت أرعاها له كما هو كذلك – على ما أظن –، ولكن الحكم في هذا التقديم ليس لي، وإنما هو للعدسة، فهي لا تعرف صديقاً ولا قريباً؛ إذ مهمتها أن تلتقط الصور كما يبدو لها دون أي اعتبار آخر، فصداقتي – لهذا الزميل – لا تؤثر على الموقف، ولن تُجدي شيئاً في هذا المجال ما دامت العدسة ليست من أصدقائه، وكما أنها لا تعترف بالصداقة لمن سواه، فسواء عندها المحب القريب، أو الجافي الغريب.

بعد هذه المقدمة، هل تدري من هو صاحب الصورة؟!

قف ولا تكلف نفسك بالبحث عنه إنه:

(.....)

أنا أعلم أنك ستتطلع قبل كل شيء لترى أين بلاده؟ وكيف نشأ؟ وإلامَ ينتسب؟ كما هي العادة، وهو الذي يجري فيه حكم الطبع الذي يتدرج بالأشياء من أولها إلى انتهائها، كانت ولادة صاحبنا ونشأته في المجمعة (عاصمة مقاطعة سدير) فهو إذا مجمعي – كما ترى – أما إن أردت أن تنسبه فإلى...،

(١) ورقة مخطوطة مكتوبة بيد الشاعر.(من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية).

وهي أسرة معروفة هناك، عريقة بالنسب. كان مَنْشَؤُه في بيت من أواسط البيوت، شب وترعرع بين أبويه، ثم آن له أن يدخل الكُتاب في صباه، فدخله، فحفظ القرآن الكريم مع مبادئ القراءة والكتابة. ثم أسست هناك المدرسة الحكومية. فسارع إلى الالتحاق بها، حيث الدروس المنظمة هناك. ولما أشرف على النهاية وأصبح في الصف الخامس منها؛ وهو إذا ذاك أعلى صف تشمله جدرانها، وقفت مركبته عن السير، وهو يريد المسير، فماذا يعمل؟

لقد بقي فيها كالماء الآسن، غاظه ذلك، فاضطر إلى تركها – وهو على مضضٍ – أو بعبارة أصح هي التي تركته، هناك اتجه إلى حلقات القرآن في بلاده، ثم في الرياض أخيراً.

وكانت دراسته عليهم دارسة مشايخنا المعهودة، وبدون تعليق، اعتماداً على فهم المستمعين الكرام. أما إن ألَّحوا في أن نصرح لهم زيادة عن ذلك، فهي دراسة لا تغني ولا تسمن من جوع. ولا أقول: إنها (ضريع) لا لا... هذا قله أنت إن شئت – يا بليغ –.

ثم جاء إلى دار التوحيد فكان في مقدمة من وقع عليهم سهم الاختيار – ولا راد من قضاء الله– فعزموا عليه أن يلتحق في هذه الدار، بطريقة يسمونها الإجبار. وما كادت قدماه تطأ أرض هذه المدرسة، ويتعرف برامجها ومناهجها حتى اطمأن إليها، وأصبح فيها راغباً، وحمد العقبى؛ وما أظنه الآن يذكر ذلك إلا عَجِبَ، كيف تحوّل من تلك الحالة إلى هذه الأحوال؟!

لم أسأله كم سني عمره؟ لهذا لا تنتظر مني أن أحدد لك ذلك؛ وإن كنت قد سألت العشرين عاماً التي مضت من عمره، فأخبرتني أنه مر بها منذ بضع

سنوات، فعلى هذا يكون عمره قد تخطى العشرين سنة ببضع سنوات، فإن كان الأمر غير ذلك – لا سمح الله – فالمسئولية على مظهره في الجسم وملامحه، التي جعلتني أحكم عليه هذا الحكم.

دعني من هذا، وانظر إلى ما تنطوي عليه هذه الشخصية من معان كثيرة، فهو من القلائل الذين يتسمون بالاتزان والوقار والسكينة، يكاد يكون شعاراً ثابتاً لهم، تراه لأول مرة فتحسبه حينما يبدو لناظرك متزمتاً أو متكبراً أو شديد التعصب والمحافظة، ولكنك لا تكاد تكلمه أو تجلس معه، حتى تتغير نظرتك نحوه؛ وتضطر إلى تبديل رأيك فيه. فهو قد يهضم نفسه حقها، ويتنازل عن رتبته التي يستحقها لكل أحد، وهذا تواضع، فمنظره – والحق يقال – لا يدل على مخبره، من هذه الناحية وغيرها من النواحي، التي تكون بغير كفته.

وهو محافظ في سلوكه، جمُّ الأدب كثير الحياء، اكتسب هذه الصفات من نفسه بنفسه، فلم يكن إبان صغره يشرف عليه أحدٌ في طريقة تربيته الإشراف الكامل، فهو الذي أدّب نفسه بنفسه، لهذا لا نرى بأساً في أن نصفه بأنه عصامي، لم يساعد في تنشئته جاه ولا نسب، ولا اعتمد على خال ولا أب.

مجامل من الطراز الأول يحسن اللف والدوران، ويقوم بدور الثعلب في الحيصة والروغان، وذلك يحدث له في كثير من الأحيان. يصوغ العبارات والاعتذارات ويستطيع إقناعك – ولو كنت معتداً بذكائك – بما تأخذه عليه، وهو سائر فيما يريد.

أعجبُ منه أنه لم يكسب أصدقاء خلصا إلا في النادر، على ما أوتيه من حسن المجاملة وبديع الملاحظة؛ فمعظم إخوانه يحترمونه من بعيد إلى بعيد، ولعل

السبب في ذلك ليس غامضاً، وما هو إلا ترفعه واعتزاله الناس واختلاؤه بنفسه ودروسه.

له عقل كبير، يربو على علمه، وهذا هو السر الذي جعله يبرز بعلمه أكثر مما هو بالحقيقة، وذلك لاستطاعته أن يغطي نقصه في هذه الناحية بما قد أوتي من عقل، ومن أساليب لا نعرفها، فهي من أسرار "الدبلوماسية".

لم يؤت حكمة التحدث بالمحافل، لا سيما الكبيرة منها، لهذا تراه كثيراً ما يؤثر الصمت – وإن كان في جعبته بعض الكلام – لأنه ليس لبقاً في إدارة دفة الحديث وتشويق السامعين؛ لهذا لا تأخذ لحديثه بداية ولا نهاية، –مع الأسف – يستطيع ضبط أعصابه ووضعها في ثلاجة عند اللازم وغير اللازم، لذلك تراه في أكثر الأحيان هادئ الطبع، لا تثيره الكلمة ولا الكلمات، بل تمرُّ عليه بسلامٍ، ويمر بها هو مرَّ الكرام، ولكن حذار من غضبه الحليم.

وهو يحب التفلسف والتعليق على ما يقرأ – وما أكثره – فإذا وجد أذناً صاغية، وكان من يستمع إليه عدداً قليلاً من الناس، يحب التظاهر بالمعرفة والاطلاع، ولفت الأنظار أو بعبارة أخرى (يحب التعالم) وليس هو المنفرد بهذه الصفة، فهي زهرة كثير عشاقها.

للمنافسة عنده ميدان وأي ميدان! فهو لا يريد أحداً يسبقه – ما دام ذلك في يده، ويحتال على ذلك بشتى الحيل؛ حتى لقد تخرج به المنافسة عن طورها الذي يحبه إلى ما لا ينبغي – وأنت بذلك أعرف – يهولك منه ضخم جسمه، فإن كانت زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كما يقولون – فإن جسمه كبير فلا بد أن علمه كثير.

ولا تسارع – يا صاحبي – فتحتج عليّ بعظم البعير من غير لُبّ، فإن البعير لا يشذُّ عن القاعدة؛ إذا جعلنا لكل شيء اختصاصه، فالبعير كبير، لهذا يحمل الحمل الكثير – هل آمنت؟ قُلْ: نعم، وخل المغالطة، مالك ولها – إما إن لم تعجبك هذه الفلسفة فدعها لي مع الشكر

في شخصيته شيء من الغموض والإبهام، قد يخفى على بعض الأفهام. دؤوب في العمل حريص على الدراسة، مجد مجتهد، لا يدع فرصة تمر به دون فائدة، يحب أن يصل الليل بالنهار لو تمكّن، وإن لم تصدقني فاستنطق عينيه اللتين قد آداهما السهاد وطول النظر. لو أفاد بمقدار هذا الكلام والدأب لأصبح اليوم علّامة، طويل الباع، واسع الاطلاع، ولكن على ما يظهر لم يفد بمقدار ما أنفد – والسبب لا أعلمه أو أعلمه، ولكني لن أقوله، مع أنه اليوم من المبرزين في هذه المدرسة، فإن كان في الصف الخامس الثانوي منها، فإنه فوق ذلك من الرعيل الأول بين أقرانه في جميع مراحل دراسته، وهذا ثمرة جهده وحرصه على وقته.

ميدانه إذا أردنا التفصيل يتجلى في العلوم الدينية ثم علوم اللغة العربية لا يدانيه فيهما أي شخص آخر من أبناء هذه الدار. وإذا كان قد اتجه إلى هذه فإن حظه من العلوم الأدبية وملحقاتها ليس بالقليل، فقد هرب منها أولاً فأبت إلا أن تلاحقه فأمسك الآن بالزمامين.

عنده إلمام من الثقافة العصرية، ويحب الاطلاع على الصحف والمجلات، ولكن إفادته منها لا تذهب به بعيداً. بقيت العلوم الرياضية، وهذه لم يحظ فيها بشيء يذكر، وإن كان اتجاهه نحوها طيباً لو وجد متسعاً من وقته.

ذكاؤه متوسط، وتفكيره منسجم ممتاز، ولديه حافظة ليست بالقوية، لهذا كثيراً ما تخونه في المحافل، حينما يمسك طرف الحديث فيضيع عليه طرفه الآخر، يأخذ الأمور كما هي، وتنقل نقلاً، فإذا حاول تحكيم ذوقه تَخَلَّف في هذا المضمار.

أفاد من هذه المدرسة كثيراً وكثيراً في شتى النواحي العلمية، فقد وفد إليها قبل أن يحمل الشهادة الابتدائية، في السنة التي التحق فيها هنا، ثم اتجه إلى الدراسة الثانوية. ليس له في الشعر ميدان يذكر، وإن كان قد حاول أول الأمر أن ينظم، فنجح في هذا بعض الشيء، ولكنه لم يستطع أن يشعر، والفرق بينهما ظاهر. وهناك رأى الجو غير ملائم فتحول منه إلى ميدان النثر، فهو الآن من الكتاب الممتازين في هذه الدار.

يغلب على أسلوبه الصرامة والجد، ويصطبغ بالصبغة العلمية أحياناً، لهذا يفقد شيئاً من الحلاوة والعذوبة، ثم هو يحب التطويل في كل مجال، سواءً أكان ما يكتب خطاباً خاصاً أم عاماً أم موضوعاً إنشائياً، وهذا التطويل كثيراً ما يجنى عليه من حيث لا يدري، فلو أوجز حينما يكتب، وتحرى الأسلوب السهل الممتع، لكان لما يأتي به من حقائق أثر كبير، فلعله يجبر في خاطري، ويستجيب لهذا الاقتراح مع القصور.

وصاحبنا بعد هذا قليل الكتابة في غير المناسبات، ما أدري ما هو السبب؟ هو يعرف بلا شك — ولئن سألتني عنه بالجملة، إنه ممتاز حقا في خُلقه، وعلمه وأدبه، وإن كان يحتاج إلى (أبا زير) من هنا وهناك، ليتم له الامتياز؛ لهذا كله فإنني أتنبأ له بمستقبل زاهر — إن شاء الله — أما نبوءتي فيما لعله يشغله من

المناصب في المستقبل فأخشى إنْ قلت: إنه رجل قضاء أن يغضب عليّ، مع أن هذا هو ما أرجحه؛إذ إن عِدَّةَ القضاء لا تنقصه... عفواً إن لم يناسبك هذا الترشيح فهو مني فقط، وإذا لم يعجبك فردّه عليّ، ومعذرة أيها الزميل – ثم اجعل بالك من أن هذه النبوءة مأخوذة – بالقوة والعزم فقط، فليس هناك وحي منزل ولا كتاب مرسل... يعني أنها نبوءة (على الهامش).

وإلى هنا أقف عن متابعة الخطاب فلقد أطلتُ عليكم الكلام حتى خشيت أن تصابوا منه في كلام أو على الأقل في صداع وزكام، لهذا أرى لزاماً عليّ أن أعرج على الختام، وما ذلك إلا لأنني أغادر هذه المنصة لأجلس حيث كنت قبل القيام.

* * *

٢) النص الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

١٧/ جمادى الثانية/ ١٣٦٨هـ

عدسة المعنويات (تلتقط صوراً لهؤلاء)[١]

إن هذا الذي سنقدّمُهُ اليوم أيضاً أحد الزملاء الكرام، الذي حُظينا بزمالته، وإن لم تصل إلى درجة أطلق عليها اسم الصداقة، وليس يهمنا في هذا المجال هذا ولا ذاك، إذا المقصود هو أن نأخذ لمن نريد أن نقدمه صورة كما نعرفه، أو كما يتراءى لنا، وفي هذا كفاية. وكما أسلفنا – غير مرة – من أن ليس لقدم

(١) ورقة مخطوطة مكتوبة بيد الشاعر (من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية).

توطد الصداقةِ أو ضدّها أثر على موقف العدسة التي أخذت على نفسها أن تصوّر من توجه إليه، كما هو في الواقع، لا كما تريد أو يراد منها:

وبعد هل عرفت من هو صاحب الصورة اليوم؟!

أظنك لا تعرفه حتى الآن؛ وقد آن أن تعرفه، سلني من هو؟ لأقول لك هو: –

(.....)

في الصف الخامس الثانوي، من أسرة هي أشهر من نارٍ على علم – كما يقال – يعرفها الداني والقاصي، والخاص والعام. استهلَّ حياته من حيث المولد والنشأة في الرياض بين أبويه. ثم شاء الله أن يفقد عطف والدته بوفاتها، فكان القائم على تربيته وتنشئته هو والده.

دلف إلى الكتاب في صباه كعادة من قبله وبعده، فحفظ القرآن، ثم أخذ من بعد مبادئ القراءة والكتابة؛ وبعدها عرَّج على حلقات العلماء في الرياض أولاً، ثم في الخرج آخراً – وليس أخيراً – وكان في هذه الفترة يدرس دراسة مشيخة أو بعبارة أخرى – دراسة استظهار لمتونٍ مخصوصةٍ في التوحيد، والفقه، والنحو (أو بَس)، ثم دراستها سرداً على وجه أشبه ما يكون أنه للتعبد لا للفائدة، وهذه طريقة أنعاها عليهم في كلِ مناسبة. – مع احترامي لشخصيات علمائنا الأفاضل – هو ما لا يلزمُ منه احترامُ مناهجهم التعليمية – إن صحّ هذا التعبير – لهذا تستطيع أن تبين أن صاحبنا لم يعرف المدارس النظامية قبل (دار التوحيد).

لست أدري، كم سني عمره بالضبط، ؟ حتى ولا التقريب، على أنني إن أردت تحكيم العقل بما قد سيبدو لي لأول وهلة، فسأقول: إنه دون العشرين من عمره، أما الخبير فيقول: إنه بين العشرين والثلاثين، قلت له: إلى أيهما هو أقرب؟ فأومأ إلى الثلاثين، فإن كان الأمر غير ما قلت – أو قال – فأنا أحمدُ الله على أني أروي خبراً منقولاً (وباب الرواية أوسع وأفسح من باب الإنشاء)، كما يقول من ليسوا بمجانين.

سمع بدار التوحيد عن بُعْدٍ، فجاء إليها في السنِة الثانية لتأسيسها، منقاداً راغباً في الدخول، فلم يكن بحاجة إلى سائقٍ ولا قائد. ما كاد يستقرّ بها حتى أمسك عليها بالنواجذ. ويظهرُ أن الذي دفعه إليها راغباً هو ما لديه من حرية في الرأي، وحب الأخذ بالجديد، ومسايرةً العصر الحاضر؛ فلم يكن – على رغم البيئة التي عاش فيها – ذا جمودٍ ولا تَحفَظٍ مُفرطٍ، أو تَزَمُتٍ مستكره. ولم يزل حتى الآن في عداد طلاب هذه الدار، وإن كان تحمسه لها ورغبته الشديدة –على ما يظهر لي – قد تَقلصَتْ بعض الشيء، أما السبب فلا يعلمه إلا الله ثم صاحبه.

هذه إشارة عابرة عما مرَّ فيه في بدء حياته حتى انتهى إلى دار التوحيد. أما إن أَرَدْتَ خلائقه وما يتصلُ بها مما لا بُدّ منه، فسأنبيك عن طرفٍ منها كما بلوته؛ فصاحبنا مُرهف الحس، رقيق الشعور، سيء الظن بكل ما حوله؛ ولا أدري هل هذا الأخير من الحزم أم لا؟! يتأثر من كل شيء ويضيق صدره لأدنى تصرفٍ من الآخرين، لا تعرف له حالاً معينة ولا تثبت به على رأي،

فهو تارة هنا، وتارة هناك. عرف زمانه فجاراه، فهو كالماء يتلون بلون الظروف، التي تكتنفه وينساب في تصرفه انسيابه.

يتعصب لآرائه ويجادل عنها، فهو في ذلك قوي الحجة، وشديد المعارضة؛ أعجبُ منه أنه لم يكسب أصدقاء من إخوانه طلاب مدرسته، على أن أصدقاءه خارج المدرسة كثيرون. عصبيُّ المزاج، لهذا تمر به بعض الساعات مهموماً مغموماً إلى حد – يجعله في حالة ترثي له فيها – ولو فتشت عن الأسباب لوجدتها أقل من المسبب. لا يحقر نفسه عن شيء، وإن كان استعداده دون ذلك. يجب التظاهر في كل ما يلفت الأنظار ويثير الإعجاب، ولو كلّفه ذلك، ويرى لنفسه منزلة لا ينتظر الناس يحلونه إياها، وإنما هو الذي يقدم نفسه أو قل: يفرضها فرضاً؛وأنت مصيب.

ينقلب كيف يشاء متى يشاء، ويحذقُ هذه الحرفة؛ لديه جرأة على الكلام بالمحافل الخاصة والعامة، ويحسن إدارة دفة الحديث واستثارة الإعجاب، ولو لم يكن جاء بشيء ذي بال؛ فهو قد راض نفسه على الحديث ولسانه على رصف الألفاظ العربية، وحبكها في معرض القول.

فهو بعدُ كثيرُ الكلام إذا تكلم، كثيرُ الصمت إذا سكت، وليس هذا من التناقض في شيء، فاجعل بالك له.

عنده تفكير منسجم، ودقة نظرٍ في المسائل الاجتماعية، وفيه تحمس للمشاريع الإصلاحية، والمرافق الحيوية، وليس لغيره من أقرانه، وما أدري أهذه غيرة صادقة، أم طبيعة متأصلة، أم غير ذلك؟ يُحِبُّ المنافسة، ويريد الظهور على غيره؛حتى ليخرج في ذلك عن طوره في هذا المضمار إلى ما لا يُحْمَدُ.

يتكلم فيسكت من حوله، ويذهبُ في الحديث كلّ مذهب، ولقد يروعك منه ذلك، فتلتفت لترى أين صاحب الكلام؟ ولكنك لا تستطيع رؤيته بسهولة إلا إن كان معك (ميكروسكوب)، ولعل هذا السرِّ الذي يحمل بعض الناس على الإعجاب به؛لأن كلامه لا يتناسب وقوامه.

فيه أنانية، واحتقار للغير، ولا يخلو من كبرياء، وعجرفة. يحب أساتذته أكثر من إخوانه – على ما يظهر –، في شخصيته غموض، أو شبه غموض، ولا تستطيع أن تشخصها على وجه التمام.

معلوماته جملة لا بأس بها، وإن كان في العلوم الدينية قد يكون أميز، ولهذا استطاع قطع جميع مراحل دراسته في نجاح معقول، وهو يعتمد في الدراسة على الذاكرة أكثر من اعتماده على الفهم؛ فبقدر ما رجحت كفة حفظه، شالت كفة فهمه.

ممتاز الذكاء ومتوسطة، وليس في هذا شيء من المغالطة، فنحن إن نظرنا إلى ذكائه من حيث تصرفه في حياته العملية حكمنا له بأنه ممتاز، ولكن ذكاءه في ميدان العلوم يختلف قليلاً، لهذا نستطيع أن يجعله قابلاً للتجزئة والتفصيل. وهو في العلوم العربية وسط بين هذا وذاك، على أن دارسته لها ليست دراسة هضم وتذوقٍ صحيح، لهذا لم تتطبع لديه الانطباع المطلوب. أما العلوم الرياضية فلم يؤت فيها قليلاً ولا كثيراً؛ فهو لم يحرص عليها، وهي لم تسلم له الزمام، لهذا نأى عنها، وتناءت عنه.

كاتب جيد، يستحق أن نحشره في زمرة الكتاب السابقين في هذه الدار؛ له أسلوب خاص في الكتابة، يُعْنَى بالمعاني ويذهب إليها، فتذهب عنه الألفاظ،

لهذا يضطر إلى حشد ألفاظ مبتذلة، تتكرر عنده غالب الأحيان أمثال: الحقوق، والواجبات، والمسئوليات، والمدارس، والمستشفيات.. إلى آخر هذه الحكايات..

لو قوّم أسلوبه وسلم من التطويل في بعض المواضع لكان لما يأتي به أثراً وأيّ أثر. وقد يكون له بعض العذر في ذلك، فهو لا يتكلف الكتابة، ولا يعد لها العدة، يكتب إذا أراد بين الصخب واللجب، وفي أوان شغل أو غيره، لا يعني بها، ولا يلقي لها بالاً، فحيثما عنَّت له الكتابة أمسك القلم في تلك اليد العسراء، وخطّ لك – إن شئت سِفراً.

حاول الشعر فأخفق، يأتي بالبيت والبيتين، ولكن حمار الشيخ بعد ذلك يقف بالعقبة، لهذا اضطر إلى ترك ما لا يستطيع إلى ما يستطيع. -وهذا هو المفروض – وأنا بعد ذلك أرجو لصاحبنا مستقبلاً زاهراً.

وإذا كان لي رأي، فإنني أرى أن ما يصلح أن يشغله بالذات، هو إدراة أحد المصالح؛ لأن لديه كفاءة وقدرة على الإدارة – في نظري –

ولولا ضيق المقام لاسترسلت في الكلام عن هذه الشخصية، لعلنا نصل إلى شيء يذكر، وحسبُنا هذه الإشارة، لعلها تكون أبلغ من عبارة، وما على من قدم اعتذاره، أن يدع المقام لغيره ممن أطال انتظاره، فليتقدم صاحب الإمارة.

النص الثالث: تحيةُ من نجد[1]

الأستاذ الكبير رئيس تحرير مجلة الثقافة الغراء.

---

(١) مجلة الثقافة (مصر) – العدد (٦٣٢) -١٣٧٠/٤/٢٨هـ، (ص٣١)

تحيةُ يعْبقُ ريحُها بشذى البيت العتيق، أزفها إليكم جزاء ما عملتُم، وتعملون لبث الأدب بين أوساط المجتمع العربي.

منذُ شدوتُ الأدب كان قائدي – في مسالكه الغريبة عليَّ – مجلتان مصريتان، أخذتا بيدي وبأيدي شباب بلادي إلى الحسنِ المقبول من شَتَّى البحوث والمقالات.

تلكم المجلتان هما: الثقافة والرسالة، وَلِكُلٍّ منها شيعةٌ ومؤيدون. أما الثقافة فإننا نحيي فيها هذا التشجيع الأدبي المنتج، فكم أسدت إلى شباب الشعراء وكتاب الشباب من يدٍ بيضاء، هي في الظاهر إلى الأشخاص، بينما هي – في الحقيقة – مسداة إلى أعماق المجتمع والأجيال القادمة. وكم لدينا على هذا من الدلائل!! وهي كذلك تطالعنا بالمفيد في أبوابها؛ فما شئت من نقد نزيه، وما أردتَ من التراجم والمعلومات عن طائفة من علماء الغرب وأدباء الشرق. إنا نكبرُ منها هذا العمل ونستزيدها منه.

هذا وإنّي لواثقٌ – أيها الأستاذ الجليل – أن بلادنا ستعود إلى ماضيها المجيد، أيام كان من أبنائها: الفرزدق، وجرير، وعُمر بن أبي ربيعة وجميلُ، وقبل ذلك امرؤ القيس وأنداده، ولكي يكون لنا هذا، لا بد من العملِ، ومن مُعْضِد يوجهنا إليه، ومَنْ أحقّ بهذا من مصر – يا رعاها الله – لقد أخذت على عاتقها أن تنشلنا من وهدة الجهل وظلماته، وها هي بسبيل ذلك تواصل العمل في كل حقلٍ من حقول بلادنا.

عبدالله صالح الفالح – نجد – عنيزة

النص الرابع: وصف حفل[1]

بمناسبة إنهاء طلاب معهد عنيزة السعودي مقرر دراستهم هذا العام في اللغة الإنكليزية، الذي انتدب لتدريسه منذ شهرين، الأستاذ وجيه عبدالعزيز؛ فقام بتعليمهم على قدم وساق، وبذل مجهوداً عظيماً، كان من نتائجه أن استطاعوا أن يأخذوا مقررهم طوال العام في وقت قصير.

وبمناسبة إنهائهم ذلك – كما ينبغي حقاً – أقامت أسرة المدرسة السعودية الأولى بعنيزة برئاسة الأستاذ وجيه عبدالعزيز، المبعوث لتعليم الطلاب – أقامت حفلة كبيرة دُعيَ إليها لفيف من وجهاء البلاد وأعيانهم وفضلائهم، وفي مقدمتهم صاحب السعادة أمير البلاد، كما حضرها حشدُ كثير من المواطنين.

وما إن جاء صباح السبت الموافق ١٣٦٨/١٠/١٢هـ، إلا وساحة المدرسة قد اكتظت بالمدعوين من مختلف الطبقات؛ ولما آذنت الساعة الحادية عشرة – وهو الميعاد المقرر لافتتاح الحفل – استهلت الحفلة بتلاوة آي الذكر الحكيم، رتلها الشاب عبدالله الصالح الفالح، ثم ارتقى منصة الخطابة على إثر ذلك مدير المدرسة العزيزية بعنيزة الأستاذ صالح الناصر ابن صالح، فألقى كلمة ترحيب بالمدعوين، ثم ألقى الأستاذ وجيه عبدالعزيز كلمة الحفل، وهي كلمة طويلة رحب فيها بالمدعوين، ثم أبان فيها عن مدار الحفلة وموضوعها، وعرج على الكلام عمّا لمثل هذه الحفلات من الفوائد، وقد كانت كلمة جامعة محكمة ضَمَّتْ إلى غزير المعنى سهولةَ اللفظ والانسجام الكامل.

---

(١) أوراق مخطوطة بيد الفالح (من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية).

وبعد ذلك جاء دور الطلاب المحتفل بهم، حيث يقدمون نماذج مما أخذوه جديداً في اللغة الإنكليزية، فتقدم الطالب سليمان الشريف، وارتجل كلمة قصيرة باللغة الإنكليزية، رحّب فيها بالزائرين، وأعرب عن سروره بذلك، وقد ترجم كلمته إلى العربية زميله الطالب صالح المساعد، ثم عرضوا درساً نصِيّاً باللغة الإنكليزية، قام فيه بدور المدرس عبدالعزيز العبد الرحمن الذكير، وهو أحد زملائهم. ثم قام الطلاب بإنشاد قطعة من النشيد الإنكليزي باللغة الإنكليزية أجادوا في تلحينها، كما أجادوا في أدائها.

وهنا انتهى برنامج الطلاب المحتفل بهم من حيث تقديمهم نماذج باللغة الإنجليزية.

وبعد ذلك ارتقى منصة الخطابة الأستاذ عبدالرحمن العليان مدير المدرسة السعودية بعنيزة، وألقى خطاباً قيماً، أشاد فيه بما رآه من تقدم العلم، وما يجب على الآباء نحو أبنائهم في هذا الموضوع. وعلى إثره قام الأستاذ عبدالله العلي اليحيا، وألقى كلمة ضمنها ما قد اختلج في جوانحه، وحمله على السرور من طلائع هذه النهضة المباركة، ودعا للمليك المعظم بطول العمر، كما أشاد بفضل رجال المعارف. ثم أعقبه طلاب المعهد حيث صدحوا بالنشيد.

وهنا جاء دور الطلاب من خارج المعهد، وهم الذين جاءوا لقضاء إجازتهم هنا، من مدرستي المعهد لتحضير البعثات ودار التوحيد ومدرسة الطيران بالظهران.

وقد ألقى عبدالله النعيم كلمة عن المعهد العلمي السعودي أشار فيها إلى وجوب المساهمة في جميع العلوم، وعدم الاقتصار على شيءٍ معين.

وعقبه ألقى مأمور بريد عنيزة موسى الضبيبان كلمة باللغة الإنجليزية، تحدث فيها عن التعليم، وقد ترجمت فيما بعد إلى العربية.

وقام على إثره عبدالله الفالح من طلاب دار التوحيد السعودية، فألقى كلمة بالنيابة عن زملائه، أثنى فيها على جهود الأستاذ وجيه، كما شكر الطلاب على جدهم، وقد تناول فيها ما للغات الأجنبية من الأهمية في العصر الحاضر ووجوب تعلمها.

ثم أعقبه عبدالله القرعاوي بكلمة عن تحضير البعثات، أهاب فيها بأولياء الطلاب أن يعاونهم ولا يقتصروا على الدراسة الابتدائية، بل يدعونهم يكملون جميع مراحل تعليمهم.

ومن بعده قام حمد القاضي، فألقى كلمة عن مدرسة الطيران بالظهران، دعا فيها إلى الالتحاق بمدارس وزارة الدفاع، مبيناً ما لها من الفضائل والمزايا.

ثم ألقى بعده عبدالله الفالح قصيدة من نظمه، كان لها الأثر الحسن. وألقى بعده الأستاذ حماد العبدلي مراقب اللاسلكي والبريد في عنيزة كلمة قصيرة عَبَّرَ فيها عما يكنه هو وزملاؤه موظفو الدائرة من سرور وابتهاج، وأشاد بمآثر جلالة مليكنا المعظم وأنجاله.

ثم قام الأستاذ صالح العمري مدير مدرسة بريدة الأولى، وألقى كلمة، أبدى فيها إعجابه وتقديره لما رأى من نشاط، وما شاهد في البلاد من اتجاه طيب، ثم تقدم الأستاذ صالح الناصر بن صالح مدير المدرسة الأولى، وألقى قصيدة رائعة قوبلت بمنتهى الاستحسان، وكان لها وقع عظيم.

وهنا انتهى الحفل، وختم بتلاوة آي الذكر الحكم، تلاها عبدالله الصالح الفالح.

وبعده انفضَّ الحفل بعدما استمر ما يقرب من ثلاث ساعات، وانصرف الناس، وقد بدت على وجوههم علائم البشر، وسروا سروراً عظيماً مما رأوه، وقد أثرت هذه الحفلة في قلوب الناس جميعاً أثر أحسناً، فصار لها ذكر كبير في المجتمعات والنوادي، وكلهم يلهجون لجلالة الملك بطول العمر والتأييد، ولولي عهده بالتوفيق والسداد.

* * *

النص الخامس: (١)

لمحة خاطفة عن بدء البعثة.

يطيب لي – وهل بعد هذا شيءٌ يستطاب – أن أتحدث في هذه الكلمة العابرة التي لن أستطيع أن آتي فيها بشيءٍ يذكر؛ يناسب لما لهذا الحديث من خطورة ومكانة في هذا المجتمع الإنساني الكبير، وما له من أثر في عموم البسيطة.

ولكنني سأعتنق المثل القائل: مالا يدرك كله لا يترك جله؛ على أنني مشفق، حينما أقدم على ذلك أن يفوتني الكل والجل، ولكن لا بد مما ليس منه بد– كما تميلون – ولنستهل المقال من بدء البعثة المحمدية؛ فنقول: كان الناس قبيل

(١) أوراق مخطوطة بيد الفالح (من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية).

بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظلام دامس، قد أطبق عليه الجهل، وحاقت بهم المنكرات، واستولت عليهم الشهوات، حتى انحطت أخلاقهم، وسفهت أحلامهم، وانغمسوا في الرذائل، وتخلوا عن الفضائل.

دياناتهم عبادة الأصنام وتأليه الأوثان، وأخلاقهم عمل الميسر، وشرب الخمور، وعاداتهم وأدُ البنات، والافتخار بالأنساب والأحساب، والعصبية العمياء، التي جعلتهم كل حين في حرب وخصام وعداء، ليس مرجعه وئام، إلخ.

هذه الخرافات في المعتقدات والأباطيل والمنكرات، فبينما هم في سكرتهم يعمهون، وضلالتهم يتخبطون، وقد أنساهم الشيطان ذكر ربهم، وأملى لهم، وأوقعهم في كل رزية وزجَّ بهم في مهامه الهلكات – بينما هم على هذه الحالة، إذا بالنور الوهاج، والسراج المنير، محمد (صلى الله عليه وسلم)، يبعث إليهم بعد فترة طويلة –كانت إرهاصاً لمبعث النبي الكريم، و" لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريصُ عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم".[1] نعم لقد بُعث إليهم رسولٌ من صميم قريش، وأرفعهم نسباً، وأشرفهم، وليست هذه ميزاته فحسب، بل كان شاباً ذا مكانة، يدعى بالأمين لدى قومه يحترمه صغيرهم وكبيرهم، ويرون عليه مخايل النجابة والفطنة وملامح التقوى، وسمة الوقار، فهو الشاب اليتيم، قد نشأ نشأة مخالفة لما هم عليه أعظم الخلاف، لم يشرب خمراً، ولم يسجد لصنم، ولم ينطق هجراً، ولا حضر مجالس اللهو، ونوادي

(١) سورة التوبة، الآية (١٢٨).

الفسوق. بل كان ذا سمْتٍ ووقار، وحلم وتقى، وكان في أخريات أيامه التي قبيل البعثة يخرجُ إلى الخلاء، ليتحنث في غار حراء، ويذكر ربه ويتعبد على دين أبيه إبراهيم الخليل عليهما السلام.

هو ذا الذي اختاره رَبهُ ليرسله إلى الناس كافة، ويكرمُه بما لم يكن للأولين والآخرين. ألف النسك والعبادة والخلق طفلاً، وهكذا:

وإذا حلَّت الهداية قلباً نشطت في العبادةِ الأعضاء

* * *

ثم كان أن بعثه الله لينقذ الناس مِمَّا وقعوا فيه، وليكون رحمة للعالمين، فكان مبعثه أشبه بالمطر الغزير، وقع على أرض هامدة، فأحياها بعد موتها، وأرواها بعد يبسها، بل إنه الأعظم وأعظم.

وكيف يجوز لنا أن نشبه المواهب الروحية بالمحسوسات، وإنَّ بينهما لبوناً شاسعا يدرك في البداهة...

بُعث الرسولُ الأكرم ليتمم مكارم الأخلاق، كما جاء في الحديث عنه (عليه السلام)، وليكون مبشراً ونذيراً لقوم يعقلون. ومن هنا بدأت الدعوة المحمدية الشريفة تغزو قلوب أولئك القوم، وامتنَّ الله على رسوله (صلى الله عليه وسلم) بهذا الدستور السماوي المعظم، ألا وهو القرآن، فكان ينزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لتثبيت فؤاده وإرشاده، وتعليمه، وليتحدى به المشركين، ويكون نبراساً للمتقين، ولم يكن في بادئ الأمر ينزل إلا في الدعوة إلى الإسلام جملة، دون ما تعرُّض للتكاليف الشرعية التي فرضت على المسلمين من بعد.

ذلك أن الإيمان بالله وتوحيده بإفراد العبادة له، ونفي العبادة عمّا سواه هو الأصل الذي تقوم عليه الشرائع، فاقتضت حكمة الله (جَلَّ وعلا) أن تكون الدعوة إلى ذلك، حتى إذا آمنوا بالله وكفروا بما يعبدون من دونه استطاعوا أن يتقبلوا ما يرشدهم إليه صاحب الشرع (عليه السلام) بِكُلِّ ارتياح وطيبة نفس، وهو من حكم الله البالغة، ورأفته ورحمته سبحانه وتعالى بعباده

نبأ الله خليله (عليه السلام) بـ (اقرأ) وأرسله إلى الناس بالمدثر، حينما قال الله تعالى مخاطباً رسوله (عليه السلام) : "يا أيها المدثر قم فأنذر وربّك فكبر،... الآيات"، لأن جبريل (عليه السلام) حينما نزل عليه بسورة (اقرأ) وغطه مرتين، وكان يقول له: اقرأ، فيقول (عليه السلام) : ما أنا بقارئ، حتى غطه الثالثة، وقال: "اقرأ باسم ربك الذي خلق" إلى آخر السورة، فقرأها النبي (صلى الله عليه وسلم)، ثم ذهب إلى أهله، وقال: دثروني زملوني، فنزلت: "يا أيها المدثر، قم فأنذر "فكانت صريحة بالإرسال، حيث أمره الله تعالى أن يقوم لينذر الناس، فما كان منه (عليه السلام) إلا أن صدع بالدعوة، وظهر بها على قومه بقوة وعزم وإيمان راسخ.

أرأيت حينما صعد (عليه السلام) على جبل أبي قبيس، ونادى بعالي صوته، "يا أيها الناس" فلما اجتمع حوله كثير من قريش، أراد أن يقدم لما سيقوله بشيءٍ، يقيم عليهم الحُجَّة، ويدفع ما قد يتعلقون به، فقال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن وراء هذا الوادي خيلاً ستصبحكم، أكنتم مصدقي، قالوا- وبحق ما قالوا- ما جربنا عليك من كذب، لأنهم عرفوه صادقاً وفياً وأميناً وذكياً طوال إقامته بين ظهرانيهم. وأربعون سنة لست بالمدة القليلة التي سبقت بعثته، ومكنتهم أن يعرفوا خلقه، ويكتشفوا سيرته.

فلما سمع إجابتهم قال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، ثم أخذ ينادي: يا معشر قريش لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا فلان، يا فلان، حتى قال: يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً.

فكانت مفاجأة عظيمة فاجأهم بها، وأمراً توقعوا خطره، ولكن أبا لهب – قاتله الله – أخذ حفنة من تراب، وألقاها قائلاً: تباً لك يا محمد، ألهذا جمعتنا؟! وعلى إثر ذلك نزل قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

"تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب... " فجازاه الله على قوله وفعله بمثله، وأوجب عليه الخسران، وأنه لن يقدر له الهداية، ولن يغني عنه ما كسبه من مال وولد شيئاً عند الله، بل سيصلى ناراً ذات لهب يوم القيامة، فكانت سورة تُتْلى إلى يوم البعث، وكانت خزياً جازاه الله به، وانتصف لنبيه (عليه السلام). فعياذاً بك اللهم من الشقاوة والطغيان!

من ذلك اليوم والنبي (عليه الصلاة والسلام) قائم بالدعوة سِراً وجهاراً بطريق الترغيب والترهيب والبشارة والنذارة، وهذه السُّنة التي أرشده إليها، هي التي نهجها القرآن الكريم في طريقة الدعاية، فلست تجد البشرى إلا ومعها الإنذار، فهما متلازمان، وهذا لا يخفى على من لديه أدنى بصيرةً بالغاية من الحسن والبلاغة، واجتذاب القلوب إلى الدخول في الدين الحنيف؛ لأن الناس قسمان:

قسم تستهويه الدعاية عن طريق الترغيب والتشويق، وذكر محاسن ذلك المدعو إليه، فيكون حافزاً له، وأي حافز إلى اعتناق ذلك المبدأ.

وقسم آخر يكون التهديد والإنذار وذكر صفة الوعيد وما أُعِدّ له من النكال أبلغ في دعوته فيهرب مما خُوّف منه، ويعتنق ما قد دُعي إليه. فإذا جمع الله بين هذا وذاك، وجاء في الترغيب والترهيب في آن واحد "وبشر" "وأنذر"

في موضع فذلك – ولا ريب – من أعظم الحوافز وأكبر الدواعي لمى لديه أدنى استعداداً للإيمان، أوفي قلبه أقل قليل من نور. فحمداً لك اللهم على آلائك!

ولنرجع لنقول: إن القرآن قد كان كثيرمن آياته على هذا النحو، كما كانت دعوة الرسول، وهي مستمدة – ولا شك – مما ينزل عليه من القرآن على هذه الطريقة.

مكث الرسول (صلى الله عليه وسلم) في – مكة يدعو، وقد لقي من ضروب الأذى والشدائد الشيء العظيم، فصبر على ذلك، ولم يفترْ له عزم، ولا أخذته في الله لومة لائم، ودخلت طائفة في دين الله، وهم قِلَّةٌ بالنسبة إلى قومهِ، وكان يُعلِّمُ هؤلاء، فقاموا معه في الدعوة والإرشاد، وبث التعاليم الإسلامية ولكن هؤلاء أيضاً قد ألحق بهم المشركون أنواع الأذى، فصبروا محتسبين ما عند الله، ولم يسع الرسول (عليه السلام) بعد أن رأى صلابة قريش، وإيذائهم له إلا أن يهاجر إلى المدينة.

ومن هنا انتشرت الدعوة انتشاراً عظيماً، وصار للإسلام شوكة قوية، وصوت رعّاد ينفُذ إلى الأعماق، فصار الأنصار إخوة للمهاجرين، وألَّف الله بين قلوبهم، واجتمعت كلمتهم، وأُذِنَ لهم في القتال، فغزوا الغزواتِ العظيمة، وكانوا في ذلك منصورين، وفتح الله على نبيه الفتوحات الكثيرة، وانتشر الإسلام، وعمَّ أرجاء الجزيرة، ثم كمل صحابته عليه السلام بعد وفاته الفتوحات، واستمر المسلمون على ذلك ردحاً من الزمن.

هذه إشارة عابرة، أوردت فيها استعراضاً بسيطاً لبدء البعثة، ثم إلى ما كان من رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وما لقيه في سبيل الدعوة، ونحن معشر المسلمين أحوج ما نكون اليوم إلى التأسي بذلك، والاقتداء به (عليه السلام) في أقواله وأفعاله، والمشي على منهاجه.

فهذي هي شريعته السمحة، تدعو إلى كل ما يكفل للبشرية خير الدنيا والآخرة، وتحثُّ على كل ما فيه المنافع الآجلة والعاجلة، وهذا هو القرآن إمامنا، فيه تفصيل كل شيءٍ، وهو الكتاب المبين الذي لم يزده كر العصور ومر الدهور إلا توضيحاً لإعجاز، وصلاحية لكل زمان ومكان.

فأين نحن اليوم – معشر المسلمين – عن كتاب ربنا وسنة نبينا؟ لماذا لا نتمسك بها ونطبقها تطبيقاً عملياً، ونقف عند حدودها ونفهمها فهماً دقيقاً كما هو الواجب، ثم نعمل في علمنا لينير الله لنا الطريق ويورثنا علم ما لم نعلم؟ لماذا لا نتخذ من سيرة نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه عبرة وموعظة، ونقرأها قراءة من أراد أن يقتفي أثرهم، وينهج نهجهم، ليتم لنا الفوز والسعادة؟

أيها السادة لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين كما قال تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً... ".[1] أجل؛إنه لَهُوَ البشير النذير، وهو الرسول المبين خاتم الرسل، وأفضلهم وأكرمهم على رب العالمين. جاء ليملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلِئت جوراً، ويشملها بنور الحق، بعد أن أظلمت بالباطل، ويمدها بالحكمة بعد أن كانت في جهل مطبق.

فأي نعمة بعد هذه؟! وإنَّ لنا في ذلك لعبرة كبرى، وفي سيرته لمثلاً أعلى: رحمة كله، وحزم، وعزم وإباء وعفه وحياء.

صلوات الله وسلامه عليه وآله، وصحبه الذين ساروا على طريقته واهتدوا بهديه. آمين

* * *

(١) سورة سبأ، الآية (٢٨).

فهرس المصادر

أولاً: الكتب:

١) دار التوحيد تطور تعليمي وتغير اجتماعي . د عثمان الصيني . د عائض الثبيتي . د جريدي المنصوري- لجنة الاحتفال بمرور خمسين عاما على تأسيس دار التوحيد . الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٢) دار التوحيد في ميزان التاريخ. صالح بن غازي الجودي – الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٣) دار التوحيد نقوش في ذاكرة التعليم والمجتمع . شهادات وتجارب بأقلام أبناء دار التوحيد – لجنة الاحتفال بمرور خمسين عاماً على تأسيس دار التوحيد ـ الطبعة الأولى –١٤١٦هـ.

٤) الرسوم – إلياس أبو شبكة مطبعة المعرض –بيروت – طبعة سنة ١٩٣١م.

٥) في المرآة – عبدالعزيز البشري – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة. الطبعة الثانية- ١٣٦٦هـ

٦) القصيدة الرومانسية في مصر-د يسري العزب – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة .١٩٨٦م.

٧) الشيخ محمد بن إبراهيم بن جبير – د. عبدالرحمن الشبيلي – الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ.

٨) مع الشعراء– زكي نجيب محمود– دار الشروق – القاهرة. الطبعة الثانية – ١٣٨٠هـ.

٩) معجم عنيزة –محمد بن ناصر العبودي – دون مكان نشر ولا تاريخ-

١٠) وسم على أديم الزمن – د. عبدالعزيز الخويطر- مطبعة سفير . الرياض – الجزء الأول– الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

ثانياً: الصحف:

١) أم القرى – العدد (١١٦٧) ١٣٦٦/٨/٢٩هـ.

٢) أم القرى – العدد (١٢١٨) ١٣٦٧/٩/٣هـ.

٣) أم القرى – العدد (١٢٤١) ١٣٦٨/٢/٢٣هـ – ذكرى الهجرة النبوية – عبدالله الفالح.

٤) البلاد السعودية العدد (٩٠٨) ١٣٦٩/٦/٢١هـ.

٥) البلاد السعودية – العدد (١١٣٥) ١٣٧١/٥/٧هـ.

٦) البلاد السعودية – العدد (١١٤٣) ١٣٧١/٥/٢٥هـ.

٧) البلاد السعودية – العدد (١٢٤٩) ١٣٧٢/٢/١٨هـ.

٨) البلاد السعودية – العدد (١٣٠٥) ١٣٧٢/٧/١هـ.

٩) البلاد السعودية – العدد (١٣٢٨) ١٣٧٢/٨/٢٦هـ.

١٠) البلاد السعودية – العدد (١٤٩١) ١٣٧٣/٧/٤هـ.
١١) الثقافة (مصر) – العدد (٦٣٢) ١٣٧٠/٤/٢٨هـ.
١٢) الثقافية (ملحق الجزيرة) – العدد (٢٢٣) ١٤٢٨/١١/٩هـ. (موكب النور) نص عمره أكثر من نصف قرن ـ عبدالمحسن الحقيل.
١٣) الثقافية (ملحق الجزيرة) – العدد (٣٠٩) ١٤٣١/٥/٢٢هـ الغائب في صمته. د. إبراهيم بن عبدالرحمن التركي.
١٤) الجزيرة – العدد (٥٦٦٤) ١٤٠٨/٨/١٤هـ. حديث الذكريات بين مصر والشام – لقاء مع صالح الفالح – أجراه محمد الوعيل.
١٥) الجزيرة ـ العدد (٨٢٩٤) ـ١٤١٦/١/٢٦هـ ذكريات ال (٥٠) عاماً في دار التوحيد.
١٦) الجزيرة – العدد (٨٤٥٠) ١٤١٩/٦/٢٤هـ. لقاء مع محمد السليمان الشبل. أجراه محمد الوعيل.
١٧) الجزيرة – العدد (١١٩٨١) ١٤٢٦/٦/١٣هـ. الشيخ الفالح والتغني بحب الوطن ـ د. عبد الله الصالح العثيمين.
١٨) الجزيرة – العدد (١٢٢٤١) ١٤٢٧/٣/٦هـ. الناسك الذي عاش في الظل ـ عبدالعزيز بن عبدالله السالم.
١٩) الجزيرة – العدد (١٤٤٢٦) ١٤٣٣/٥/٥هـ. الشيخ عبدالله الصالح الفالح. الشيخ الذي أفل ـ خالد بن محمد الهويش.
٢٠) الجزيرة – العدد (١٥٦٩٦) ١٤٣٦/١٢/٥هـ. الفقيه العابد والأديب الزاهد عبدالله بن صالح الفالح. دسامي السلمان.
٢١) الرياض – العدد (١٥٩٤١) ١٤٣٣/٣/٢٣هـ. وفاة الشيخ الفالح.
٢٢) المدينة المنورة – العدد (٢٧٠) ١٣٦٧/١/٢٤هـ. خداع ـ عبدالله الفالح.
٢٣) المدينة المنورة – العدد (٢٨٢) ١٣٦٨/٤/١٩هـ – عقاقير ـ عبدالله الفالح.
٢٤) المدينة المنورة – العدد (٢٨٩) ١٣٦٨/٦/٩هـ.
٢٥) المدينة المنورة – العدد (٢٩٣) ١٣٦٨/٧/٨هـ.
٢٦) المدينة المنورة – العدد (٣٣٢) ١٣٦٩/٦/٤هـ.
٢٧) المدينة المنورة – العدد (٣٧٧) ١٣٧٠/٥/٢٢هـ. لحن شارد ـ عبدالله الفالح.
٢٨) المدينة المنورة – العدد (٣٨٩) ١٣٧٠/٨/١٧هـ. نشيج قلب ـ عبدالله الفالح.
٢٩) المدينة المنورة – العدد (٣٩٣) ١٣٧٠/٩/١٦هـ.
٣٠) المدينة المنورة – العدد (٤٠٨) ١٣٧١/٢/٧هـ. أصداء الخريف ـ عبدالله الفالح.
٣١) المدينة المنورة – العدد (٤٥٨) ١٣٧٢/٢/٢٥هـ.

٣٢) المدينة – العدد (١١٧٥٧) ١٤١٦/١/١٦هـ. دار التوحيد في عيون الأدباء ورواد الكلمة.
٣٣) المسائية–العدد (٣٧) ١٤٠٢/٣/٧هـ. لقاء أجراه محمد الوعيل مع عثمان بن سيار.
٣٤) مجلة الهلال العدد (٧) ١ المجلد (٥٩) ١/ يوليه ١٩٥١م. ٩/٢٧/ ١٣٧٠هـ.
ثالثاً: الوثائق:
أوراق مختلفة بخط الفالح من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية.
رابعاً: اللقاءات:
اللقاء الشفهي مع الشيخ عبدالله الفالح–أجراه الأستاذ محمد القشعمي – ضمن التاريخ الشفهي – من محفوظات مكتبة الملك فهد الوطنية.

* * *

رسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشي العاذل
"دراسة تداولية حجاجية "

د. أسماء بنت عبد العزيز بن محمد الجنوبي
كلية اللغة العربية- قسم الأدب
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

رسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشي العاذل "دراسة تداولية حجاجية"

د. أسماء بنت عبد العزيز بن محمد الجنوبي

قسم الأدب - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تاريخ تقديم البحث: ١١/ ٦/ ١٤٤١ هـ تاريخ قبول البحث: ١٠/ ٢/ ١٤٤٢ هـ

ملخص الدراسة:

يتناول هذا البحث رسالة ابن خاتمة الأندلسي "الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل" من باب الدرس الحجاجي التداولي؛ لأن فكرة المقام الترسلي فكرة تواصلية تداولية، وتكمن أهمية البحث في أربعة أمور:

الأول- حاجة نتاج ابن خاتمة الأندلسي إلى الدرس والتحليل، وهو الأديب الأريب النابه في عصره، المميز بأدبه.

الثاني- فكرة الرسالة التي تناولت منغصات العشق بطريقة طريفة لطيفة.

الثالث- حاجة الأدب القديم إلى الممارسات النقدية التطبيقية الحديثة.

الرابع- ظهور الحجاج بشكل لافت في هذه الرسالة؛ مما جعلها أرضا خصبة للتحليل، والبحث.

ثم خرجت الدراسة بعدد من النتائج التي أبرزت أهمية هذه الرسالة في التراث الأدبي الأندلسي، ومن أهمها أن هذه الرسالة تقدم فكرا يمثل مرحلة أندلسية تعتمد على الفلسفة في النقاش والحجاج للإقناع بطريقة لا تخلو من الطرافة والتشويق.

الكلمات المفتاحية: رسالة إخوانية. ابن خاتمة الأندلسي، الحجاج، أنواع الحجاج، وظائف الحجاج.

The just deference between the eye, the slander, and the criticizer" letter: argumentative study

Prof. Asma Abdulaziz Mohammad Aljanobi

Abstract:

A summary of the research of "The just deference between the eye, the slander, and the criticizer" letter: argumentative study.

This research deals with Ibn Khatimah Al-Andalusi's letter, "The just deference between the eye, the slander, and the criticizer", from the aspect of the deliberative argumentative study, because the idea of the elaborate base is a great continues communicative idea. And the importance of this research lies on four:

The first, is- Ibn Khatimah Al-Andalusi product's need for study and analyze, as he is the noble and literary writer of his time, distinguished by his art.

The second, the idea of the letter that addressed the afflictions of love in an amusing way.

The third, the need of ancient literature for modern applied monetary practices.

The fourth - The remarkable appearance of the argumentative style in this letter, which made it a fertile ground for analysis and research.

Then the research concluded a number of results that highlighted the importance of this letter for the Andalusian literary heritage. The most important of which is that this letter carries through an ideology representing an Andalusian era that dependent on thinking and arguing; to prove another vision and presentation in a way that is not free of amusement and suspense.

Key Words: Message of brotherhood, Ibn Khatimah Al-Andalusi, argumentative, types of argumentative, functions of argumentative

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فقد طرأت علي فكرة هذه الدراسة بعد اطلاعي على رسالة "الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل" أثناء نظري في عدد من نصوص الأدب الأندلسي، وقد لفتني فيما تنظرّت افتقار أدب ابن خاتمة إلى العناية والبحث، ورأيتُ في رسالته التي ذكرت بابا يطلب الدرس والتحليل، فشرعت فيه.

ثم رأيت أن المقاربة الحجاجية ملائمة لتناول هذه الرسالة؛ لأسلوبها الذي قامت عليه، وجنسها الذي أُنشئت فيه؛ أليس الأدب الترسليّ عملا تواصليا تداوليا بامتياز؟! ثم إن انتماء هذه الرسالة إلى الرسائل الإخوانية المصطبغة بصبغة الفلسفة التي تقوم على مبدأ الحجة والإقناع لإيصال الفكرة إلى المتلقي، يجعل مكانها من الدرس التداولي الحجاجي مكينا.

إن النص الرسائلي "في تصور القدامى ليس بنص ينتجه كاتب واحد، بل هو استرسال نصي بين متخاطبين اثنين في الكتابة الرسائلية، فالمجال الأدبي الذي تتضح فيه طاقة الأجناس التداولية هو الرسائل المتبادلة بين الكتاب بوجه خاص... وتكون جزءا من تاريخ الشخصية الأدبية وعتبة من العتبات التي تمكننا من فهم الشخصية، وجزءا من تاريخ العلاقة بين الكتاب"[1].

---

(١) التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، أ. د. صالح بن الهادي رمضان. النادي الأدبي بالرياض. المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء. ط١. ٢٠١٥م: ١٤٣.

لقد أفضى "المنزع الاجتماعي الثقافي... إلى تطور القيم التداولية في كل عمل من الأعمال القولية، وفي كل أسلوب من الأساليب على نحو جعل بلاغة الرسائل بإقرار كتاب الديوان أنفسهم بلاغة تداولية مقامية"[١].

لذلك شرعت في دراسة رسالة ابن خاتمة وفاق نظرية الحجاج المنبثقة من التداولية، متخذة من التعريف برسالة ابن خاتمة تمهيدا لي، ثم عرَّجتُ على سيرة منشئ هذا النص الأدبي؛ حتى تفتح آفاقا للفهم والإفهام، ثم بدأت الدراسة بتقسيمها إلى مباحث ثلاثة؛ فخصصت للمقدمات الحجاجية مبحثا، وأتبعته بدراسة أنواع الحجاج الموجودة في الرسالة، ثم درست وظائف الحجاج في مبحث مستقل، وختمت ببعض النتائج التي خرجت بها من الدراسة.

وإذا كان الحجاج هو "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو تزيد من درجة ذلك التسليم"[٢] فإن الخطاب الحجاجي هو ذلك الخطاب الذي يتمتع بعدد من الميزات التي من شأنها أن تسلمه إلى النظرية الحجاجية باطمئنان، ومنها خضوع حججه للتراتبية واشتماله على البعدين الاستدلالي والإمتاعي، وقدرته على التأثير في المتلقي[٣]، وذلك كله موجود في رسالة ابن خاتمة.

---

(١) السابق: ١٤٦.

(٢) التواصل الأدبي: من التداولية إلى الإدراكية: ٧٧.

(٣) انظر: الخطاب الحجاجي: أنواعه وخصائصه، هاجر مدقن. دار الأمان- الرباط. ط١. ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م: ٨١.

التمهيد:

– التعريف بالرسالة:

رسالة "الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل"، "رسالة صغيرة، في أسلوب مسجوع، للتمييز بين أعداء العشاق: الرقيب والواشي والعاذل، مخطوطة هذه الرسالة في باريس، تلي نص مخطوطة الكتاب رقم ٥٧٤٩ (رائق التحلية وفائق التورية) وسبق نشر هذه الرسالة وترجمتها إلى اللغة الأسبانية في مجلة الأندلس"(١)، وتجدر الإشارة إلى أن محقق ديوان ابن خاتمة أشار إلى أن أول من نشرها كان سوليداد جيبرت، وأنه هو الذي نشرها ثانية(٢)، وقال عباس بن إبراهيم السملالي، صاحب كتاب الإعلام: "وقد وقفت على رسالة أبي جعفر ابن خاتمة ... التي أجابه فيها عن سؤاله في الرقيب والعاذل أيهما أثقل، بعد أن ظهر له الأثقل منهما"(٣) (٤).

---

(١) دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، د. الطاهر أحمد مكي. دار المعارف – القاهرة. ط٣. ١٩٨٧م: ١١٨-١١٩.

(٢) انظر: ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ورسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل. تحقيق: د. محمد رضوان الداية. دار الفكر – دمشق. ط١. ١٤١٤هـ-١٩٩٤م : ١٣.

(٣) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي. راجعه: عبد الوهاب ابن منصور. المطبعة الملكية- الرباط. ط٢. ١٤١٣هـ ١٩٩٣م: ٤/ ٤٤١.

(٤) ورد في حاشية ديوان البلفيقي النص الآتي: "في المكتبة الوطنية بباريس نسخة من هذه الرسالة، مخ. رقم:٥٧٩٤، وكتبت عنها المستشرقة سوليدات خيبرت بمجلة الأندلس ع. ١٨، سنة ١٩٥٣، ص. ١-١٦.وقال عباس بن إبراهيم: وقد وقفت على رسالة أبي جعفر ابن خاتمة... التي أجاب فيها عن سؤاله ... ألخ".

وتنتمي هذه الرسالة إلى نوع الرسائل الإخوانية ذات الطابع الفلسفي، التي تدور بين الكتاب خارج نطاق المراسلات الديوانية السلطانية، علما بأن مصطلح الإخوانيات قد تطور "في خطاب النقاد وكتاب الأدب القدامى وتمحض للدلالة على مجال من مجالات التخاطب بين الشعراء والكتاب المتكافئين في المرتبة الاجتماعية"(١)، مع العلم بأن الرسائل الإخوانية صنفان: "أما الصنف الأول فلا يعدو الرسائل الإخبارية التي تسجل ما يجري بين الناس من محاورات حول أحداث الحياة اليومية، وهي لا ترمي إلى تحقيق المقصد الفني، وإن التزم أصحابها بسنن التخاطب في مقام الترسل غير الأدبي. وربما غابت في هذه الرسائل آثار تعبير الكاتب عن ذاته فتحولت الكتابة إلى تقاليد وقوالب جاهزة (letter chiche) على نحو ما نجد في رسائل التعزية والتهنئة والعتاب.

وأما الصنف الثاني فإن القصد فيه يتجاوز الإخبار إلى تحقيق وظائف الإنشاء الأدبي، وبه تتحول المراسلات إلى حركة أدبية، وإلى مجال من مجالات التنافس في الكتابة"(٢).

– شعر أبي البركات البلفيقي، جمع وتحقيق: عبد الحميد الهرامة. مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث– دبي. ط١. ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م: ٧٠.

(١) الرسائل الأدبية ودورها في تطور النثر العربي القديم، أ. د. صالح بن الهادي رمضان. دار الفارابي– بيروت. ط٢. ٢٠٠٧م: ٧٦.

(٢) السابق: ٧٨.

ويبدو أن المقاصد الإخوانية تتغلغل في صميم الحياة اليومية فتتحول إلى أعمال وأقوال، وإلى عادات وتقاليد تعوض الأعمال القولية في المحاورات الشفوية"[١].

ومن ذلك كله أستطيع أن أجزم بانتماء هذه الرسالة إلى الرسائل الإخوانية وفاق التصنيف الثاني؛ لأن الرسائل الإخوانية "مصطلح أدبي يمكن استعماله للتمييز بين أصناف البلاغات داخل أدب الرسائل"[٢].

"وكان الأدباء الأندلسيون يطلقون لفظ رسالة على ما ينشئه الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الأغراض، ويوجهه إلى شخص آخر ويشمل ذلك الجواب والخطاب"[٣]، أي "ما يدبجه الكاتب، ويبعث به إلى غيره"[٤].

والرسائل أنواع من حيث الطول والقصر؛ فهناك الرسائل الطويلة التي تجري مجرى الكتب مثل طوق الحمامة، والتوابع والزوابع، وهناك رسائل دونها في الطول مثل رسالة ابن غرسيه في الشعوبية ورسالتي ابن زيدون (الجدية والهزلية)، وهناك رسائل قصار جرت مجرى المراسلات والمكاتبات المعتادة[٥]،

---

(١) السابق: ٧٨.

(٢) السابق: ٧٧.

(٣) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فايز القيسي. دار البشير- عمّان. ط١. ١٤٠٩- ١٩٨٩م: ٧٨.

(٤) السابق: ٧٩.

(٥) انظر: السابق: ٨٥.

وأحسب بأن رسالة ابن خاتمة تقع في المنطقة الوسطى بين الطول، والقصر؛ فقد جاءت في سبع صفحات من نسخة الديوان المطبوعة.

أما رسالة ابن خاتمة هذه فتبدأ بذكر رسالة وردت عليه من شيخه وصديقه الذي يستفتيه في أشد الناس وطأة على العاشق، أهو الرقيب أم العاذل؟ فتجيء هذه الرسالة ردا على سؤاله بذكر الفرق بين الرقيب والواشي والعاذل، حتى يفند ابن خاتمة الحجج والأسباب التي تؤكد أن الرقيب أشد وطأة على العاشق من العاذل والواشي، وقد ساق الكاتب لتأكيد هذا الأمر عشرة أسباب، وكان يدعم حججه وذرائعه بالشعر والأثر من القول والخبر والمثل.

– التعريف بمؤلف الرسالة:

ترجم لابن خاتمة لسان الدين بن الخطيب في كتابه الإحاطة، وكان معاصرا له قريبا منه، وقد قال: "وهو الآن بقيد الحياة وذلك ثاني عشر شعبان سنة سبعين وسبعمائة"(١)، واسمه: "أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري"(٢)، وهذه السلسلة "أثبتها ابن خاتمة نفسه في إجازة منحها لأحد تلاميذه على غلاف كتابه "رائق التحلية"(٣).

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد لسان الدين بن الخطيب. مطبعة الموسوعات – القاهرة. ط١. ١٣١٩هـ: ١/ ١٢٩.

(٢) السابق: ١/ ١١٤.

(٣) ديوان ابن خاتمة:٨.

"وهو من المرية وكان يكتب على أهلها إلى السلطان ويقرئ العربية وسائر العلوم بها"(١).

تتلمذ ابن خاتمة على عدد من الشيوخ منهم: أبو الحسن علي بن محمد بن أبي العيش المري، وإبراهيم بن محمد بن أبي العاص التنوخي، والشيخ الفقيه محمد بن محمد أبو البركات محمد ابن الحاج البلفيقي السلمي الذي وجه رسالته إليه(٢).

"واستمر في تحصيله على هؤلاء، وعلى غيرهم أيضا، بما كفل له أن يصبح ذا مركز مرموق وثقافة ناضجة، وبما هيأه بأن يقعد للإقراء في مسجد مدينة المرية"(٣).

وقد ترك ابن خاتمة عددا من المصنفات منها ديوانه الذي جمعه وكتبه بنفسه، وكتابه "فائق التورية ورائق التحلية"، و"تحصيل الغرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"، و"مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية" والكتاب مفقود، و"إيراد اللآل من إنشاء الضوال"، ولم يبق منه غير بعض

---

(١) أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن (نثير الجمان في شعر نظمني وإياه الزمان)، الأمير إسماعيل بن الأحمر، تحقيق: محمد رضوان الداية. مؤسسة الرسالة – بيروت. ط٢. ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م:١٧٦.

(٢) انظر: ديوان ابن خاتمة: ٩.

(٣) السابق: ١٠.

الانتقاءات، ثم رسالة "الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل" التي تحدثت عن وجودها سابقا[١].

وتتلمذ على يد ابن خاتمة جماعة من العلماء الذين شهدوا له بالمكانة، فقد كان حسن الخلق واسع الأدب، شاعرا، ناثرا، حسن الخط، عالما، فقيها ذا مكانة وقدر عند الناس، وأصحاب السلطة الذين كانوا يطلبونه لأن يفد عليهم، وكان يفعل[٢].

توفي رحمه الله سنة سبع مائة وسبعين وهناك شبه إجماع على تاريخ وفاته[٣].

الحجاج في رسالة ابن خاتمة:

١- المقدمات الحجاجية:

للحجاج مقدمات يبدأ منها، وهي "المقدمات المتعلقة بالقضايا التي منها يكون الانطلاق... فهي نقطة انطلاق الاستدلال"[٤] ومنها الوقائع و"تنقسم إلى وقائع مشاهدة معاينة، ووقائع مفترضة، وهناك الحقائق ومدارها النظريات العلمية أو المفاهيم الفلسفية أو الدينية، وهناك الافتراضات وشأنها شأن الوقائع والحقائق، لكن التسليم بها لا يكون قويا حتى تأتي حجج أخرى

---

(١) انظر: السابق: ١١-١٣.

(٢) انظر: السابق: ١٣- ١٤.

(٣) انظر: السابق: ١٣.

(٤) في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، أ. د. عبد الله صوله. دار مسكيلياني للنشر- تونس. ط١. ٢٠١١م: ٢٤.

تقويها في مسارها، وهناك القيم، وعليها مدار الحجاج بكل ضروبه مثل الوطن والعدل، وهناك الهرميات، فالجميل درجات، والقيمة في البنية الحجاجية أهم من القيمة نفسها، وهناك المعاني أو المواضع، وهي مخازن الحجج"[١].

ويبدأ الحجاج في هذه الرسالة من بدايتها، وأستطيع أن أعد جملتها الأولى نقطة الانطلاق نحو الحجاج، والمقدمة الحجاجية الأبرز في هذه الرسالة حيث بدأت بعد البسملة والصلاة والسلام بقوله: "قال الشيخ الفقيه العالم العلم الأديب الفاضل أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة"[٢]، واللافت في هذه الجملة القولية خلوها من مضمون القول، وامتلاؤها باسم ابن خاتمة ووصفه؛ ذلك الوصف الذي يضع ابن خاتمة (كاتب الرسالة) في مصاف الفقهاء أهل النزاهة والدين، ثم يُدرجه في مصاف العلماء أصحاب الدراية والمعرفة، الذين منهم يؤخذ العلم وإليهم يعود، ثم يصنفه مع الأدباء أصحاب الطرف والظرف الذين يعول عليهم المجتمع في التماس دقائق الأمور، ثم يتبع ذلك كله بالاسم الكامل لمؤلف الرسالة؛ حتى لا يدع للقارئ مجالا للشك في نسبة الكلام إلى غيره من الناس؛ لأن ذلك الشيخ الفقيه العالم الأديب هو ابن خاتمة المعروف بين الناس والمعول عليه في أخذ العلم والتسليم به.

---

(١) انظر: السابق: ٢٤- ٢٩.

(٢) ديوان ابن خاتمة: ٢٢٥.

إذن فقد بدأ ابن خاتمة حججه بمقدمة حجاجية تقوم على افتراض تقبل الجمهور لهذه الشخصية، وما يصدر منها من علم سيؤخذ بقدر وافر من التسليم، ويزيد قيمتها في تراتبية الحجج[١]، والحقيقة أن هذا النوع من إدراج الصفات يساعد في "تحديد نوع الموقع الذي ينبغي أن يحكم به عليه"[٢] لأنها تفضي إلى تصنيف الكلام إلى مقبول أو غير مقبول.

ثم يكمل ابن خاتمة مقدمته الحجاجية تراتبيا لتصعد القوة الحجاجية شيئا فشيئا باستعمال الوصف مع إضافة حجة السلطة بشكل خفي حيث قال: " كتب إلي شيخنا الفقيه القاضي الجليل العادل النزيه الصدر الأوحد الخطيب البليغ الأستاذ العلم الأكمل، خلف أولياء الله تعالى ووارث درجتهم، أبو البركات محمد بن محمد بن الحاج البلفيقي –أبقى الله بركته، وحفظ في مراتب أهل العلم درجته– سائلا ومنازلا"[٣].

ولم يكن ابن خاتمة يستطيع أن يسبغ تلك الصفات على نفسه؛ لأن المدح الزائد لنفسه سيضعف حجته، وسيهوي بسلطته، لكنه عزز سلطته بسلطة معرفته بشيخه المعروف بين الناس الذي جعله في مرتبة توازي مرتبته بل ربما ترتفع فوقها حين قال: "سائلا ومنازلا" لأن ذلك لا يكون إلا بين الأنداد.

---

(١) انظر: في نظرية الحجاج: ٣٣.

(٢) انظر: السابق: ٣٢.

(٣) السابق: ٢٢٥.

ثم يقوم ابن خاتمة بسرد رسالة صاحبه التي يجزل فيها الثناء عليه حيث قال: "يامن إذا تنافرت المعاني فهو لها حكم عادل!"[١] حتى قال واصفا ابن خاتمة بقوله: "لازلت للمعاني خبئا، ولطلابها ردءا"[٢].

والرسالة إرادة حجاجية فلسفية تطلب من المتلقي تصديق الفرضية التي سيأتي بها هذان العلمان بطلب الأسباب، وتأييدها بالحقائق، والوقائع، ألا ترى أن السائل قد كتب: "أيما أثقل على المحب: الرقيب أو العاذل؟ وقد ظهر لي من الأثقل، ولكني أردت أن يتأيَّد ما من ذلك يعقل، بما عن مثلك من الأخبار ينقل"[٣].

ثم يجيء الرد من ابن خاتمة معززا مقدمته الحجاجية بالحقائق المعروفة بين الناس حيث قال: "فأجبته جاريا من طريقة الأدب على المهيع الذي سلك والمذهب الذي ذهب وهو (الفصل العادل، بين الرقيب والواشي والعاذل). أما بعد حمد الله تعالى مخول أوليائه من مواهب آلائه، واجتبائه ما يربي عن رغبة الراغب وأمل الآمل، المصطفي لهم من موارد حبه ومشاهد قربه ما تنزه عن رقبة الرقيب وعذل العاذل؛

والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى الكريم المخصوص من تلك المقامات بأحظى درجة الأواخر والأوائل؛

---

(١) السابق: ٢٢٥.

(٢) السابق: ٢٢٥.

(٣) السابق: ٢٢٥.

والرضى عن آلهِ الكرام وصحابته الأعلام أولي الفضائل المأثورة والفواضل، المحرزين عنه إرث تلك الدرجة الرفيعة والمقام الفاضل"[١].

والمتأمل في الكلام السابق الذي لا يضم غير الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين يجد بين السطور إشارة إلى أن ما سيقوله ابن خاتمة في هذه الرسالة هدي من الله له، أرشده لقول ما سيقول منطلقا من حقيقة معروفة، وهي أن الأمر كله بيد الله وأنه لا حول ولا قوة لعباده من غير هديه وحوله وقوته، لكن ابن خاتمة جاء بهذه الحقيقة ليضاعف حجته، ويدعم رأيه بما سيأتي على قوله، ألا ترى أنه قال: "مخول أوليائه من مواهب آلائه"[٢].

ثم تأتي الرسالة موجهة إلى صاحبه السائل، معتمدا في انطلاقها على التقديم بالوقائع؛ لأنه يريد أن يقول لنا بأنه لا يتكلم من فراغ، بل يأتي بحججه بناء على واقعة عاشها بنفسه، وذلك واضح في رسالته حيث قال: "فإنك -أيها الحبر البحر، والإمام الصدر، وقاك الله خلسة الرقباء وإلحاح العاذل واختلاق الوشاة- سألت عن مسألة من المسائل: أيما أثقل على المحب الرقيب أم العاذل؟ فهلا في الزمان الغابر والعصر الذاهب والعهد المتقدم؛ والقلب حليف حب وشوق، حتى أخبرك عن عيان وأشافهك عن ذوق؟ أما

(١) السابق: ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) السابق: ٢٢٥.

وقد خبا الوقد وكبا الزند، ونبا الحد وفاء ظل الأنس الممتد، فأقول بمقتضى النظر، وليس الخبر كالخبر"[١].

ولعل الجملة الأخيرة تختصر المراد؛ لأن ابن خاتمة يقرُّ بأنه يعرف مسائل الحب معرفة الخبير المجرب العارف، ويؤكد هذا الكلام أنه سُئل عن الرقيب والعاذل، فأضاف الواشي فقط؛ لأنه يعرفه معرفة العارف المجرب، فما سيتحدث عنه نابع من خبرة واقع، وملاحظة معايش.

ثم تنثال الحجج، ويبدأ ابن خاتمة في التصنيف والتعريف والتعداد، بعد أن انطلق من مقدمات حجاجية تقوم عل الفرضيات والحقائق والوقائع في حجاج يدعم فيه اللاحق السابق.

٢- نظام الحجاج وأنواعه في رسالة ابن خاتمة:

للحجاج أنماطه المختلفة التي بنيت وفاق رؤية عدد من العلماء الذين اعتنوا به؛ فهناك النمط الأول المبني على رؤية برلمان وتيتيكا، والحجاج عندهما أصناف بنيت على مداخل؛ فهناك الطرائق الاتصالية، والانفصالية، ومن حجج الاتصال الحجج شبه المنطقية، والمؤسسة على بنية الواقع، والمؤسسة لبنية الواقع[٢].

---

(١) السابق: ٢٢٦.

(٢) انظر: الحجاج، كريستيان بلانتان. ترجمة: عبد القادر المهيري. دار سيناترا (المركز الوطني للترجمة)- تونس. ط١. ٢٠٠٨م: ٦٦.

"ونجد عند تولمين خطاطة حجاجية تميز بين تسعة أصناف من الحجج: الحجج بالتماثل، وبالتعميم، وبالعلامة، وبالسبب (قانون العبور) وبالسلطة، وبالمأزق، وبالتصنيف، وبالمتعارضات، وبالدرجة"(١).

وهناك أنماطية فان إيمران وقروتندورست، وهي "أنماطية قياسات مغالطية تعتمد نسقا بعشر قواعد يقوم عليها النقاش النقدي، وتحدد هذه القواعد العشرة "عقد التواصل" لحجاج معقلن. وتؤدي إلى خرق أي عنصر من عناصر "عقد التواصل" هذا إلى حصول قياس مغالطي"(٢).

" أما ديكرو وأنسكومبر فإنهما وإن اختلفا عن بيرلمان اختلافا كبيرا من حيث المنطلقات... فإنه يمكن لنا أن نجمل طرائق هيكلة العامل الحجاجي للملفوظ عندهما في اثنين: فهي إما هيكلة بالوصل والضم... وقد وجدت هذه الهيكلة بلورتها النظرية في مفهوم السلالم الحجاجية...أو هي هيكلة قائمة على الفصل والنقض مما يحدثه مثلا الرابط "لكن" في الملفوظ ويصاغ الرسم الحجاجي للملفوظ الذي دخلت عليه لكن في شكل مربع حجاجي"(٣).

وعلى أي حال فإني آثرت الاعتماد على تصنف بيرلمان وتيتكاه في دراسة أنواع الحجاج في هذه الرسالة، وإن كانت جهود العلماء في التصنيف

---

(١) في نظرية الحجاج: ٧٧.

(٢) الحجاج: ٦٦-٦٧.

(٣) الحجاج مفهومه ومجالاته: دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، مجموعة مؤلفين.
إشراف: د. حافظ علوي. عالم الكتب الحديث- إربد. ط١. ١٤٣١هـ-٢٠١٠م: ١/ ٣٦.

تتداخل بشكل أو بآخر؛ لأن الطرق تؤدي كلها إلى الحجاج، حتى لو اختلفت المنطلقات، مع الإفادة من جهود العلماء الذين أثروا نظرية الحجاج بالدرس والتنظير، وقد رتبت تلك الأنواع وفاق وجودها في الرسالة.

أولا– الحجاج بالسلطة (الحجاج المؤسس على بنية الواقع).

وإذا تتبعت الحجاج في رسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشي العاذل وجدته ينطلق من اسم منشئ الرسالة نفسه، الذي يمتلك قيمة علمية دينية نزيهة، واسم المرسل إليه كذلك؛ حيث بدأت الرسالة بقوله: "قال الشيخ الفقيه العالم العلم الأديب الفاضل أبو جعفر أحمد بن محمد بن علي بن خاتمة: كتب إلى شيخنا الفقيه القاضي الجليل العادل النزيه الصدر الأوحد الخطيب البليغ الأستاذ العلم الأكمل، خلف أولياء الله تعالى ووراث درجتهم، أبو البركات محمد بن محمد بن الحاج البلفيقي –أبقى الله تعالى بركته، وحفظ في مراتب أهل العلم درجته–"(١).

إذن فكل ما سيقال سيأخذ قيمته الحجاجية من موضع المرسل والمرسل إليه اللذين بنيا هذه الفكرة الحجاجية الفلسفية، وقد أورد المؤلف من الصفات لهذين الاسمين ما يحمل المتلقي على تصديق مضمون الرسالة سلفا.

وإن اختيار النعوت أو الصفات من مظاهر اختيار المعطيات وجعلها ملائمة للحجاج؛ "فالصفات تنهض بدور حجاجي يتمثل في كون الصفة، إذ نختارها، تجلو وجهة نظرنا وموقفنا من الموضوع... والمقصد الحجاجي من

(١) ديوان ابن خاتمة: ٢٢٥.

إطلاق الصفة تحديد نوع الموقف الذي ينبغي أن نحكم به عليه... إن إطلاق الصفات... مدحا أو ذما من قبيل المصادرة على المطلوب... لكونها غير مبررة"[١] ولعل هذه الحجة تنتمي بشكل أو بآخر إلى ما يسمى بحجة السلطة؛ لأنها تأخذ من هيبة القائل ونفوذه ما يحمل المتلقي على التصديق.

إذن فقد أخذت الرسالة بعدها الحجاجي وقيمتها التداولية من اسم المرسل والمرسل إليه قبل الولوج في الموضوع.

ثانيا– التعريف (الحجاج الانفصالي التابع للحجج شبه المنطقية).

من الطرق التي استعملها ابن خاتمة في حجاجه، ذلك الشرح والتفنيد والتعريف لمعنى الرقيب وصفاته، ومعنى الواشي وصفاته، والعاذل وصفاته.

"إن الانفصال بين العناصر في الحجاج يقتضي وجود وحدة بينها ومفهوم واحد لها فهي عناصر عائدة إلى اسم واحد يعيّنها وإنما وقع الفصل بينها لأسباب دعا إليها الحجاج"[٢]، وبناء عليه فإنا يمكن أن نجمع عناصر الرسالة تحت مفهوم واحد يمكن أن أسميه: منغصات العشق، أو أعداء العشاق، وأن نفصل بين تلك العناصر أو المفاهيم بالتعريف والشرح (الرقيب، الواشي، العاذل)، وأستدل على ذلك بقول ابن خاتمة: "إن في الحب ثلاث خصال ليس على المحب بعد الهجر أدهى منها، ولا محيص لكل عاشق ومعشوق

(١) في نظرية الحجاج: ٣٢– ٢٤.

(٢) السابق: ٦١.

عنها، وهي على الجملة تتشابه تشابه النظائر، ولكنها عند التفصيل تتباين تباين الضرائر.

فأما الرقيب فمسلط العين، على كل إلفين يترصد الخلس، ويترقب الغلس، ويسلل لحظه بين النفس والنفس؛ ما طلع إلا كدر الوصال، وقطع الأوصال، وقصم الانتظام والاتصال؛ إن لحظ أحفظ، وإن رمق رشق، أو نظر أضر، أو دنا لم يبق ولم يذر.

وأما العاذل فمسلط اللسان على كل محب هيمان، يرشقه بسهام ملامه، ويلوكه لوك المهر لحكمة لجامه؛ كلماته محفظات باردة العظات، مظهرة لوجوه الحسنات في مظاهر الهنات؛ إن قال أحال، وإن تكلم آلم، وإن سلَّم تود لو ترك السنة وما سلم!

وأما الواشي فمصرف العين واللسان، وآخذ من هذا بشأن ومن هذا بشان، نظره اختلاس وتجسيس، وكلامه تخمين وتدليس، إن قصر فلسانه طويل، أو عمي بصره فقائده القال والقيل؛ فالرقيب أعوانه أجفانه، والعاذل سنانه لسانه، والواشي وزيره تزويره وبهتانه"(١).

والحقيقة أن ابن خاتمة أعطى تعريفا واضحا للرقيب والواشي والعاذل، والتعريف "وسيلة حجاج شبه منطقي وهو أيضا وسيلة لإحداث الفصل داخل المفاهيم خصوصا إذا جاءت هذه التعريفات تزعم تقديم معنى للمفهوم

(١) انظر: ديوان ابن خاتمة: ٢٢٧.

الحقيقي... في مقابل معناه الظاهري"[١]، مثل ما حصل مع هذه الكلمات أو المفاهيم (الرقيب، الواشي، العاذل) التي قد تختلط على العاشق، فلا يعلم أيها أشد وطأة عليه.

وبين الرقيب والواشي والعاذل ملابسات فهم، قد تحدث "فصلا بين ظاهر ما يدعون وحقيقة ما عليه الأمور"[٢] وبذلك تزداد الحجة قوة إلى قوتها؛ لأنها "لا تعين السامع أو القارئ على تمثل حقيقة الأشياء فحسب بل تدعو بإلحاح إلى معانقتها فهي الحقيقة"[٣] وعلى المتلقي اتباعها.

ثم لما فرغ ابن خاتمة من هذا الفصل الحجاجي اندفع إلى الحجج المنطقية، وإلى المقارنة بدافع تبين الأشياء.

ثالثا– الحجاج بالسبب (المؤسس على بنية الواقع) .

والحجاج بالسبب أن يذكر المحاج السبب من الفكرة التي يريد أن يقنع بها، وهذا النوع من الحجاج "يعتمد في قاعدة استنتاج تتمثل في علاقة سببية متفق عليها جمعيا، فيقع استنتاج شيء آخر منها" [٤]، وربما يبدأ المحاج بذكر النتيجة، ثم يسوق إليها الأسباب كما فعل ابن خاتمة في رسالته حيث قال: "وإذا بان الفرق وظهر الحق، فأثقل الثلاثة، بعد ما يشتركون فيه من الدناءة

---

(١) في نظرية الحجاج: ٦٣.

(٢) الحجاج: مفهومه ومجالاته:١/ ٥٢.

(٣) السابق: ٦٤.

(٤) الحجاج في بنية كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم الأندلسي، سراب الرحموني. دار سحر المعرفة– تونس. ط١. ٢٠١٣م: ٢٤.

والخباثة، هو الرقيب الراصد، الذي هو العدو الحاسد؛ فلنصدع بالحكم العادل، بين الرقيب والعاذل، فنقول إن الرقيب أثقل منه لوجوه عديدة بين قريبة وبعيدة"[1].

وأثقل الثلاثة: الرقيب الراصد، وذلك للأسباب العشرة التي ذكرها ابن خاتمة في رسالته، وقد صنفها معددا في قوله: " أولها: وهو أعضلها، أن ثقل الرقيب على كاهل المحب والحبيب بخلاف اللائم فعاديته عائدة للهائم، يعني الصب أولا بتعذيبه، وثانيا بشجو حبيبه، فيصير الثقل عليه ضعفا، والواحد لديه ألفا:

(بحر مجزوء الرمل)

قال لي: إن رقيـــــــــبي سيء الخلق فدارِهِ

قلتُ دعني، وجهك الجنـْ ـنَةُ حُفتْ بالمكارهْ[2]".

وأختصر تلك الأسباب العشرة فيما يأتي:

١- ثقل الحاسد يقع على طرفي العلاقة (العاشق والمعشوق) أما العاذل فيتأذى منه طرف واحد في العلاقة.

٢- الحاسد يشاطر المحبوب في لحظة الحب، أما العاذل فليس شرطا أن يكون تنغيصه واقعا في لحظات العشق نفسها، وربما اقتصر عمله على التقليل من شأن الحب فقط.

---

(١) ديوان ابن خاتمة: ٢٢٧.

(٢) السابق: ٢٢٧.

٣- الحاسد يكون موجودا زمن الوصال ضرورة، ويكون سببا من أسباب قطع العلاقة، أما العاذل فموجود على أي حال، وربما ظهر للعاشق في لباس الناصح الأمين.

٤- سلاح الرقيب النظر بالعين، وبها قد يزول الأنس نتيجة المراقبة، أما العذل فمربوط بالقول والقول لا يصدر إلا من عقل، والعقل لا يأتي إلا بخير.

٥- الرقيب عدو، والعاذل صاحب مشفق.

٦- الرقيب متسلط عليك بالنظر، والنظر صدق في أغلب الأحوال؛ لأن الإنسان لا يكذب ما يراه بعينه، أما العاذل فقد تحضر عينه، وقد تغيب، ولذلك يقع منه الخطأ ووقوع الخطأ أهون على العاشق من شاهد العيان.

٧- الرقيب حاسد والعاذل سالم من الحسد.

٨- العاذل لو لم ينلك منه إلا أنه يذكر اسم المحبوب أو صفاته أثناء العذل، فيستمتع بها المحب، وإن كان ذلك الذكر في معرض العذل، أما الرقيب فلا فائدة يجنيها العاشق منه.

٩- الرقيب لا يغيب عن العاشقين بحسده سواء كان حاضرا أو غائبا؛ لأنه يتلصص الأخبار على الدوام، أما العاذل فإذا غاب عن العاشقين غابَ أثره معه.

١٠- العذول يتحدث فتعرف ما يدور في خلده، أما الرقيب فصامت لا تدري ما يخفيه من سوء النية.

إن تلك الأسباب لا تخضع لمنطق التراتبية؛ حتى نقول إن هذه الحجة أقوى من أختها؛ لكنه الحجاج الذي يعتمد على ذكر أسباب قد تكون

متساوية في القوة، وقد تكون متفاوتة في الدرجة، حتى نصل إلى النتيجة التي صرح بها المؤلف من البداية، ثم ختم بها حيث قال: "على أن الرقيب في كل حال ملوم وعلى كل لسان مذموم"(١)، وجاءت لفظة العموم لتأكيد الحجج السابقة، وربما أدخلنا ابن خاتمة بهذه النهاية العامة في الحجاج من باب إدماج الجزء في الكل؛ فإذا كان الرقيب مذموما على كل لسان وفي أي زمان؛ فلن تنجيه صيغة العموم من أي استثناء.

ثم بيّن ابن خاتمة سبب إضافة الواشي إلى الرقيب والعاذل في رسالته، ولم يُسأل عنه، وذكر أنه يقع في منطقة وسط بين الرقيب والعاذل حيث قال: "فقد رأيت الواشي دائرا بين اللقبين، وآخذا بطرف من السببين، فمتى غلب أحدهما عليه، نسب إليه؛ وأما بما هو واشٍ، فأمره عند المحب متلاش، لأن لحظه خلس، وثقله نفس، وإنما جملة اعتماده، على إصداره في التزوير وإيراده"(٢).

لكن ابن خاتمة لم يدرج الواشي في المفاضلة بين الاثنين إلا آخرا، وذلك لأن الواشي قد تغلب عليه صفات الرقيب فيكون مثله، وقد تغلب عليه صفات العاذل فيتخذ سمته، أما وشايته فلا تأثير لها على المتحابين؛ لأن المحبّ لا يصدّق إلا ما يريد، ما لم تغلب عليه إحدى الصفتين.

---

(١) السابق: ٢٣١.

(٢) السابق: ٢٣٠.

رابعا– الحجاج بالشاهد (الحجج المؤسسة لبنية الواقع):

ولم يكتف ابن خاتمة بهذه الطرق حتى يدعم النتيجة التي يرغب أن يقنع بها المتلقي، بل اتخذ من الشواهد الشعرية والأمثال سبيلا لتحقيق الغاية، والوصول إلى الهدف؛ فقد كان يُتبع أي سبب من تلك الأسباب العشرة بشاهد شعري ضرورة، ثم يعرّج على ضرب الأمثال.

وقد ختم بقوله: "إلى غير ذلك من الدلائل، الشاهدة بفرق ما بين ثقل الرقيب والعاذل، وأرجحها في عيار الاعتبار عند مسبار الاختبار قولهم في المثل المضروب: "أثقل من فجأة الرقيب"(١)، ولم يأت في المنقول من المثل المقول: " أثقل من عذول" وهذا أنص في الباب، عند أولي الألباب، فالمثل – كما قيل– علم متداول على الأيام، والقول به ماض عند أرباب الأحلام"(٢).

ومعلوم أن الأمثال " تتضمن خبرات الشعوب وحكمها وخلاصة تجاربها الحياتية، ولذا نجد أن مضامينها ومحتوياتها تتمثل في مجموعة من الحقائق العامة والمعاني الكلية"(٣).

---

(١) ورد المثل في مجمع الأمثال بصيغة مختلفة " أثقل من رقيب بين محبين" مجمع الأمثال، الميداني. تحقيق: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية– بيروت. ط٣. ٢٠١٠م: ١/ ٢١٠.

(٢) ديوان ابن خاتمة: ٢٣٠.

(٣) الخطاب والحجاج، د. أبو بكر العزاوي. مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر–بيروت. ط١. ٢٠١٠م: ٨٢.

وكان ابن خاتمة قد استشهد كذلك بأبيات لابن الأبار تؤكد رأيه في الرقيب والعاذل حيث قال: "ولله در أبي جعفر بن الأبار، فقد جرى مع الطرف في مضمار، وفسر سنة الرقباء، فأشرقهم بالماء، وأُخذت عليهم فروج الهواء"(١)، وتلك الأبيات وردت في نفح الطيب للمقري(٢).

وحتى يوقع ابن خاتمة قارئ الرسالة في قاع القناعة والاقتناع عرج على الشواهد المرتبطة بالدين حتى يذعن من كان في قلبه شك مما ذكر؛ فللدين السلطة العليا على القلوب والعقول، حتى إنه تكلف الشاهد في غير موضعه، وأقحمه في غير سياقه المعتاد حين قال: "على أن الرقيب في كل حال ملوم، وعلى كل لسان مذموم، فقد قيل: مذهب القوم الخلوة، حتى إنهم يرون أن اللحم الذي بين الجلد والعظم رقيب مزاحم؛ فيا لله ما أثقل الرقيب على كل محب هائم، وأعدى فنونه، وأهنا العيش دونه "وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم"، "حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه" إلا الصوم فهو لي وأنا أجزي به"

ومن شر الرقباء ومن جنايتهم موافقة الرياء الذي هو الشرك الأصغر والوزر الأكبر"(٣).

---

(١) ديوان ابن خاتمة: ٢٣٠.

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري. تحقيق: د. إحسان عباس. دار صادر- بيروت. ط١. ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م: ٤٧٧/٣.

(٣) ديوان ابن خاتمة: ٢٣١.

وقد بالغ ابن خاتمة حين جعل الرقبة شركا أصغرا، وجعله بمنزلة الرياء؛ الذي يظهر صاحبه للناس شيئا ويخفي عنهم أشياء، وعندي أنه أفسد حجاجه بتلك الشواهد التي جاء بها في نهاية الرسالة، ولو أنه اكتفى بما قال سابقا لكفى؛ لأن بعض الزيادات نقص.

خامسا– الحجاج بالتعدية/ التضمين (الحجج شبه المنطقية).

"إن من أهم علاقات التعدية ذات الصبغة شبه المنطقية علاقة التضمن... وهي العلاقة المنطقية التي تبين أن قضية ما تتضمن قضية أخرى"[(١)]، وربما برزت هذه الحجة أكثر ما تكون في ختام النص حين ربط ابن خاتمة بين الرقيب الحاسد والمرائي الذي يظهر خلاف ما يبطن؛ وذلك ذكاء حجاجي يزيد من إقناع المتلقي ببشاعة صورة الرقيب.

سادسا– الحجاج بالاستعارة.

للاستعارة أثر كبير في دعم الخطاب الحجاجي؛ نظرا لقدرتها على مخاطبة عاطفة الجمهور[(٢)]، وقد عني بها كثير من النقاد العرب والغرب، وزادت تلك العناية في الآونة الأخيرة، ولا أدل على ذلك من تلك الكتب الكثيرة التي ألفت في شأنها.

والاستعارة أنواع، وقد "قسم عبد القادر الجرجاني إلى مفيدة وغير مفيدة. فالاستعارة المفيدة تلعب دورا أساسيا في البناء الشعري، ولولاها لم يحصل لك

---

(١) في نظرية الحجاج: ٤٧.

(٢) انظر: الحجاج في بنية كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم: ٢٧.

ما تريد تصويره، أما الاستعارة غير المفيدة فهي لا تعدو أن تكون تلاعبا بالألفاظ.

ونجد تقسيمات أخرى عند كل من كونراد الذي قسم الاستعارة إلى قسمين: استعارة لغوية واستعارة جمالية، وكذا عند رتشارد وجورج لايكوف ومارك جونسون وآخرين"[١].

والاستعارة الحجاجية "تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه، وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية، والاستعارة الحجاجية هي النوع الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية"[٢].

وقد ظهرت تلك الاستعارات أكثر ما تكون في مواضع الحجاج، عندما كان ابن خاتمة يعرف الرقيب والعاذل والواشي، فقد استعمل الاستعارة لبيان ثقل الرقيب على المتحابين بقوله: "مسلط العين على كل إلفين، يترصد الخلس، ويترقب الغلس، ويسلل لحظه بين النفس والنفس... إن لحظ أحفظ، وإن رمق رشق..."[٣] والقارئ لهذا التعريف يجد أنّ ابن خاتمة يشخّص عين الرقيب في هيئة صياد مترصد أو سجانّ متسلط، لا يتورع أن يحمل سهامه – عند الضرورة– ليرشق بها المتحابين كما يرشق الجندي الأعداء، وهو بذلك

(١) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي. مؤسسة الرحاب الحديثة– بيروت. ط١. ٢٠٠٩م: ١١٠.

(٢) السابق: ١١٠.

(٣) ديوان ابن خاتمة: ٢٢٦.

يقدم صورا تدعم قوة حجاجه، وتقدم الرقيب في صورة بشعة تشعرنا بشدة ثقله على النفوس.

ثم يقول: وأما العاذل فمسلط اللسان، على كل محب هيمان، يرشقه بسهام ملامه، ويلوكه لوك المهر لحكمة لجامه"[1].

وتظهر تلك الصور مدى بشاعة صورة العاذل؛ إذ جعل لسانه الذي يلوم به في صورة العبد المأمور الذي ينطلق نحو المتحابين بلا رحمة، وجعل الكلمات الصادرة منه مثل السهام الموجعة، وطريقة لفظه للكلمات من اللسان مثل حركة المهر بما يلوك في فمه، وكل ذلك حتى يقنعنا بتلك الصورة البشعة المقززة للعاذل وكلامه، وبذلك تظهر الهيئة، وتقوى الحجة.

ثم قال: "وأما الواشي... نظره اختلاس وتجسيس، وكلامه تخمين وتدليس"[2] وهنا جاءت الاستعارة التشخيصية كذلك لتخدم الصورة البشعة التي يرغب ابن خاتمة في إيصالها إلى المتلقي.

٣- وظائف الحجاج في رسالة ابن خاتمة:

وقفت كثيرا أمام تصنيف وظائف الحجاج في رسالة ابن خاتمة، ثم توقفت عند مفهوم الحجاج بداية، فإذا كان الحجاج هو الإقناع، فهل للحجاج وظيفة غيره، إذا كنت أجد أنَّ الرسالة برمتها قد أدت وظيفة تواصلية حجاجية؟!

---

(١) السابق: ٢٢٧.

(٢) السابق: ٢٧٧.

ثم عدت لأقف على الأثر الذي أحدثه في هذه الرسالة فوجدت أن الأثر يبينه المقصد، ويصنعه الهدف الذي من أجله أنشئت الرسالة، وهو ما صرَّح به ابن خاتمة في بداية النص حين قال: "سائلا ومنازلا"! "سائلا"؛ أي محاورا متصلا، فالوظيفة الأولى –إذن– كانت وظيفة تواصلية حوارية، ثم "منازلا" أي داخلا مع صاحبه في مساجلة حجاجية بغية الانتصار في الحجاج، وبذا تكون الوظيفة الأخرى نزالية سجالية إن صح التعبير، بالإضافة إلى الوظيفة الإنشائية التي من شأنها أن ينشأ النص على صورته وجنسه.

أولا– الوظيفة التواصلية الحوارية.

إذا كانت المراسلات الأدبية تؤدي هذه الوظيفة التواصلية التداولية بعامة، فإن الحجاج سوف يسهم في تحقيق بعد تواصلي أكبر وأوسع انتشارا؛ لأنه يزيد من عمق الفكرة أولا، وسوف يوصلها إلى فئات لم تكن معنية بتلك الفكرة من قبل.

وربما انتبه القارئ لهذه الرسالة إلى قول ابن خاتمة في البداية:" سائلا"، فالسؤال من البلفيقي تطلب جوابا من ابن خاتمة، وتلك المحاورة تطلبت الحجة بعد الحجة، حتى جاء ابن خاتمة بالجواب الشافي للسائل والمتلقي، إضافة إلى أن المرسل لم يكن يرسل إلى صاحبه حتى يحتفظ بالإجابة لنفسه. لقد كان الاثنان على وعي تام بطبيعة الجنس التداولي الذي يقيمان عليه أدبهما، وينشران من خلاله فكرتهما، وكانا يعرفان كيف تصل الرسالة إلى أكبر قدر من الناس.

ثانيا– الوظيفة السجالية.

لقد قال ابن خاتمة في بداية الرسالة: "كتب إلي شيخنا... سائلا ومنازلا"، والنزال في لغة العرب "أن يتنازَلَ الفريقان، وفي المحكم أن يَنْزل الفريقان عن إبِلهما إلى خَيْلهما فيتَضاربوا..."(١)، وقالوا: "الحروب سِجالٌ أي سَجْلٌ منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء"(٢)، والمساجلة "المفَاخرة بأن يَصْنَع مثل صَنِيعه في جَرْيٍ أو سقي"(٣) وأصل المساجلة: "أن يَستقيَ ساقيان فيُخرج كلُّ واحد منهما في سَجْله مثل ما يُخْرِج الآخر، فأيُّهما نَكَل فقد غُلِب"(٤).

ثم جاء ابن خاتمة على ذكر رسالة الشيخ البلفيقي التي قال فيها: "يامن إذا تنافرت المعاني فهو لها حكم عادل! أيما أثقل على المحب: الرقيب أو العاذل؟ وقد ظهر لي من الأثقل، ولكني أردت أن يتأيَّد ما من ذلك يعقل، بما عن مثلك من الأخبار ينقل. لازلت للمعاني خبئا، ولطلابها ردءا، والسلام"(٥)(٦).

---

(١) لسان العرب، لابن منظور. دار صادر–بيروت. ط٣. ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م: (نزل) ١١/ ٦٥٧.

(٢) السابق: (سجل) ١١/ ٣٢٥.

(٣) السابق: (سجل) ١١/ ٣٢٥.

(٤) السابق: (سجل) ١١/ ٣٢٥.

(٥) ديوان ابن خاتمة: ٢٢٥.

(٦) وقد أورد جامع شعر البلفيقي هذه الرسالة؛ لأنه احتسب قوله في الرسالة شعرا "يامن إذا تنافرت المعاني فهو لها حكم عادل

والرسالة –على صغر حجمها– حمالة معان؛ فالشيخ البلفيقي يعرف تماما مَن مِن الاثنين أثقل؛ لكنه يريد من أخبار السابقين وأشعارهم ما يدعم رأيه، ويقيم حجته، وظاهر الأمر أن الاثنين متفقان على سوء الرقيب، فلماذا قال ابن خاتمة: "منازلا"؟

ويظهر لي أن ابن خاتمة لم يقصد بالمنازلة الغلبة، كأن يتغلب على أستاذه في الرأي، ولعله كان يقصد به تبادل الرأي والمشورة؛ لأنه قال بعد ذلك: "وإن كنت في جوابي كالمستبضع إلى صنعاء وشيا، والمدعي في بني ثغل رميا، والمهدي إلى بوران بنت الحسن حللا وحليا"(١)، ومراد الكلام أن التلميذ لم يأت بجديد يقدمه إلى أستاذه في هذا المعنى، فللأستاذ فضله على تلميذه على أي حال! ولكن هل كان ذلك يدخل في باب تأدب التلميذ مع أستاذه فقط، وأن للأستاذ رأيا آخر؟!

وتطلبت الإجابة عن هذا السؤال الرجوع إلى أدب الشيخ البلفيقي للوقوف على موقفه من الرقيب والعاذل، فوجدت أن جل أدبه مفقود، وقد اجتهد بعض العلماء لجمع ما بقي من أدبه فكان ذلك الديوان(٢) الذي تتبعت فيه مفهوم الرقيب فوجدت قوله:

(الطويل)

أيهما أثقل على المحب الرقيب أم العاذل" شعر البلفيقي: ٩٠، وجاءت على هذا النحو في كتاب الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام: ٤/ ٤٣٦.

(١) ديوان ابن خاتمة: ٢٣٠.

(٢) انظر: شعر البلفيقي: ٨

"ألا كـــــــرَّم الله الرقيبَ فإنَّهُ كفاني أمورًا لا يحِلُ ارتكابُها

وبالغَ في سدِّ الذريعة فاغتدى يلاحظني نومًا ليُغـــلقَ بابُها"(١)

وهنا يتضح الثناء والدعاء للرقيب الذي حال بينه وبين الوقوع في الخطأ، مع وضوح فهمه لقدرة الرقيب على التفريق بين الاثنين.

وله كذلك قوله:

(الخفيف)

"ورقيبٌ عدمـــتُهُ من رقيبٍ مظلم الوجه والقَفَا والصفاتِ

هو كاللَّيل من ظلامٍ وعندي هو كالصُّبحِ قاطعُ اللذاتِ"(٢).

وله في الرقيب والعاذل:

(البسيط)

"حاشى عهودك أن تنسى وإن بَعُدَتْ عنكَ الديارُ ولم أَسمـــعْ لكم خَبرا

وُدِّي يزيدُ على ما تعـــــلمون ولا يُصيبهُ النقـصُ طالَ الدَّهرُ أو قَصُرا

كيفَ الوصولُ إلى ذاك الجمـالِ وقد أضحى الرَّقيبُ يُطيلُ البحثَ والنَّظرا

والعاذِلون أذاقوني مرارتهـــــــــم وخوَّفوني وقالـــــوا لي جرَى وجرَى"(٣).

وظاهر من هذه الأبيات كلها أن الاثنين متفقان على الفكرة، فأين النزال إذن؟

إن المطلع على العلاقة المتينة التي تربط بين ابن خاتمة وشيخه قوية جدا، ويبدو أن فكرة ثقل الرقيب والعاذل كانت متداولة بينهما في مجالس أنسهم

---

(١) شعر البلفيقي: ٢٨.
(٢) شعر البلفيقي: ٣١
(٣) السابق: ٣٩.

ومذاكرتهم، ويبدو أن هذه الرسالة كانت ثمرة حوار ومناقشة وتبادل رأي، وكان ظهورها مبنيا على اتفاق مسبق، أرادا من خلالها توعية العشاق بثقل الرقيب على المتحابين، وهذا يفرض علينا الإيمان بمعايشة الاثنين لضروب العشق، ومصارعتهما صنوف عذابه، ولهذا تكررت الفكرة عند ابن خاتمة وشيخه في ديوانيهما، والمرء لا يكثر الحديث عن شيء لم يشغل باله، ويأخذ من فكره حيزا.

إذن؛ فالنزال، أو السجال الوديّ راجع إلى أمرين في نظري؛ الأول وهو أمر يعرفه المطلع على ذلك الرابط بين الأستاذ وتلميذه، والثاني قد يكون سجالا نصيا ورقيا تجلى في كتابة رسالة جاء الرد عليها برسالة أعمق وأوفى، أو أن شعرا كتب في ذلك، فرد عليه الآخر بأدب جديد في مساجلة أدبية معروفة النتائج مسبقا، أو متفق عليها ضمنا.

وعلى أي حال فإن العارف بالحجاج المطلع على وجوده يعلم يقينا أنه قد يؤدي هذه الوظيفة السجالية، وذلك عندما يكون الأدب متداولا بين طرفين أو أكثر، مثل الفكرة المتداولة بين الناس في المراسلات، أو الخطب، أو النقائض والمنافحات والمفاخرات، وعلى هذه الأرضية الخلافية أو الودية "يبنى الحجاج ويسير لمعالجة الأمور وإيجاد الحلول في مسارات متنوعة مختلفة، معولا حينا على قوة الحجة في ذاتها، مستثمرا حينا آخر في فضائل القائل، أو مستثيرا عواطف الجمهور ومحركا أهواءهم، أو مغالطا إياهم مشبها عليهم. فطرائق الإقناع والتأثير في الحجاج مختلفة، ومقاصد المحاج واقعة بين حدين

متباعدين هما إظهار الحق والسعي إليه والصبر على مكروهه، وتحقيق الظفر"[1].

إذن فقد أدى الحجاج في هذه الرسالة وظيفته التداولية السجالية بغية إشاعة الفكرة التي آمن بها هذان العلمان.

ثالثا– الوظيفة الإنشائية.

إذا كان الحجاج اللافت الأول الذي في هذه الرسالة، وكانت الأطراف المعنية بها قد أقامت فكرتها على رغبة في تواصل حجاجي أنشأ هذا النص فإن الحجاج فيها قد أدى وظيفة إنشائية؛ لأن الحجاج والتواصل كانا أساس الرسالة، وعليهما بنيت وبسببهما أنشئت.

فقد بنى الحجاج النص تراتبيا حتى أوصلنا إلى النتيجة التي يرغب فيها طرفا الرسالة، ومفادها أن الرقيب أشد وطأة على المتحابين من الواشي والعاذل.

وإذا أمكنني الاستعانة بنظرية السلالم الحجاجية التي آمن بها ديكرو وأنسكومبر، فإني أظن أن بناء النص كان على النحو الآتي:

الدعاء الإيماني والختام الديني الذي يشد عضد النتيجة، ويساعد في التسليم بالفكرة.

التصريح بالنتيجة التي تصب في ثقل الرقيب على المتحابين أكثر من العاذل أو الواشي.

---

(١) الحجاج الجدلي، عبد الله البهلول. دار نهى للطباعة– صفاقس. ط١. ٢٠١٣م: ١٠.

الأسباب التي تبين قبح الرقيب وزيادته في السوء على غيره، مع دعم الأسباب بالشاهد والمثال.

أن الرقيب والواشي والعاذل أصناف من الناس يعرف منشئ النص صفاتهم، ويمكنه التعريف بهم جيدا.

الرأي الذي ستبنى عليه الرسالة سوف يصدر عن خبير مجرب معايش للواقع.

التوفيق بيد الله، وما الفكر الذي يحمله البشر إلا إلهام من الله عز وجل.

الأطراف المعنية بالرسالة قوم عدول لا يرد لهم رأي، ويمكن الاطمئنان إليهم، والتسليم بآرائهم.

ولقد أضاف المؤلف الواشي إلى العاذل والرقيب؛ حتى يبين للمتلقي معرفته البالغة بالأمر، وخبرته المبنية على المعاصرة والتجريب، وفي ذلك إضافة حجاجية أسهمت في إنشائية الرسالة بدءا من عتبة العنوان حتى النتيجة في الختام.

والجنس الترسلي يقوم على بناء مخصوص، وشكل فني معروف هو "البداية أو الصدر والمتن ثم النهاية أو الخاتمة... ففي البداية غالبا ما يخاطب الكاتب فيه من أرسلت إليه الرسالة، وفي المتن يتناول الكاتب الموضوع الذي أنشئت من أجله الرسالة، وفي النهاية يدعو الكاتب بالسلام لمن كتب إليه

الرسالة"[1]، وبناء على فهم ذلك البناء فإني أستطيع الجزم بالوظيفة الإنشائية لهذا الحجاج باطمئنان بالغ.

وهكذا أسهم الحجاج في إنشاء الرسالة، وكان جزءا من بنائها المخصوص، الذي تحدثت عنه.

الخاتمة.

خلصت من هذه الدراسة بعدد من النتائج ألخصها على النحو الآتي:

١- اعتمد ابن خاتمة على عدد من المقدمات الحجاجية الجلية التي كفلت لنصه بلاغة حجاجية ناجعة.

٢- نوَّع ابن خاتمة بين عدد من الحجج حتى يكفل لمنطقه التحقق والقبول.

٣- أدى الحجاج في هذا النص عددا من الوظائف الأساسية المرتبطة بالحجاج أصلا كالإنشائية، والسجالية، والتواصلية الحوارية.

٤- كانت فكرة الرسالة متداولة بين ابن خاتمة والبلفيقي قبل إنشائها، وإنما جاءت الرسالة لتبين الفكرة بشكل أكثر وضوحا وجلاء.

٥- قدمت هذه الرسالة فكرة تمثل مرحلة تعتمد على التفكير والحجاج؛ لإثبات رؤية ونبذ أخرى بطريقة لا تخلو من الطرافة والتشويق.

هذا والله أعلم والحمد لله أولا وآخرا.

---

(١) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري: ٨٥.

ثبت المصادر والمراجع:

١- الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد لسان الدين بن الخطيب. مطبعة الموسوعات - القاهرة. ط١. ١٣١٩هـ.

٢- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فايز القيسي. دار البشير- عمّان. ط١. ١٤٠٩- ١٩٨٩م.

٣- أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن (نثير الجمان في شعر نظمني وإياه الزمان)، الأمير إسماعيل بن الأحمر، تحقيق: محمد رضوان الداية. مؤسسة الرسالة -بيروت. ط٢. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٤- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي. راجعه: عبد الوهاب ابن منصور. المطبعة الملكية-الرباط. ط٢. ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٥- التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية، أ. د. صالح بن الهادي رمضان. النادي الأدبي بالرياض. المركز الثقافي العربي -الدار البيضاء. ط١. ٢٠١٥م.

٦- الحجاج الجدلي، عبد الله بهلول. دار نهى للطباعة-صفاقس. ط١. ٢٠١٣م.

٧- الحجاج في بنية كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم الأندلسي، سراب الرحموني. دار سحر المعرفة-تونس. ط١. ٢٠١٣م.

٨- الحجاج: مفهومه ومجالاته، مجموعة مؤلفين. إشراف: د. حافظ علوي. عالم الكتب الحديث-إربد. ط١. ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

٩- الحجاج، كريستيان بلانتان. ترجمة: عبد القادر المهيري. دار سيناترا (المركز الوطني للترجمة)-تونس. ط١. ٢٠٠٨م.

١٠- الخطاب والحجاج، د. أبو بكر العزاوي. مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر-بيروت. ط١. ٢٠١٠م.

١١- دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، د. الطاهر أحمد مكي. دار المعارف -القاهرة. ط٣. ١٩٨٧م.

١٢- ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ورسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل. تحقيق: د. محمد رضوان الداية. دار الفكر -دمشق. ط١. ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
١٣- الرسائل الأدبية ودورها في تطور النثر العربي القديم، أ. د. صالح بن الهادي رمضان. دار الفارابي-بيروت. ط٢. ٢٠٠٧م.
١٤- شعر أبي البركات البلفيقي، جمع وتحقيق: عبد الحميد الهرامة. مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث-دبي. ط١. ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.
١٥- في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، أ. د. عبد الله صوله. دار مسكيلياني للنشر-تونس. ط١. ٢٠١١م.
١٦- لسان العرب، لابن منظور. دار صادر-بيروت. ط٣. ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
١٧- اللغة والحجاج، د. أبو بكر العزاوي. مؤسسة الرحاب الحديثة-بيروت. ط١. ٢٠٠٩م.
١٨- مجمع الأمثال، الميداني، الميداني. تحقيق: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية-بيروت. ط٣. ٢٠١٠م.
١٩- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري. تحقيق: د. إحسان عباس. دار صادر-بيروت. ط١. ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

* * *

الارتجال في شعر المتنبي
موضوعاته وتشكلاته

د. فواز بن عبدالعزيز اللعبون
قسم الأدب – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الارتجال في شعر المتنبي: موضوعاته وتشكلاته

د. فواز بن عبدالعزيز اللعبون
قسم الأدب – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تاريخ تقديم البحث: ١٩/ ٣/ ١٤٤١ هـ تاريخ قبول البحث: ٢٩/ ٦/ ١٤٤١ هـ

ملخص الدراسة:

يحاول هذا البحث سبر طبيعة شعر الارتجال، وأهم خصائصه في الرؤية والبنية، من خلال شاعر قدير ناضج التجربة، غزير الارتجال.

ويسعى البحث إلى الإجابة عن تساؤلات عدة، ومن أهمها: ما الفرق بين شعر الرَّوِيَّة وشعر الارتجال؟ وما هي القِيَم الموضوعية والفنية التي يتضمنها ويفتقدها النص المرتجَل؟ وما معايير التحقق من كون هذا النص مرتجلاً أو غير مرتجَل؟

ويمكن إيجاز أهداف البحث في الآتي:

١. الوقوف على حالة مثيرة من حالات نظم الشعر.

٢. استجلاء أهم الخصائص الموضوعية لارتجاليات المتنبي.

٣. الكشف عن أبرز الخصائص التشكيلية في ارتجاليات المتنبي.

٤. تَبيُّن أجلى الفروق بين الشعر المرتجل وغيره لدى المتنبي.

وقد اعتمدَ البحثُ المنهجَ الإنشائي في دراسة موضوعات الارتجال وتشكلاته؛ لكونه الأنسب في تتبع ملامح الرؤية والتشكيل معا.

وابتدأ البحث بمقدمة، فتمهيد تضمن التعريف بالشاعر وبمفهوم الارتجال، تلا ذلك الفصل الأول بعنوان «موضوعات شعر الارتجال»، وتحته أربعة مباحث: المديح، الوصف، الإخوانيات، موضوعات أخرى، وجاء الفصل الثاني بعنوان «تشكلات شعر الارتجال»، وتحته ثلاثة مباحث: توالد البنية، تفاعل اللغة، تَخَلُّق الصورة، ثم أغلقتُ البحث بخاتمة، وثبت بالمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: دراسة – الارتجال – شعر – المتنبي.

Improvisation of Almutanabbi Poetry, its Themes and Structures

Dr. Fawaz Bin Abdulaziz Allaboun
Department of Arabic Literature - Faculty of Arabic Language
Al-Imam Mohammed Ibn Saud Islamic University

Abstract:

This research has attempted to talk about the improvisation of poetry and its characteristics in vision and structure. This analysis based on a well-known and highly eloquent poet. This research seeks to answer various research questions; namely, i) What is the difference between a ballad and improvised poetry? ii) What are the artificial and genuine values that include and lack poetic improvisation? iii) What are the criteria to verify the poetry is improvised or non-improvised? The research aims can be achieved through the following:

1. Recognizing a case of a poem
2. Realizing the important characteristics of Almutanabbi improvisation Poetry.
3. Exploring the allusion standards of Almutanabbi improvisation Poetry.
4. Distinguishing the differences between poetic improvisation and others in Almutanabbi poetry.

The research has adopted a narrative study design to analyze the improvisation of poetry and its structure; due to its appropriateness to follow the vision and textual variants. The research organization starts with an introduction, a study background includes a short biography of the poet and the concept of improvisation in poetry. Then, the research presents the first section that is entitled 'themes of poetic improvisation', which has four sub-sections. The second section includes variations of poetic improvisation, which includes three sub-sections. Finally, the research ends with a conclusion followed by the references and recourses.

المقدمة:

تبدو فكرة ارتجال الشعر فكرة لطيفة تحتاج إلى استقصاء وسبر، وقد كنت منذ قديم أتتبع الشعر المرتجل، وأتأمل أحوال أهله من المتقدمين والمتأخرين، وأتأكد يوماً بعد آخر أن الارتجال قدرة على قدرة؛ قدرة الشعر، وقدرة الارتجال، ولا تجتمع هاتان القدرتان إلا في شاعر يغلب عليه الطبع.

واللافت للنظر أن تذكر لنا كتب النقد فئتين متفاوتتين من الشعراء: فئة الشعراء المَمَحِّكِين، أو كما يسميهم الأصمعي (توفي: ٢١٦هـ) عَبِيد الشِّعر،(١) أو كما يسميهم آخرون شعراء الصَّنْعَة،(٢) ومنهم أصحاب حوليات يُهَذِّب بعضُهم قصيدتَه حولاً كاملاً قبل أن يُنشِدها،(٣) وفئة الشعراء المطبوعين الذين يفيض منهم الشعر كما يفيض الماء من الينبوع دون كُلْفة ولا مراجعة.(٤)

---

(١) يُنظر: البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط:٣، ١٩٧٥م، ١/ ٢٠٩.

(٢) يُنظر: خطاب الطبع والصنعة: رؤية نقدية في المنهج والأصول، د. مصطفى درواش، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م، ص: ٢٥.

(٣) يُنظر: سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، تحقيق: علي فودة، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ط: ١، ١٣٥٠هـ- ١٩٣٢م ص: ٢٨٣.

(٤) يُنظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ط:٥، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، ١/ ١٩٠. شرح القصائد العشر، التبريزي، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط:٤، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م، ص: ٣٧٠.

هذا كله يثير تساؤلات، ما الفرق بين شعر الرَّوِيَّة وشعر الارتجال؟ وما هي القِيَم الموضوعية والفنية التي يتضمنها ويفتقدها النص المرتجَل؟ وما معايير التحقق من كون هذا النص مرتجلاً أو غير مرتجَل؟

هذا وغيره تسعى هذه الدارسة إلى تتبعه، والوقوف عليه، وقد مر شيء منه على بعض النقاد الأوائل، فتحدثوا عن الارتجال، وعرضوا نماذج منه، ولعل علي بن ظافر الأزدي (توفي: ٦١٣هـ) أكثر من توسع فيه، وخصه بكتاب عنوانه: «بدائع البدائه»، وهو كتاب مطبوع، ومن مراجع الدراسة.

كما تناول عدد من النقاد والدارسين الارتجال في الشعر القديم، ووقفوا على شيء من سماته وخصائصه، ولعل أبرز هذه الدراسات (الترتيب هجائي):

الإبداع في الشعر العربي القديم: الإلهام والارتجال، د. فضل بن عمّار العمّاري، بحث مُحَكَّم منشور في مجلة الآداب بجامعة الملك سعود، الرياض، المجلد: ٩، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

ارتجال الشعر وإجازته، أسعد خليل داغر، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، عدد: رمضان ١٣٥١هـ- كانون الثاني ١٩٣٣م.

البديهة والارتجال في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، د. مضر الآلوسي، دار غيداء، عَمّان، ط:١، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.

قضية الطبع والتكلف في التراث النقدي، د. إسماعيل حسين فتاتيت، بحث مُحَكَّم منشور في مجلة كلية الآداب بجامعة مصراتة في ليبيا، العدد: ٥، ديسمبر/ ٢٠١٥م.

وهي دراسات أُولَى في مجالها، وفيها إضافات تُذكَر وتُشكَر، وقد عُدتُ إليها جميعا، وأَثْبَتُّها في قائمة المراجع، وأَفَدتُ منها فوائد جمة شكر الله لمؤلفيها.

ويظل الارتجال في شعر المتنبي فكرة بِكْراً لم يَفْتَرِعْها قلم باحث حتى الآن حسب علمي واطلاعي، وهي فكرة صحبتني منذ زمن الطلب؛ إذ كنت أقرأ ديوانه، ويمر عليّ أنه قال هذا النص وذاك ارتجالا، فكانت تدهشني قدرته، وسرعة بديهته، وفي مرحلة لاحقة جمعتُ طائفة مما نص شراح دواوينه على كونه مرتجَلا، فكان مجموع ما توفر لي حتى فراغي من هذه الدراسة مئة نص أغلبها مقطوعات، وقليل منها قصائد، وبلغ مجموع أبياته المرتجَلة أربعمئة واثنين وثلاثين بيتا، وهو عدد يغري بالرصد والدراسة.

وأؤكد أني كنت في غاية الحذر من توظيف شُرّاح دواوينه مصطلح الارتجال واشتقاقاته، فالارتجال لدى بعضهم قد يعني الإنشاد الحاضر، ويستوي فيه النص المعَدّ سابقا، والنص المولود في ساعته، ولذا مَيَّزتُ بين هذين بالوقائع والقرائن، وأَهمَلتُ جملة نصوص ذَكَرَ بعض الشُّرّاح أنها قيلت ارتجالا.

وقد سعت الدراسة إلى تحقيق جملة أهداف على رأسها:

١. الوقوف على حالة مثيرة من حالات نظم الشعر.

٢. استجلاء أهم الخصائص الموضوعية لارتجاليات المتنبي.

٣. الكشف عن أبرز الخصائص التشكيلية في ارتجاليات المتنبي.

٤. تَبيُّن أجلى الفروق بين الشعر المرتجل وغيره لدى المتنبي.

ولأن هذه الدراسة تستقرئ النص وجماليّاً وبيانيّاً ودلاليّاً آثرتُ اعتماد المنهج الإنشائي في تحليل موضوعات الارتجال وتشكلاته؛ لكونه الأنسب في تتبع

ملامح الرؤية والتشكيل معا، والأكفأ في تحليل النصوص، والأرحب في استيعاب بعض وظائف المناهج النقدية الأخرى، وهذا ما تحتاج إليه دراستي وفق أهدافها المحددة.

هذا وقد استقيتُ مُدَوَّنَة الدراسة من عدة شروح أَثْبَتُّها فوراً عند الإحالة، ثم أَجْمَلْتُها في قائمة المصادر، ولم أكتَفِ بشرح واحد نظراً لاختلاف المقدمات التي تنص أحياناً على الارتجال، أو تشير إليه بصيغة مُشْبِهَة، أو تُغْفِله.

وقد أَخَذتُ على نفسي ضبط الأبيات بالشكل رفعاً لأي لبس، وشَرَحتُ ما خِلْتُه يحتاج إلى شرح من مفرداتها معتمداً على معجم «لسان العرب»، وشروح الدواوين، واكتَفَيْتُ بذكر سنة وفاة الأعلام المذكورين في متن الدراسة، واستَثنَيْتُ مُعاصرِي المتنبي من أصدقائه وممدوحيه؛ لكونهم مَعروفِي الزمَن.

بقي أن ألتمس من الله ﷻ القَبُول والتوفيق، وأن ينفعني وغيري بما عَلِمتُ وما عَمِلتُ، وأصلي وأسلم على نبينا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه.

* * *

التمهيد:

١. إضاءة على المتنبي:

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن الجُعْفي الكوفي، قحطاني النسب، عراقي النشأة.

ولد في محلة كِنْدة في الكوفة سنة ٣٠٣هـ، ونشأ فقيراً لأبٍ قال بعضهم إنه كان سَقّاءً، ثم انتقلت به أسرته إلى بادية السماوة، وهناك تجلت فصاحته، ونضجت تجرِبته الشعرية.

وفي بادية الشام ظهر أمره بين أعرابها، وراعهم بيانه، فلُقِّب بالمتنبي، وزعم بعضهم أنه ادعى النبوة بادئ أمره، وحدث أن أثار بعض القلاقل فحُبِسَ عامين له فيهما أشعار محفوظة.

وبعد خروجه من السجن التفت إلى نفسه التفاتة جادة سعى من خلالها إلى تحقيق هدفين: الثروة، والسلطة، فسَخَّر شعره لمديح طائفة من أمراء الشام وأعيانها، ثم توصل من خلالهم إلى سيف الدولة، وبقي في بلاطه أثيراً يستثير حاسديه.

حافظ أبو الطَّيِّب المتنبي على سَمْته في بلاط سيف الدولة، ولم يُخِلّ بمروءته، ولم يتعاطَ الشراب رغبةً، ولا أغواه المجون، وهو وإن لم يكن مُتَدَيِّناً كان صاحب أنفة ينأى بنفسه عما يشينها من التوافه، وكان يترفع عن كل ما يستهوي الرعاع.

ولكثرة حُسّاده وتناهي أَنَفَته نشأ بينه وبين سيف الدولة عتب رحل على إثره إلى دمشق، ثم ساقته تطلعاته إلى مصر حيث كافور الإخشيدي وما ظنه فيه من تقدير للشعر وإكرام للشعراء، فلما خاب ظنه فيه هجاه، وعاد إلى الكوفة، ومنها إلى بغداد، ثم قصد ابن العميد في أَرَّجان، وما لبث أن لحق بعضد الدولة في شيراز، وبعد إقامة قصيرة عزم على الرحيل إلى بغداد، وفي طريقه إليها قتله قُطّاع الطريق في رمضان من سنة ٣٥٤هـ.(١)

(١) ينظر في جميع ما سبق:

أبو الطَّيِّب المتنبي وما له وما عليه، الثعالبي (توفي: ٤٢٩هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة الحسين التجارية، القاهرة، د.ت، ص: ١٦.

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي (توفي: ٤٢٩هـ)، تحقيق: د. محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، ط:٢، ١٣٩٢هـ، ١٣٩/١.

الفهرست، ابن النديم (توفي: ٤٣٨هـ)، تحقيق: ناهد عباس عثمان، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، ط:١، ١٩٨٥م، ص: ١٦٩.

تاريخ بغداد، البغدادي (توفي: ٤٦٣هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت، ١٠٢/٤.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان (توفي: ٦٠٨هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت، ١٢٠/١.

الصبح المُنْبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي (توفي: ١٠٧٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا و محمد شتا و عبده زيادة عبده، دار المعارف، القاهرة، ط:٣، ١٩٩٤م، ص: ٥٢.

تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط:١، ١٤٠٣هـ، المجلد الثاني (الشعر)، ١٩/٤.

ومن أبرز ما تميز به اقتداره الشعري الذي استطاع من خلاله «أن يَنطِق عن خواطر الناس»[١] حسب قول القاضي الفاضل (توفي: ٥٩٦هـ)، وبَرَعَ في ذلك من خلال تشكيلٍ لغوي عبقري ناسب فئات الناس، وبهذا الاقتدار «مَلَأَ الدنيا، وشَغَلَ الناس» كما يقول ابن رشيق القيرواني (توفي: ٤٦٥هـ).[٢] ومع كثرة الذين درسوا المتنبي وشعره لم يُطِلْ أحد منهم –حسب علمي– الوقوفَ على ظاهرة الارتجال في شعره، وسَمّيتها ظاهرة تَجَوُّزا؛ لكثرة حضورها في شعره مقارنةً بغيره من الشعراء؛ إذ يبدو لي من أغزر الشعراء المتقدمين ارتجالاً وفق ما هو مُدَوَّن محفوظ، كما أن نسبة ارتجالياته من مجموع شعره نسبة لافتة للنظر، وسأقف عليها في مبحث توالد البنية.

وقد وعى جملة من النقاد بمختلف عصورهم أن المتنبي شاعر مطبوع حاضر البديهة، وأن له شِعراً مرتجَلاً كما يشير بعض شُرّاح ديوانه،[٣] ولعل ابن رشيق القيرواني (توفي: ٤٥٦هـ) من أوائل الذين تنبهوا لكثرة الشعر المرتجل لديه، ولعله أيضاً من أوائل الذين تنبهوا لقيمته الفنية مقارنةً بسائر شعره، يقول:

---

(١) الوَشْي المرقوم في حُلَل المنظوم، ابن الأثير، تحقيق: د. جميل سعيد، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٩م، ص: ٥٧.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ط:٥، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، ١/ ١٠٠.

(٣) يُنظر: في عالم المتنبي، د. عبدالعزيز الدسوقي، دار الشروق، القاهرة، ط:٢، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، ص: ٨٢.

«وقد كان أبو الطَّيِّب كثير البديهة والارتجال، إلا أن شعره فيهما نازل عن طبقته جِدّا، وهو لعمري في سعة من العذر».[١]

ومن النقاد المتأخرين طه حسين (توفي: ١٣٩٣هـ) الذي لحظ أن المتنبي متى انغمس في مجالس اللهو «أكثر من ارتجال الشعر لحاجة ولغير حاجة»،[٢] واصفاً بعض ارتجالياته بـ «الشعر السخيف».[٣]

ومهما يكن من أمر وبعيداً عن ضعف ارتجاليات المتنبي أو سخفها، فإن هناك شِبْه اتفاق بين النقاد متقدميهم ومتأخريهم على أن شعر المتنبي في ارتجالياته أقل طبقة من سائر شعره، وآمل أن تناقش الدراسة هذا الحُكْم مناقشة وافية أثناء تحليل نصوص المدَوَّنة.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ١/ ١٦٦.

(٢) مع المتنبي، طه حسين، نشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط:١، ٢٠١٣م، ص: ١١٧.

(٣) السابق، ص: ٢٢٠.

٢. حدود الارتجال:

يـدور المعـنى اللغـوي للارتِجَـال حـول القيـام بالأمـر دون كُلْفَـة، وفي أسـاس البلاغة: «تَرَجَّلْتُ في البئرِ نَزَلْتُ فيها على رِجْلي لَمْ أُدَلَّ فيها»،[١] وجاء في المخصَّص: «ارتَجَلْتُ الكلامَ واقتَضَبْتُه، ومعناهما تَكَلَّمَ فيه مِن غيرِ أن يكونَ هَيَّأَه قَبْلَ ذلك»،[٢] وفي لسان العرب: «ارْتَجَل الرجُلُ ارتِجَالاً إذا رَكِبَ رِجْلَيه في حاجَتِهِ ومَضَى...، وارتِجَالُ الخُطْبة والشِّعْر: ابتداؤه مِن غيرِ تَهْيِئة، وارتَجَل الكلامَ ارتِجَالاً إذا اقتَضَبَه اقتضاباً وتَكَلَّمَ به مِن غيرِ أن يُهَيِّئه قَبْلَ ذلك، وارتَجَلَ برأيه: انْفَرَدَ به ولم يُشاوِرْ أحداً فيه».[٣]

ويُسَمِّيه بعضهم الخَشْب، وفي تاج العروس: «خَشَبَ الشِّعْرَ يَخْشِبُه خَشْبا: أَمَرَّهُ كما جاءه، أي قالَه مِن غيرِ تأنُّقٍ فيه، ولا تَعَمُّلٍ له، وهو يَخْشِبُ الكلامَ والعَمَلَ: إذا لم يُحْكِمْه ولم يُجَوِّدْه، وشِعْرٌ خَشِيبٌ ومَخْشُوبٌ، وجاءَ بالمَخْشُوب،

(١) أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السُّود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، مادة: (ر ج ل).

(٢) المخصَّص، ابن سِيده، تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م، ١/ ٤٨٧.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط:٣، ١٤١٤هـ، مادة: (ر ج ل).

وكان الفرزدقُ يُنَقِّحُ الشِّعْرَ، وجَرِيرٌ يَحْشِبُه، وكان خَشْبُ جَرِيرٍ خيراً مِن تنقيحِ الفرزدق».[١]

ومن مترادفات الارتجال «الابتداء، والاقتراح، والاقتضاب»،[٢] والابتداء كالارتجال في تناوُل الجاحظ،[٣] وفي الصِّحَاح: «اقتراحُ الكلام: ارتِجَالُه»،[٤] وفيه أيضاً «واقتضابُ الكلام: ارتِجَالُه؛ تقول: هذا شِعْرٌ مُقْتَضَب».[٥]

والارتجال لدى النقاد ودارسي الشعر «ما كان انهماراً وتدفُّقاً لا يتوقف فيه قائله»،[٦] ويعني أيضاً «إيراد الكلام قائماً مستقيماً بغير تردُّد ولا تلعثم»،[٧]

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، الزَّبيدي، تحقيق: لجنة من مجموعة محققين بإشراف وزارة الإعلام الكويتية، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط:٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، مادة: (خ ش ب).

(٢) ارتجال الشعر وإجازته، أسعد خليل داغر، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، عدد: رمضان ١٣٥١هـ-كانون الثاني ١٩٣٣م، المجلد: ١٣، ١/ ١.

(٣) يُنظر: الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط: ٢، ١٣٨٩هـ، ١/ ٣٦.

(٤) الصِّحَاح، الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط:٤، ١٩٩٠م، مادة: (ق ر ح).

(٥) السابق، مادة: (ق ض ب).

(٦) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ١/ ١٨٩.

(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، محمد المناوي، تحقيق: محمد الداية، دار الفكر، بيروت، ط:١، ١٤١٠هـ، ص: ٤٩.

والكلام يقوله قائله من دون رَوِيَّة أو إعمال فكر،[١] والكلام ينطلق به لسان قائله «دون أن يكون قد أنفق وقتاً وجهداً في التفكير فيه، أو في صياغته»،[٢] ويسعى الشاعر فيه إلى «عرض تجربته من غير رَوِيَّة ولا تَفَكُّر بشكل فني ينتهي به إلى مستوى الجودة الفنية المقبولة التي تثير الاستظراف والتعجب في لحظة متوهجة مخصوصة بذاتها».[٣]

ويُعَدّ «الارتجال في الشعر من سُنَّة العرب في جاهليتهم، لا يقولونه إلا عند اضطراب النفس وهَيَجانها، ولهذا كثر في شعر الغزل والرثاء وغيرهما من الشعر الوجداني»،[٤] وهو لدى الشاعر اقتدار على قول الشعر من غير فِكْرة ولا أُهْبَة بانصباب وسهولة،[٥] وبمعنى آخر هو «أن يَنْظم الشاعر ما يَنْظم أَوْحَى من خطف البارق، واختطاف السارق، وأسرع من الْتماح العاشق، ونفوذ

(١) يُنظر: البديهة والارتجال في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، د. مضر الآلوسي، دار غيداء، عَمّان، ط:١، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م، ص: ٢٣.

(٢) مذهب الجاحظ في الارتجال في كتابه البيان والتبيين، د. عبدالكريم الحياري، بحث مُحَكَّم منشور في مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب الصادرة عن الجمعية العلمية لكليات الآداب، عَمّان، المجلد:١١، العدد: ١- ب، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م، ص: ٣٦٧.

(٣) الشعر والارتجال إلى نهاية القرن الرابع للهجر، د. جمال عبدالحميد السوداني، بحث مُحَكَّم منشور في مجلة آداب الجامعة المستنصرية، بغداد، العدد: ٤٨، ٢٠٠٩م، ص: ٢.

(٤) المعجم المفصل في الأدب، د. محمد التنوجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م، ١/ ٧٧.

(٥) يُنظر: بدائع البدائه، علي بن ظافر الأزدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م، ص: ٧.

السهم المارق، حتى يُخال ما يَعمل محفوظا، أو مرئيّاً ملحوظا، من غير حاجة إلى كتابة، ولا تَعَلُّل بتقفية»،[١] وهو أيضا نُتْفَة شِعرية تنساب من لسان شاعر حاضر الخاطر سريع البديهة دون تفكير طويل،[٢] وكل هذا يؤكد ما يقرره بعض الدارسين من أن «الشاعر إذا قال قصيدته ارتجالاً دل على تَفَوُّق».[٣]

ويقابل شعرَ الارتجال شعرُ الرَّوِيَّة، وهو الشعر الذي يتأهب له الشاعر، ويعيد النظر فيه مرة بعد أخرى، فيُقَدِّم ويُؤَخِّر، ويَحذِف ويُثْبِت، ويَزيد ويُنقص، حتى إذا شَعَرَ بالرضا عَرَضَ شِعره مُطْمِئناً له، مُعْتَدّاً به، ومعظم شعرنا العربي قديمة وحديثه داخل في شعر الرَّوِيَّة، وهذا أحد أهم أسباب تميّز الشعر وخلوده، يقول الشاعر ابن الرومي (توفي: ٢٨٣هـ) وقد خَبَرَ الشعر وارتجَلَه وتَرَوَّى فيه:

نَارُ الرَّوِيَّةِ نارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ ... ولِلْبَدِيهَةِ نارٌ ذاتُ تَلْوِيحِ
وقَدْ يُفَضِّلُها قَوْمٌ لِعَاجِلِها ... لَكِنَّهُ عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ الرِّيحِ[٤]

(١) السابق، ص: ٨.

(٢) يُنظر: البديهة والارتجال، محمد باسل عيون السُّود، دراسة منشورة في مجلة الفيصل، العدد: ١٩١، جمادى الأولى ١٤١٣هـ- نوفمبر ١٩٩٢م، ص: ١٣٠- ١٣١.

(٣) المعجم المفصل في الأدب، د. محمد التنوجي، ١/ ٧٧.

(٤) ديوان ابن الرومي، تحقيق: حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م، ٢/ ٥٦٧.

والبداهة والطبع والإلهام والإجازة مصطلحات ذات دلالات مستقلة، وبعض المتقدمين والمتأخرين يأتي بها على أنها من مترادفات الارتجال، وبينها وبين الارتجال تشابه واختلاف، ولا يمكن عَدُّها من المترادفات دائما.

فالبديهة استحضار القول المناسب بعد تفكر سريع،(١) والطبع قدرة على تأليف الكلام بيسر،(٢) والإلهام اقتدار فائق على القول المبهر معنى ومبنى،(٣) والإجَازَة -وتُسَمَّى أيضاً المِمَاتَنَة والمِسَاجَلَة والمِعَارَضَة والمِحَاضَرَة والمِمَارَزَة- أن يُتِمّ الشاعر بيتاً أَنْشَدَ غيرُه شطراً منه، أو أن يَنْظِم بيتاً أو أكثر على مثال بيت أو أكثر ملتزِماً بحرَه وقافيتَه، ومن أحوال الإجازة أن يأتي بها الشاعر من فوره بلا تَرَيُّث ولا إبطاء.(٤)

---

(١) يُنظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ١/ ١٩١. جوهر الكنز (تلخيص كنز البراعة في أدوات ذي اليراعة لابن الثير الحلبي)، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، نشر منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص: ٤٣٩.

(٢) يُنظر: قضية الطبع والتكلف في التراث النقدي، د. إسماعيل حسين فتاتيت، بحث مُحَكَّم منشور في مجلة كلية الآداب بجامعة مصراتة في ليبيا، العدد: ٥، ديسمبر/ ٢٠١٥م، ص: ٩٧.

(٣) يُنظر: الإبداع في الشعر العربي القديم: الإلهام والارتجال، د. فضل بن عمّار العمّاري، بحث مُحَكَّم منشور في مجلة الآداب بجامعة الملك سعود، الرياض، المجلد: ٩، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، ص: ٧-٨.

(٤) يُنظر: ارتجال الشعر وإجازته، أسعد خليل داغر، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، عدد: رمضان ١٣٥١هـ- كانون الثاني ١٩٣٣م، المجلد: ١٣، ١/ ١.

وما سبق يتأتَّى في الارتجال وغيره، ويمكن القول بأن الارتجال الموفَّق يحتاج إلى بداهة وطبع وإلهام، غير أن البداهة والطبع والإلهام والإجازة لا تَصْنَع وحدَها ارتجالا.

* * *

الفصل الأول: موضوعات شعر الارتجال:

المبحث الأول: المديح:

يظل شعر المديح من أكثر موضوعات الشعر جذباً للشعراء الأوائل، وإن كان أقلها جاذبية للمتلقي المتذوق؛ فهو مصدر دخلهم، وطريق مجدهم، ومنبرهم الإعلامي الأمثل. (١)

ويبدو المديح المرتجَل فرصة مناسبة للشاعر الذكي ليثبت أن محاسن ممدوحه ملكت عليه حواسَّه، ولم تُمهِله، بل راضت له المعاني، وألانت له القريض، وألهمته القول فقال، وبهذا يزداد حظوة على حظوة لدى ممدوحه، ويَشعر ممدوحه بشيء من الزهو.

وارتجال المديح من المتنبي له مذاق مختلف لدى الممدوحين، فهم يعرفون أَنَفَة المتنبي، وشدة تَمَنُّعه، وتناهي غروره، فإن بدر منه المديح العاجل شعروا أنه خرج عن مألوف نفسه ومألوف المديح، فزادوه قُرباً وعطاءً.

ومن أطول ارتجالياته المدحية قوله في الأمير بدر بن عمار في مجلس شراب:(٢)

إنَّما بَدْرُ بنُ عَمّارٍ سَحَابُ ... هَطِلٌ فيهِ ثَوَابٌ وَعِقَابُ

إنَّما بَدْرٌ رَزَايا وَعَطَايا ... وَمَنَايا وَطِعَانٌ وَضِرَابُ

ما يُجِيْلُ الطَّرْفَ إلاَّ حَمِدَتْهُ ... جُهْدَها الأَيْدِي وَذَمَّتْهُ الرِّقَابُ

---

(١) يُنظر: الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط:٦، ١٩٨٦م، ص: ٣٤.

(٢) العَرْف الطَّيِّب في شرح ديوان أبي الطَّيِّب، تحقيق: ناصيف اليازجي، دار القلم، بيروت، د.ت، ص: ١٤٤.

مـــا بِـــهِ قَتْـــلُ أَعَادِيْـــهِ وَلَكِـــنْ ... يَتَّقِـــي إِحْـــلافَ مـــا تَرْجُـــو الـــذِّئابُ
فَلَـــهُ هَيْبَـــةُ مَـــنْ لا يُتَرَجَّـــى ... وَلَـــهُ جُـــوْدُ مُرَجَّـــىً لا يُهَـــابُ
طَـاعِنُ الفُرْسَـانِ في الأَحْـدَاقِ شَـزْراً ... وَعَجَـاجُ الحَـرْبِ لِلشَّـمْسِ نِقَـابُ
باعِـثُ الـنَّفْسِ عَلَـى الهَـوْلِ الـذي لَيْـ ... ـسَ لِـنَفْسٍ وَقَعَـتْ فيـهِ إِيَابُ
بِأَبِي رِيْحُـكَ لا نَرْجِسُـنا ذا ... وَأَحَادِيْثُـكَ لا هَـذا الشَّـرَابُ
لَـيْسَ بِالمُنْكَـرِ إِنْ بَـرَّزْتَ سَـبْقاً ... غَـيْرُ مَـدْفُوْعٍ عَـنِ السَّـبْقِ العِـرَابُ

من المفترَض أن الأبيات هَزَّت الممدوح، واستثارت أريحيته، كيف لا وهي أتت على أعذب سجاياه، وصوَّرته أفخم تصوير، وأبرزته في أعلى هيئات الكرم والشجاعة، هذا كله والممدوح في مجلس شراب، فاجتمعت عليه نشوة خمر، ونشوة فخر.

وإني لأتساءل تساؤل المرتاب، هل ارتجل المتنبي هذه القصيدة حقا؟! أم أنه تأهب بها من قبل، وأَحَبَّ أن يُدهِش ممدوحه بقُدرته الارتجالية الفائقة، ونَفَسه الطويل؟! ولا سيّما أنه ألقاها في مجلس متكرر مألوف يَعرِف من قبل أنه سيَشْهَده، وأن الشراب سيدار فيه، وأن الشعر سيُرتَقَب منه.

حقّاً قصيدة قوية المعاني والسَّبْك، ويَظهر فيها أثر تمحيص وأناة، ويَستريب في شأن ارتجالها المستريب إذا قارنها بارتجالياته القصيرة الأخرى مبنى ومعنى، ومما يزيد الأمر ريبة أن الذي نص على أن القصيدة مرتجَلة مصدر وحيد، في حين غلب على ارتجالياته الأخرى اتفاق أكثر المصادر على ارتجالها.

وها هو بدر بن عمار مرة أخرى يستأثر بأبيات ارتجالية أخرى يشيد فيها المتنبي بسخائه ونُبله، يقول:(١)

بَـدرٌ فَـتىً لَـو كـانَ مِـن سُـؤّالِهِ ... يَومـاً تَـوَفَّرَ حَظُّـهُ مِـن مالِـهِ
تَتَحَـيَّرُ الأَفعـالُ في أَفعالِـهِ ... وَيَقِـلُّ مـا يَأتيـهِ في إقبالِـهِ
قَمَـراً نَـرى وَسَـحابَتَيْنِ بِمَوضِـعٍ ... مِـن وَجهِـهِ وَيَمينِـهِ وَشِمالِـهِ
سَـفَكَ الـدِّماءَ بِجـودِهِ لا بَأسِـهِ ... كَرَمـاً لأنَّ الطَّـيرَ بَعـضُ عِيالِـهِ
إن يُفْـنِ مـا يَحـوي فَقَـد أَبقـى بِـهِ ... ذِكـراً يَـزولُ الـدَّهرُ قَبـلَ زَوالِـهِ

أطمئن كثيراً إلى أن الأثر الذي تركته هذه الارتجالية المدحية في وجدان الممدوح أعظم من الأثر الذي تتركه قصيدة طويلة باهرة الإحكام أعدها الشاعر من قبل، وقد عرف المتنبي هذا الأثر، فراح يكرره في مواقف كثيرة، في حين أن الارتجال مما تستدعيه الدهشة، كأن يصف شيئاً غريبا، أو يُفَاكِه نَدَامَاه بما يدخل السرور عليهم، أما المديح فإنه الفخ الذي أحكم المتنبي نصبه لممدوحيه، وبه اقتنص مودتهم وعطاياهم.

ومن ارتجالياته في الأمير بدر الذي تهش نفسه للمديح المرتجَل قوله:(٢)

يا بَـدرُ إنَّـكَ وَالحَـديثُ شُـجونُ ... مَـن لَم يَكُـن لِمِثالِـهِ تَكـوينُ
لَعَظُمـتَ حَـتّى لَـو تَكـونُ أَمانَـةً ... مـا كـانَ مُؤتَمَنـاً بِهـا جِـبرينُ(٣)

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى أبي البقاء العُكْبَري (توفي: ٦١٦هـ)، تحقيق: مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري و عبدالحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨م، ٣٤٧/٢.

(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٠٨/٤.

(٣) جبرين: لغة في جبريل المَلَك عليه السلام.

بَعــضُ البَرِيَّــةِ فَــوقَ بَعــضٍ خالِيــاً فَــإذا حَضَــرتَ فَكُــلُّ فَــوقٍ دُونُ

وها هو المتنبي يجني ثمرة ارتجاله، ويقضي له الأمير حاجته، فيشكره ببيتين مرتجَلين:(١)

قَــد أُبــتُ بِالحاجَــةِ مَقضِــيَّةً وَعِفــتُ في الجَلسَــةِ تَطويلَهــا
أَنــتَ الــذي طــولُ بَقــاءٍ لَــهُ خَــيرٌ لِنَفســي مِــن بَقــائي لَهــا

وفي الأمير بدر أيضاً يقول:(٢)

فَــدَتكَ الخَيــلُ وَهْــيَ مُسَــوَّماتُ وَبــيضُ الهِنــدِ وَهْــيَ مُجَــرَّداتُ
وَصَــفْتُكَ في قَــوافٍ ســائِراتٍ وَقَــد بَقِيَــتْ وَإن كَثُــرَتْ صِــفاتُ
أَفاعيــلُ الــوَرى مِــن قَبــلُ دُهْــمٌ وَفِعلُــكَ في فِعــالِهِمُ شِــيَاتُ(٣)

وتتكرر معاني مديحه في كثير من مقطوعاته التي يظهر فيها أثر الارتجال، يقول:(٤)

بِرَجــاءِ جــودِكَ يُطــرَدُ الفَقْــرُ وَبِأَن تُعــادَى يَنفَــدُ العُمْــرُ
فَخَــرَ الزُجــاجُ بِأَن شَــرِبتَ بِــهِ وَزَرَتْ عَلــى مَــن عافَهــا الخَمــرُ
وَسَــلِمتَ مِنهــا وَهْــيَ تُسْــكِرُنا حَــتّى كَأَنَّــكَ هابَــكَ السُّــكْرُ
مــا يُرتَجَــى أَحَــدٌ لِمَكرُمَــةٍ إلاّ الإلَــهُ وَأَنــتَ يا بَــدرُ

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٤٩/٢.
(٢) السابق، ٢٢٤/١.
(٣) دُهْم: سُود. شِيَات: بياض في سواد، أو سواد في بياض.
(٤) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٤٠/٢.

ويقول:[١]

زالَ النَّهـــارُ وَنـــورٌ مِنـــكَ يوهِمُنـــا ... أَن لَم يَـــزُل وَلِجُـــنحِ اللَّيـــلِ إجنـــانُ
فَـإن يَكُـن طَلَـبُ البُسـتانِ يُمسِـكُنا ... فَـــرُحْ فَكُـــلُّ مَكـــانٍ مِنـــكَ بُســـتانُ

ويقول أيضا:[٢]

لَم تَـــرَ مَـــن نادَمـــتُ إلاّكـــا ... لا لِسِـــوى وُدِّكَ لي ذاكـــا
وَلا لِحُبِّيهـــــا وَلَكِنَّـــــني ... أَمسَـيتُ أَرجـوكَ وَأَخشـاكا

وله أيضا:[٣]

يا أَكـــرَمَ النـــاسِ في الفَعـــالِ ... وَأَفصَـــحَ النـــاسِ في المَقـــالِ
إن قُلـــتَ في ذا البَخـــورِ سَـــوقاً ... فَهَكَـــذا قُلـــتَ في النَّـــوالِ

كلها معانٍ مستهلكة مكرورة لدى الشاعر نفسه في الممدوح نفسه، ولا يُزري بالمتنبي هذا التكرار ما دام في موقف ارتجال، غير أنه يَسلُبه ما كان مأمولاً من أمثاله القادرين على التنويع والتجديد والإبهار.

(١) السابق، ٤/٢٣٢.
(٢) السابق، ٢/٣٨٣.
(٣) السابق، ٣/٢٦٢.

ومع ذلك لا تخلو بعض معانيه في ارتجالياته المِدْحية من محاولات تجديد، كقوله وقد جعل من نفسه واشياً حين يذكر محاسن الأمير للناس؛ لأن محاسنه تستفز فئة منهم، ومن ثم يكيدون له لؤماً وحسدا، يقول:(١)

أنَا بالوُشـــاةِ إذا ذَكَرْتُـــكَ أشْـــبَهُ تأتي النَّـدَى وَيُـذاعُ عَنْـكَ فَتَكْـرَهُ(٢)

وَإذا رَأيْتُـكَ دونَ عِـرْضٍ عَارِضـاً أَيْقَنْـــتُ أنّ اللهَ يَبْغـــي نَصْـــرَهُ(٣)

وفي البيت الثاني يجعل من الأمير مؤيَّداً من الله، وأن علامة انفراج معضلةٍ ما أن يلتفت إليها الأمير، ويوليها عنايته.

وقد يأتي بالمعنى الذي سُبِقَ إليه، ويوغل في التوسع فيه، كقوله:(٤)

وَوَقـتٍ وَفَى بِالـدَّهْرِ لي عِنـدَ واحِـدٍ وَفَى لي بِأَهليـــــهِ وَزادَ كَثـــــيرا

شَرِبتُ عَلى استِحسانِ ضَوءِ جَبينِهِ وَزَهْـــرٍ تَـــرَى لِلمـــاءِ فيـــهِ خَرِيـــرا

غَـدا النـاسُ مِثلَـيهِمْ بِـهِ لا عَدِمْتُـهُ وَأَصـبَحَ دَهـري في ذَرَاهُ دُهُـورا(٥)

---

(١) ديوان المتنبي، الواحدي (توفي: ٤٦٨هـ)، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، دار الرائد العربي، بيروت، ط:١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، ٣/ ١٢١٥.

(٢) يُشَبِّه الشاعر نفسه بالواشي الذي ينقل الكلام، ويتسبب في الضرر، لكن وشايته تقتصر على ذكر محاسن ممدوحه، وهذه المحاسن تستثير حساده وتستفزهم.

(٣) يقول: إذا رأيتك أيها الممدوح تحامي عن عِرْض أيقنتُ أن الله يريد له النصر؛ لأن الله لا يوليك أَمْرَ أَمْرٍ إلا لِيُتِمَّه.

(٤) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ٢/ ٩٢٤.

(٥) يريد أن الممدوح وحدَه يَعْدِل الناسُ كلَّهم في علمه وحزمه ومروءته، وأن الدهر عظيم القدر به، فكأنه عدة دهور.

فكرة اجتماع الناس في شخص واحد سَبَقَ إليها أبو نُوَاس (توفي: ١٩٨هـ) في قوله:

ولَـــــــيْسَ للهِ بِمُسْـــــــتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَــعَ العَــالَمَ في وَاحِــدِ[١]

غير أن المتنبي أوغل تفصيلاً وتوسُّعاً، فجَعَلَ من ممدوحه واحدَ عصره، والشخصَ الذي يَزِنُ وحدَه أهلَ زمنه مجتمعين، لتصبح أعدادُهم به مضاعَفة، ودهرُهم به دهورا.

وحين تُعْوِزه معاني المديح يكرر بعضها، ويُدخل إليها معنى يبدو جديدا، ويكون بيت القصيد، ولذا يختم به، يقول:[٢]

رُبّ نَجِيعٍ بسَيفِ الدَّوْلَةِ انْسَفَكا وَرُبَّ قافِيَةٍ غَاظَتْ بِهِ مَلِكَا[٣]

مَنْ يَعْرِفِ الشَّمْسَ لم يُنْكِرْ مَطالِعَها وَيُبْصِرِ الخَيلَ لا يَسْتَكْرِمِ الرَّمَكَا[٤]

تَسُرُّ بالمالِ بَعضَ المالِ تَمْلِكُهُ إنّ البِلادَ وَإنّ العالَمِينَ لَكَا[٥]

---

(١) ديوان أبي نواس، تحقيق: إيفالد فاغنر، دار الكتاب العربي، برلين، ط:٢، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، ١/ ٢٠٥.

(٢) الفَسْر (شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي)، ابن جني (توفي: ٣٩٢هـ) تحقيق: د. رضا رجب، دار الينابيع، دمشق، ط:١، ٢٠٠٤م، ٢/ ٦١٣.

(٣) النجيع: الدم.

(٤) الرَّمَك: الفرس التي تتخذ للنتاج لا الركوب، والأنثى من البراذين.

(٥) بعض المال: يعني الناس، ويريد أنهم من أملاك الممدوح، أي أنك أيها الممدوح تُسْعِدُنا بمالِك ونحن من مالِك.

البيتان الأولان مستهلَكا المعنى، أما الأخير فتَستوقِف بنيتُه المتلقي أول الأمر، ثم يدهشه معناه الكامن إن كان مُغْرَماً بالمبالغة؛ إذ جَعَلَ الشاعرُ الأميرَ يُسْعِد الناس بمالِه، وهم من مالِه.

ومن الممدوحين المخصوصين بجملة ارتجاليات الأمير أبو محمد ابن طُغْج الإخشيدي، يقول فيه وقد عزم الأمير على السير في ليلة مطيرة:(١)

غَيرُ مُستَنكِرٍ لَكَ الإقدامُ ... فَلِمَن ذا الحَديثُ وَالإعلامُ
قَد عَلِمنا مِن قَبلُ أَنَّكَ مَن لَمْ ... يَمْنَعِ اللَّيلُ هَمَّهُ وَالغَمامُ

وقال فيه وهو معه في رحلة صيد:(٢)

أَمِنْ كُلِّ شَيءٍ بَلَغتَ المرادا ... وَفي كُلِّ شَأْوٍ شَأَوْتَ العِبادا(٣)
فَماذا تَرَكتَ لِمَن لَم يَسُدْ ... وَماذا تَرَكتَ لِمَن كانَ سادا
كَأَنَّ السُّمَانَى إذا ما رَأَتكَ ... تَصَيَّدُها تَشتَهي أَن تُصادا(٤)

وامتنع المتنبي عن الشرب في مجلس الأمير، فألح عليه بالشرب مُقْسِماً عليه بحقه لديه، فشرب المتنبي، ثم قال:(٥)

سَقاني الخَمْرَ قَولُكَ لي: «بِحَقّي» ... وَوُدٌّ لَم تَشُبْهُ لي بِمَذْقِ

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١١٨/٤.
(٢) السابق، ١٢/٢.
(٣) الشَّأْو: الأَمَد والغاية والشَّوْط، شَأَوْتَ: تَجَاوَزْتَ.
(٤) السُّمَانَى: نوع من الطيور المهاجرة الصالحة للأكل، وهي أكبر من العصافير، وأصغر من الحَمام.
(٥) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٣٥١/٢.

يَمينـــاً لَـــو حَلَفـــتَ وَأَنـــتَ ناءٍ عَلـى قَتلـي بِهـا لَضَـرَبتُ عُنْقـي

ولما أكثر جلساء الأمير من الارتياب في استعداد المتنبي المسْبَق بسبب وفرة ارتجالياته في مديح الأمير قال:(١)

إنَّمـــا أَحفَـــظُ المِـــديحَ بِعَيـــنِي لا بِقَلـــبي لِمـــا أَرى في الأَمـــيرِ
مِـــن خِصـــالٍ إذا نَظَـــرتُ إلَيهـــا نَظَمَـــتْ لي غَرائِـــبَ المنثـــورِ

لقد أجابهم بما لا يمكن أن يرتابوا فيه؛ إذ إن الرد الحاضر على تهمةٍ مفاجئة برهان قاطع على اقتدار حقيقي، ونص وليد اللحظة.

وأكثر مَن حَظِيَ بارتجالياته صَفِيُّه ونَجِيُّه الأمير الأديب الأريب سيف الدولة الحَمْداني الذي كان يَعرف قَدْر شعر المتنبي، ويُعلي منزلته، ويطيل إكرامه، ومثل هذه الأهلية حَفَّزَت الشاعر ليكون حاضراً بشعره متميزاً بعطائه بين منافسين أَشَدّاء.

وها هو أبو الطَّيِّب في موكب الأمير في يوم مطير، وكان الأمير متشِحاً سيفه، فيجد الشاعر في هذا الموقف فرصة سانحة ليلتقط صورة شعرية تدهش الأمير بحسنها وبارتجالها، يقول:(٢)

لِعَيْـنِي كُـلَّ يَـوْمٍ مِنْـكَ حَـظٌّ تَحَـيَّرُ مِنْـهُ في أَمْـرٍ عُجَـابِ
جِمَالَـةُ ذا الحُسَـامِ عَلـى حُسَـامٍ وَمَوْقِعُ ذا السَّحَابِ عَلى سَحَابِ(٣)

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٤٦/٢.
(٢) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ٣/ ١٢١٢.
(٣) جِمَالَة: مَحْمَل. يتعجب الشاعر من حمل السيف (ويعني سيف الدولة) للسيف، ومن انسكاب السحاب على سيف الدولة وهو سحاب مثله.

اسم الأمير سيف، فكيف يحمل سيفا؟! والأمير أيضاً سحاب، فكيف يهمي عليه سحاب؟! تصوير أعجب الأمير، وهَشَّ له، فلما شعر المتنبي بإعجاب الأمير وإقباله انهمر عليه سانح الشعر مع انهمار المزيد من المطر، فقال:(١)

تَجِـفُّ الأرْضُ مِـن هـذا الـرَّبّابِ ... وَيَخْلُـقُ مَـا كَسَـاهَا مِـنْ ثِيـابِ(٢)
وَمـا يَنْفَـكُّ مِنْـكَ الـدّهْرُ رَطْبـاً ... وَلا يَنْفَـكُّ غَيْثُـكَ فِي انْسِـكابِ
تُسـايِرُكَ السَّـوارِي والغَـوَادي ... مُسـايَرَةَ الأحِبّـاءِ الطِّـرَابِ(٣)
تُفيـدُ الجُـودَ مِنْـكَ فَتَحْتَذيـهِ ... وَتَعجِـزُ عَـنْ خَلائِقِـكَ العِـذابِ

وكأن بين سيف الدولة والمتنبي عقداً غير مُعْلَن.. إذا مَدَحَ سيفُ الدولة شِعرَ المتنبي انفتحت نفس المتنبي للشعر، فمَدَحَ خصالَ سيف الدولة، حدث هذا في أكثر من موقف، يقول المتنبي بعد أن استحسن الأمير قصيدة له:(٤)

إنَّ هَـذا الشِّـعْرَ فِي الشِّـعْرِ مَلَـكْ ... سـارَ فَهْـوَ الشَّـمْسُ وَالـدُّنْيا فَلَـكْ
عَـدَلَ الـرَحمَنُ فيـهِ بَيْنَنـا ... فَقَضَـى بِاللَّفْـظِ لِي وَالحَمْـدِ لَـكْ
فَـإذا مَـرَّ بِأُذْنِي حاسِـدٍ ... صـارَ مِمَّـنْ كـانَ حَيّـاً فَهَلَـكْ

(١) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ٣/ ١٢١٣.
(٢) الرَّبَاب: السحاب الأبيض ومطره. يَخْلُق: يَبْلَى.
(٣) السواري والغوادي: السُّحُب سارية وغادية. الأحبّاء الطِّرَاب: العُشّاق بينهم مَرَحٌ وأُنْس.
(٤) الفَسْر (شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي)، ابن جني، تحقيق: د. رضا رجب، ٢/ ٦١٤.

ويقول في سيف الدولة وقد أبلى بلاءً حسناً في وَقْعة ظفر فيها بأعدائه:[١]

أَباعِــثَ كُــلِّ مَكرُمَــةٍ طَمُــوحِ وَفــارِسَ كُــلِّ سَــلْهَبَةٍ سَــبُوحِ[٢]
وَطــاعِنَ كُــلِّ نَجــلاءٍ غَمُــوسٍ وَعاصِــيَ كُــلِّ عَــذّالٍ نَصِــيحِ
سَــقاني اللهُ قَبــلَ المــوتِ يَومــاً دَمَ الأَعــداءِ مِــن جَــوفِ الجُــروحِ

وأهداه سيف الدولة فرسا، وطلب منه أن يصفه، فقال:[٣]

مَوقِــعُ الخَيــلِ مِــن نَــداكَ طَفيــفُ وَلَــوَ انَّ الجِيــادَ فيهــا أُلــوفُ[٤]
وَمِــنَ اللَفــظِ لَفظَــةٌ تَجمَــعُ الوَصْــ ــــفَ وَذاكَ المِطَهَّــمُ المِعــروفُ[٥]
مــا لَنــا في النَــدى عَلَيــكَ اختِيــارٌ كُــلُّ مــا يَمــنَحُ الشَّــريفُ شَــريفُ

مع أن الموقف موقف وصف واضح الهدف والقصد استطاع المتنبي حرف المسار من الوصف الخالص للفرس إلى مدح الأمير.

وعاب قوم على المتنبي بيتاً قديماً مدح به سيف الدولة، وهو:[٦]

لَيْــتَ أَنّا إذا ارْتَحَلْــتَ لَــكَ الخَيْــ ــــلُ وأَنّا إذا نَزَلْــتَ الخِيَــامُ

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٥٨/١.

(٢) سَلْهَبَة: الفَرَس الطويلة.

(٣) شرح شعر المتنبي، ابن الأفليلي (توفي: ٤٤١هـ)، تحقيق: د. مصطفى عليان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:٢، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، ١/ ٢٤٧.

(٤) الأصل قطع الهمزة في «ولو أن»، ووصلها الشاعر ضرورة.

(٥) المطَهَّم: التامّ الجَمَال.

(٦) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٣٤٤/٣.

إذ تَقَبَّلوا أن يكونوا خيلاً للأمير ما دام يعلوها، واستنكروا أن يكونوا خياماً لكون الخيام تعلوه، ولا ينبغي أن يعلو فوق الأمير شيء في نظر أولئك النقاد حتى لو كان سقفا، فارتجل المتنبي هذه الأبيات معتذِراً مُعَلِّلاً مُتَخلِّصا:(١)

لَقَـد نَسَـبوا الخِيـامَ إلى عَـلاءٍ ... أَبَيـتُ قَبُولَـهُ كُـلَّ الإباءِ
وَمـا سَـلَّمتُ فَوقَـكَ لِلثُـرَيّا ... وَلا سَـلَّمتُ فَوقَـكَ لِلسَّـماءِ
وَقَـد أَوحَشـتَ أَرضَ الشـامِ حَـتّى ... سَـلَبتَ رُبوعَهـا ثَـوبَ البَهـاءِ
تَـنَفَّسُ وَالعَواصِـمُ مِنـكَ عَشـرٌ ... فَيُعـرَفُ طِيـبُ ذَلِـكَ في الهَـواءِ(٢)

تراجَعَ عن مضمون بيته السالف، وجارَى مماحكة ناقديه مُقِرّاً بخطئه إيماناً منه بأن الأمير لا يعلو فوقه شيء، وبهذا تغلب عليهم، ثم خرج من هذا كله إلى ثناء تعويضيّ جديد، فالشام مشتاقة إلى سيف الدولة، ومن شدة شوقها إليه أجدبَتْ واصفرَّتْ، وما أعاد لها شيئاً من رونقها غير أنفاس الأمير التي وجدت أثرها في الهواء رغم أن بينها وبينه مسيرة عشر ليالٍ.

وكان سيف الدولة أمر بأن يحيط النهر بقصره، فلما تم له ما أراد رأى المتنبي المشهد، فهاله ما رآه، ثم ارتجل مادحاً أكثرَ مِن كونه واصفا:(٣)

حَجَّـبَ ذا البَحـرَ بِحـارٌ دُونَـهُ

---

(١) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ٣/ ١٢٢١.

(٢) عشر: أي أن العواصم تبعد عنك مسيرة عشر ليال، وقال الواحدي: «ومعنى (والعواصم منك عشر) على مسيرة عشرة، فحَذَفَ حتى أَخَلَّ باللفظ».
ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ٣/ ١٢٢٢.

(٣) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٧١/٤.

يَـــــذُمُّها النـــــاسُ وَيَحمَدونَـــــهُ
يا مـــــاءُ هَـــــل حَسَـــــدتَنا مَعِنِيَـــــهُ
أَمِ اشـــــتَهَيتَ أَن تُـــــرَى قَرينَـــــهُ
أَمِ انتَجَعـــــتَ لِلغِـــــنى يَمينَـــــهُ
أَمْ زُرتَـــــهُ مُكَتِّـــــراً قَطينَـــــهُ(١)
أَمْ جِئتَـــــهُ مُخَنـــــدِقاً حُصـــــونَهُ
إنَّ الجِيـــــادَ وَالقَنـــــا يَكفينَـــــهُ
يا رُبَّ لُجٍّ جُعِلَـــــتْ سَـــــفينَهُ(٢)
وَعـــــازِبِ الـــــرَّوضِ تَوَفَّـــــتْ عُونَـــــهُ(٣)
وَذي جُنـــــونٍ أَذهَبَـــــت جُنونَـــــهُ
وَشَـــــرْبِ كَـــــأسٍ أَكثَـــــرَت رَنينَـــــهُ
وَأَبـــــدَلَتْ غِنـــــاءَهُ أَنينَـــــهُ
وَضَـــــيغَمٍ أَولَجَهـــــا عَرينَـــــهُ(٤)
وَمَلِـــــكٍ أَوطَأَهـــــا جَبينَـــــهُ
يَقودُهـــــا مُسَـــــهِّداً جُفونَـــــهُ
مُباشِـــــراً بِنَفْسِـــــهِ شُـــــؤونَهُ
مُشَـــــرِّفاً بِطَعنِـــــهِ طَعِينَـــــهُ
عَفيـــــفَ مـــــا في ثَوبِـــــهِ مَأمونَـــــهُ
أَبـــــيَضَ مـــــا في تاجِـــــهِ مَيمونَـــــهُ

---

(١) القَطِين: القوم والجماعة.

(٢) اللُّجّ: جمع لُجَّة، وهو البحر.

(٣) العازِب: البعيد. تَوَفَّتْ: أَهْلَكَتْ. العُون: جمع عانة، وهي القطيع من الوحش.

(٤) الضَّيْغَم: الأَسَد.

بَحْـــرٌ يَكـــونُ كُـــلُّ بَحْـــرٍ نُونَـــهُ[1]
شَمْـــسٌ تَمَـــنّى الشَّـــمسُ أَن تَكونَـــهُ
إن تَـــــدْعُ يا سَـــــيفُ لِتَســـــتَعينَهُ
يُجِبْـــكَ قَبْـــلَ أَن تُـــتِمَّ سِـــينَهُ
أَدامَ مِـــــن أَعدائِـــــهِ تَمكينَـــــهُ
مَـــن صـــانَ مِـــنهُمْ نَفْسَـــهُ وَدِينَـــهُ

ولا أخفي أن ريبة في النفس من كون هذه الأرجوزة مرتجَلة، فامتدادها بهذا الرصف في المدح والوصف يقتضي تأهباً وتأملا، فإن كانت ريبتي في غير محلها فالمتنبي حقّاً شاعر خارق في بعض ارتجالياته.

وأرسل له سيف الدولة رسولاً برسالة تتضمن أبياتاً أدهشَتْه، وكأنه يريد بها استثارة قريحة المتنبي، والإتيان بمثلها أو أفضل، والأبيات هي:[2]

سأَشْـكُرُ عَمْـراً مـا تَرَاخَـتْ مَنِيَّـتي ... أَيَادِيَ لم تُمْـنَنْ وإنْ هِـيَ جَلَّـتِ
فـتًى غـيرُ محجـوبِ الغِـنَى عـن صَـدِيقِهِ ... ولا مُظْهِـرُ الشَّـكْوَى إذا النَّعْـلُ زَلَّـتِ
رَأَى خَلَّتي مِـن حَيْـثُ يَخْفَـى مَكانُهـا ... فكَانـتْ قَـذَى عَيْنَيـهِ حـتَّى تَجَلَّـتِ

(١) النُّون: الحُوت.

(٢) الكامل في اللغة والأدب، المبرد، تحقيق: د. محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:٣، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، ١/ ٢٧٨.

والأبيات متنازَعة النسبة، وهي نَقْلاً عن محقق الكتاب للعبدالله بن الزبير الأسدي، وقيل لإبراهيم بن العباس الصولي، وقيل لمحمد بن سعيد، وقيل لأبي الأسود الدؤلي، وقيل لعمرو بن كُمَيْل.

فتأملها المتنبي، ثم أملى على الرسول ارتجالا:[1]

لَنــا مَلِــكٌ لا يَطعَــمُ النَــومَ هَمُّــهُ ... مَــاتٌ لِحَــيٍّ أَو حَيــاةٌ لِمَيِّــتِ
وَيَكْــبُرُ أَن تَقْــذَى بِشَــيءٍ جُفونُــهُ ... إذا مــا رَأَتــهُ خَلَّــةٌ بِــكَ فَــرَّتِ[2]
جَـزى اللهُ عَـنّي سَـيفَ دَولَـةِ هاشِـمٍ ... فَـإِنَّ نَـداهُ الغَمْـرَ سَـيْفي وَدَوْلَـتي

وأزعم أن المتنبي استطاع إرضاء سيف الدولة بهذا الرد المرتجَل الذي أكبر فيه ممدوحه عن أن يُشْبِهه أحد، أو أن يكون كغيره من الكرام الذين ينتابهم ما ينتابهم من نقص وهِنَات.

لقد استقصيت أكثر ارتجالياته المِدْحية في هذا المبحث لأجلو الصورة الكلية عن دواعي المديح ومضامينه ونوعية من يستهدفهم من الممدوحين، مما جعلني أتحقق أن المتنبي يعطي كل ممدوح ما يناسبه، وهذا من دهاء الصنعة، وحذق التعامل، ولذلك ظل المتنبي أثيراً خاصاً لدى ممدوحيه، ونال حظوة لديهم لم ينلها منافسوه من الشعراء.

(١) شرح شعر المتنبي، ابن الأفليلي، تحقيق: د. مصطفى عليان، ٢/ ٢٢٨.
(٢) الخَلَّة: الفَقْر والحاجة.

المبحث الثاني: الوصف:

شعر الوصف أوسع موضوعات الشعر، وأقربه إلى طبيعته، ومنه وإليه معظم مضامين الشعر، فمن خلاله يصف الشاعر مشاعره، ويعكس ما تتراءاه نفسه بيسر وانسياب،(١) ولذا بدا شعر الوصف وثيق الصلة بالارتجال، لكون داعيه حاضراً مباغتا.

ومعظم الذين درسوا الارتجال وقفوا عند الوصف كثيرا، وذلك لكون ما تراه العين وما يعتمل في النفس من أقوى المؤثرات التي يستجيب لها الشاعر من فوره، فمتى اجتمعت قريحة وقادة وطبيعة منقادة جاء الوصف المرتجَل دقيقا أنيقا.

وأكثر ما وصفه المتنبي في ارتجالياته أشياء أدهشته وَقَعَتْ عليها عينه، أو طُلِب منه وصفها، ومن ارتجالياته الوصفية قوله في وصف بستان الأمير:(٢)

وَزِيارَةٍ عَـــن غَـــيرِ مَوعِـــدْ ... كَـــالغُمضِ في الجَفـــنِ المسَـــهَّدْ
مَعَجَـــتْ بِنـــا فيهـــا الجِيـــا ... دُ مَـــعَ الأَمـــيرِ أَبي مُحَمَّـــدْ(٣)
حَـــتّى دَخَلنـــا جَنَّـــةً ... لَـــو أَنَّ ســـاكِنَها مُخَلَّـــدْ
خَضـــراءَ حَمـــراءَ الـــثُرا ... بِ كَأَنَّهـــا في خَـــدِّ أَغيَـــدْ(٤)
أَحبَبـــتُ تَشـــبيهاً لَهـــا ... فَوَجَدتَـــهُ مـــا لَـــيسَ يوجَـــدْ

(١) يُنظر: الوصف في الشعر العربي، عبدالعظيم قناوي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط:١، ١٩٤٩م، ١/ ٤٣.

(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١١/٢.

(٣) مَعَجَتْ: مَشَتْ مشياً حثيثاً سريعا، والمِعْج نوع من المشي السريع.

(٤) أَغْيَد: ناعم.

وَإذا رَجَعـــــتَ إلى الحَقـــــا ئـــقِ فَهْـــيَ واحِـــدَةٌ لِأَوحَـــدْ

يرى البستان كالجنة لا يختلف عنها في شيء سوى أن ساكنها غير مُخَلَّد، وهذا البستان أخضر النبات أحمر التربة كخد شاب ظهرت بدايات لحيته، ويقر أن وصف البستان متعذر عليه؛ لأن البستان واحد زمانه في البساتين، كما أن مالكه الأمير واحد الأمراء.

ومن عرف الشعر ومارسه ارتاب بعض الشيء في هذه المقطوعة، وهل هي حقّاً مرتجَلة، أم أنها نتاج تأمُّل وتَرَوٍّ؛ إذ إن فيها من الإتقان ما يفوق أكثر مثيلاتها المرتجَلات، ولعل المتنبي راجعها ونقحها، أو لعل قدرته الارتجالية أبعد مما أظن.

ومما وصفه المتنبي في ارتجالياته مجالس الشرب وكؤوسها، قال يصف زجاجة شراب بيد الأمير:(١)

أَغَـارُ مِـنَ الزُّجَاجَـةِ وَهْـيَ تَجْـري عَلَـى شَـفَةِ الأَمِـيْرِ أَبِي الحُسَـينِ
كَـأَنَّ بَيَاضَـهَا وَالـرَّاحُ فيهـا بَيَـاضٌ مُحْـدِقٌ بِسَـوَادِ عَـينِ

وقال أيضاً في موقف مُشابِه:(٢)

رَأَيْـتُ الحُمَيَّـا في الزُّجَـاجِ بِكَفِّـهِ فَشَبَّهْتُهَا بِالشَّمْسِ في البَدْرِ في البَحْرِ
إذا مـا ذَكَـرْنا جُـوْدَهُ كَـانَ حَاضِـراً نَأَى أَوْ دَنَا يَسْـعَى عَلَـى قَـدَمِ الخِضْـرِ

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٩٣/٤.
(٢) العَرْف الطَّيِّب في شرح ديوان أبي الطَّيِّب، تحقيق: ناصيف اليازجي، ص: ٧٩.

تشبيهات قريبة تتفق مع ما يقع عليه الخاطر أول وهلة عند رؤية الكؤوس الزجاجية المودَعة شراباً شفّاف اللون.

وأهداه أحد التجار طبقاً فيه سمك مغمور بالعسل، فأعجبه شكله ومذاقه، فقال من فوره:(١)

أَهْـلاً وَسَـهْلاً بِمَـا بَعَثْـتَ بِـهِ ... إيْهـاً أَبا قاسِـمٍ وَبِالرُسُـلِ

هَدِيَّـةٌ مـا رَأَيْـتُ مُهْـدِيَها ... إلاَّ رَأَيْـتُ العِبَـادَ في رَجُـلِ

أَقَـلُّ مـا في أَقَلِّهـا سَمَـكٌ ... يَسْـبَحُ في بِرْكَـةٍ مِـنَ العَسَـلِ

ومن أعجب ارتجالياته الوصفية أرجوزة طَرْدِيّة طويلة يصف فيها مكانَ الصيد، والظبيَ الذي عَنَّ لهم، وكلبَ الصَّيد الذي أطلقوه عليه، وكيف ظل يطارده حتى تمكن منه، يقول مبتدئاً بوصف موضع الصيد:(٢)

وَمَنْـزِلٍ لَـيْسَ لَنـا بِمَنْـزِلِ

وَلا لِغَـيْرِ الغَـادِيَاتِ الهُطَّـلِ(٣)

نَـدِي الخُزَامَـى ذَفِـرِ القَرَنْفُـلِ(٤)

مُحَلَّـلٍ مِ الـوَحْشِ لَمْ يُحَلَّـلِ

(١) السابق، ص: ١٨.

(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٠١/٣.

(٣) الغادِيَات الهُطَّل: السُّحُب الماطرة.

(٤) الذَّفِر: ذَكِيّ الرائحة.

ثم يصف الظبي الذي عَنَّ لهم:[١]

عَـــنَّ لَنَـــا فيـــهِ مُرَاعِـــي مُغْـــزِلِ[٢]
مُحَـــيَّنُ الـــنَّفْسِ بَعِيْـــدُ المؤْئـــلِ[٣]
أَغْنَـــاهُ حُسْـــنُ الجِيْـــدِ عَـــنْ لُـــبْسِ الحُلـــي
وَعَـــادَةُ العُـــرْيِ عَـــنِ التَّفَضُّـــلِ
كَأَنَّـــهُ مُضَـــمَّخٌ بِصَـــنْدَلِ
مُعْتَرِضـــاً بِمِثْـــلِ قَـــرْنِ الأَيِّـــلِ
يَحَـــوْلُ بَـــيْنَ الكَلْـــبِ وَالتَّأَمُّـــلِ

وبعد أن وصف الظبي انتقل إلى وصف كلب الصَّيْد، يقول:[٤]

فَحَـــلَّ كَـــلاَّبِي وَثاقَ الأَحْبُـــلِ[٥]
عَـــنْ أَشْـــدَقٍ مُسَـــوْجَرٍ مُسَلْسَـــلِ[٦]
أَقَـــبَّ سَـــاطٍ شَـــرِسٍ شَمَـــرْدَلِ[٧]
مِنْهـــا إذا يُثْـــغَ لَـــهُ لا يَغْـــزَلِ[٨]

---

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٠١/٣.
(٢) مُراعي مُغْزِل: الظبي، ويعني أن الظبي يراعي ظبية معها غزالها الصغير.
(٣) مُحَيَّن النفْس: مُؤَقَّت الأجَل. المؤْئل: المنْجَى.
(٤) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٠٣/٣.
(٥) الكَلّاب: الخبير بتدريب الكلاب والصيد بها.
(٦) أَشْدَق: واسع الفم. مُسَوْجَر: على رقبته ساجور، والساجور القلادة. مُسَلْسَل: في رقبته سلسلة.
(٧) أَقَبّ: ضامر البطن. ساطٍ: جريء. شَمَرْدَل: طويل.
(٨) يُثْغَى: يصيح. يغزل: يتحيَّر.

مُؤَجَّـــدِ الفِقْـــرَةِ رِخْـــوِ المِفْصِـــلِ[١]
لَـــهُ إذا أَدْبَـــرَ لَحْـــظُ المُقْبِـــلِ
كَأَنَّمَـــا يَنْظُـــرُ مِـــنْ سَـــجَنْجَلِ[٢]
يَعْـــدو إذا أَحْـــزَنَ عَـــدْوَ المِسْـــهِلِ
إذا تَـــلا جـــاءَ المِـــدَى وَقَـــدْ تُلـــي
يُقْعِـــي جُلُـــوسَ البَـــدَوِيِّ المِصْـــطَلِي[٣]
بِأَربَـــــعٍ مَجْدُوْلَـــــةٍ لَمْ تُجْـــــدَلِ[٤]
فُتْـــلِ الأَيَادي رَبِـــذَاتِ الأَرْجُـــلِ[٥]
آثَارُهـــــا أَمْثَالُهَـــــا فِي الجَنْـــــدَلِ[٦]
يَكَـــادُ فِي الوَثْـــبِ مِـــنَ التَّفَتُّـــلِ[٧]
يَجْمَـــعُ بَـــيْنَ مَتْنِـــهِ وَالكَلْكَـــلِ[٨]
وَبَـــيْنَ أَعْـــلاهُ وَبَـــيْنَ الأَسْـــفَلِ
شَـــبِيْهُ وَسْمِـــيِّ الحِضَـــارِ بِالـــوَلِي[٩]

---

(١) مُؤَجَّد: قويّ.

(٢) سَجَنْجَل: مِرْآة.

(٣) يُقْعي: من الإقعاء، وهو لدى الإنسان جلوس على المؤخرة مع ثني الركبتين إلى الصدر.

(٤) الأربع المجدولة: يريد قوائم كلب الصَّيْد المتأهِّب للانقضاض على الفريسة. مجدولة لم تُجْدَل: أي أن قوائم الكلب مفتولة شديدة خِلْقَةً وطبيعةً لا ترويضاً وتدريبا.

(٥) فُتْل الأيادي: أي أن أياديه مفتولة منفرجة عن الصدر قوّةً وضخامة. رَبِذَات: خفيفات سريعات.

(٦) الجَنْدَل: الصَّخْر.

(٧) التَّفَتُّل: الانطلاق.

(٨) الكَلْكَل: الصَّدْر.

(٩) الحِضَار: العَدْو.

كَأَنَّـــــهُ مُضَـــــبَّرٌ مِـــــنْ جَـــــرْوَلِ[١]
مُوَثَّـــــقٌ عَلَـــــى رِمَـــــاحٍ ذُبَّـــــلِ[٢]
ذِي ذَنَـــــبٍ أَجْـــــرَدَ غَـــــيْرِ أَعْـــــزَلِ[٣]
يَخُـــــطُّ فِي الأَرْضِ حِسَـــــابَ الجُمَّـــــلِ[٤]
كَأَنَّـــــهُ مِـــــن جِسْـــــمِهِ بِمَعْـــــزِلِ[٥]
لَـــوْ كَـــانَ يُبْلِـــي السَّـــوْطَ تَحْرِيـــكٌ بَلِـــي[٦]
نَيـــلُ المِـــنَى وَحُكْـــمُ نَفْـــسِ المُرْسِـــلِ[٧]
وَعُقْلَـــــةُ الظَّـــــبْيِ وَحَتْـــــفُ التَّتْفُـــــلِ[٨]

---

(١) مُضَبَّر: منحوت. جَرْوَل: حَجَر.

(٢) ذُبَّل: جمع ذابل، وهو الرمح الصلب المتماسك.

(٣) أَجْرَد: قليل الشَّعْر. أَعْزَل: غير مُسْتوٍ مع مستوَى فَقَار الظَّهْر.

(٤) حساب الجُمَّل: طريقة حسابية توضع فيها الحروف مقابل أرقام، فتُعْرَف بها الأعداد والتواريخ، والشاعر يعني أن ذيل الكلب طويل يحتك بالأرض، ومن ثم يَخُطّ عليها طلاسم تُشْبه كتابات أهل الحساب.

حساب الجمل طريقةٌ حسابية تُوضَع فيها أحرف الهجاء العربية مقابل الأرقام

(٥) أي أن ذنب كلب الصيد من فَرْط طوله يبدو مستقلاً عن الجسد .

(٦) أي أن ذنب كلب الصيد لا يَبْلَى ولا يتغيَّر من كثرة حركته، فهو كالسَّوْط يُستعمَل كثيراً ولا يَبْلَى سريعا .

(٧) أي ان كلب الصيد تُنال به المنَى، ويَشْفي نَفْسَ مُرْسِلِه؛ إذ يعود ظافراً بالصيد.

(٨) عُقْلَة: عائق. حَتْف: موت. التَّتْفُل: ولد الظبي، وولد الثعلب.

وهذا وصف عميق دقيق يَشُقّ تَأَمُّله وتَخَيُّله، فكيف بارتجاله ثم تدوينه، وأعجب منه ما جاء في وصف الطراد بين الكلب والظبي، يقول:(١)

فَـــانْبَرَيَا فَـــذَّيْنِ تَحْـــتَ القَسْـــطَلِ(٢)
قَـــدْ ضَـــمِنَ الآخِـــرُ قَتْـــلَ الأَوَّلِ
في هَبْـــوَةٍ كِلاهُمـــا لَمْ يَـــذْهَلِ(٣)
لا يَأْتَلِـــي في تَـــرْكِ أَنْ لا يَأْتَلـــي(٤)
مُقْتَحِمـــاً عَلَـــى المِكَـــانِ الأَهْـــوَلِ
يَخَـــالُ طُـــوْلَ البَحْـــرِ عَـــرْضَ الجَـــدْوَلِ(٥)
حَـــتَّى إذا قِيْـــلَ لَـــهُ: نِلْـــتَ افْعَـــلِ
افْـــتَرَّ عَـــنْ مَذْرُوبَـــةٍ كَالأَنْصُـــلِ(٦)
لا تَعْـــرِفُ العَهْـــدَ بِصَـــقْلِ الصَّـــيْقَلِ(٧)
مُرَكَّبَـــاتٍ في العَـــذَابِ المُنْـــزَلِ
كَأَنَّهَـــا مِـــنْ سُـــرْعَةٍ في الشَّـــمْأَلِ
كَأَنَّهَـــا مِـــنْ ثِقَـــلٍ في يَـــذْبُلِ(٨)

---

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٠٦/٣.
(٢) القَسْطَل: الغُبار.
(٣) هَبْوَة: غُبْرَة.
(٤) يأتلي: يُقَصِّر ويُفَرِّط.
(٥) يريد أن كلب الصيد واسع الخطوة في الوثوب، فلو واجه بحراً فسيحاً لتجاوزه بوثبة ممتدَّة كما لو كان يتجاوز جدولاً صغيرا.
(٦) مَذْرُوبة: الأنياب الحادّة. الأَنْصُل: جمع نَصْل، وهو رأس السهم، ومَتْن السيف.
(٧) الصَّيْقَل: صانع السيوف.
(٨) يَذْبُل: جبل في الحجاز.

كَأَنَّهَا مِنْ سَعَةٍ فِي هَوْجَلِ[١]
كَأَنَّهُ مِنْ عِلْمِهِ بِالمِقْتَلِ
عَلَّمَ بُقْرَاطَ فِصَادَ الأَكْحَلِ[٢]
فَحَالَ مَا لِلْقَفْزِ لِلتَّجَدُّلِ[٣]
وَصَارَ مَا فِي جِلْدِهِ فِي المِرْجَلِ[٤]

لا أكتم ما في نفسي من شك في شأن ارتجال نص بهذا الامتداد والعمق، فإن كان حقّاً مرتجَلاً فالمتنبي شاعر خارق في رَوِيَّته وارتجاله.

إن ثبت ارتجال هذه المطوَّلة فما أحرانا بإعادة التصور حول الارتجال، وأنه ليس تَمَثُّل البيت والبيتين، بل إن من الارتجال ما يكون مطوَّلات يرتجلها الشاعر كتابة لا مشافهة، وأعرف من الشعراء من يصنع هذا الصنيع.. يمسك القلم، وينهمر عليه سانح الشعر وكأنما يُمْلَى عليه، ولا يتوقف إلا وقد ختم القصيدة أحسن ما يكون الختام، ولعل المتنبي ارتجل أرجوزته تلك بالطريقة نفسها.

---

(١) هَوْجَل: الأرض الفسيحة.

(٢) بُقْرَاط: طبيب يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. الفِصَاد: القَطْع والشَّقّ. الأَكْحَل: عِرْق في الذراع.

(٣) التَّجَدُّل: الوقوع على الأرض.

(٤) المِرْجَل: القِدْر من حَجَر أو نِحَاس، أو هو القِدْر وحَسْب.

وعلى غرار ما سبق هذه أرجوزة طردية أخرى أشك في ارتجالها أيضا؛ لطولها، ولدقة وصفها ورصفها، وقد جرت أحداثها في بعض الجبال، واعترضهم فيها غزال صغير سرعان ما انطلقت عليه كلابهم، يقول في وصف الجبل:(١)

وَشَـــامِخٍ مِـــنَ الجِبَـــالِ أَقْـــوَدِ(٢)
فَـــرْدٍ كَيَـــافُوخِ البَعـــيرِ الأَصْـــيَدِ(٣)
يُسَـــارُ مِـــنْ مَضِـــيْقِهِ وَالجَلْمَـــدِ(٤)
فِي مِثْـــلِ مَـــتْنِ المسَـــدِ المعَقَّـــدِ(٥)

وبعد أن وصف المكان ذكر سبب قدومهم إليه بصحبة الأمير ورجاله، ثم وصف كلاب الصيد وما جرى بينها وبين الغزال:(٦)

زُرناهُ لِلأَمـــــرِ الـــــذي لَم يُعْهَـــــدِ
لِلصَّـــــيْدِ وَالنُّزْهَـــــةِ وَالتَّمَـــــرُّدِ(٧)
بِكُـــلِّ مَســـقِيِّ الـــدِّماءِ أَســـوَدِ(٨)

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٣/٢.
(٢) أَقْوَد: مُمْتَدّ طُولا.
(٣) فَرْد: متفرّد وحدَه. اليَافُوخ: الرأس. الأَصْيَد: ممتدّ العُنُق شامخ الرأس.
(٤) الجَلْمَد: الصَّخْر.
(٥) المسَد: الحبل من الليف أو الشعر.
(٦) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٣/٢.
(٧) التَّمَرُّد: اللعب والبَطَر والخروج عن المألوف.
(٨) مسقي الدماء: يريد كلب الصيد الشرس الذي تعود شرب الدماء.

مُعـــــــاوِدٍ مُقَـــــــوَّدٍ مُقَلَّـــــــدِ[1]
بِكُـــــــلِّ نابٍ ذَرِبٍ مُحَـــــــدَّدِ[2]
علَـــى حِفـــافَيْ حَنَـــكٍ كَـــالمِبْرَدِ[3]
كَطالِـــــبِ الثَّـــأرِ وَإن لَم يَجِقِـــــدِ
يَقْتُـــلُ مـــا يَقتُلُـــهُ وَلا يَـــدي[4]
يَنْشُـــدُ مِـــن ذا الخِشْـــفِ مـــا لَم يَفْقِـــدِ[5]
فَثـــارَ مِـــن أَخضَـــرَ مُمْطُـــورٍ نَـــدي
كَأَنَّـــهُ بَـــدْءُ عِـــذَارِ الأَمْـــرَدِ[6]
فَلَـــمْ يَكَـــدْ إلاّ لِحَتْـــفٍ يَهتَـــدي
وَلَمْ يَقَـــعْ إلاّ عَلـــى بَطْـــنِ يَـــدِ
وَلَمْ يَـــدَعْ لِلشَّـــاعِرِ المجَـــوِّدِ
وَصـــفاً لَـــهُ عِنـــدَ الأَمـــيْرِ الأَمْجَـــدِ

بارعٌ هذا المتنبي حَقّاً في ارتجالياته إن كان مثل هذا الوصف بكل هذا التنوع والامتداد انهمر عليه ارتجالا.

---

(١) مُعَاوِد: أي يُعاوِد الصيد مرة بعد أخرى ولا يَتعب. مُقَوَّد: في رقبته مِقْوَد أي حبل يُقاد به إلى الصيد. مُقَلَّد: عليه قلادة.

(٢) ذَرِب: حادّ.

(٣) الحِفَافَان: الجانبان.

(٤) لا يَدي: أي لا يُؤَدِّي الدِّيَة لأولياء المقتول.

(٥) يَنْشُد: يَطْلُب. الخِشْف: ولد الظبي.

(٦) العِذَار: الخَدّ والعارض وجانب الوجه.

ودخل على أحد الأمراء وعنده شاعر ينشده أبياتاً في وصف بِرْكَة داره، فقال مرتجلا:(١)

لَـئِن كـانَ أَحسَـنَ في وَصْـفِها ... لَقَـد تَـرَكَ الحُسْـنَ في الوَصـفِ لَـكْ
لِأَنَّـكَ بَحـرٌ وَإِنَّ البِحـارَ ... لَتَـأنَفُ مِـن مَـدحِ هَـذي الـبِرَكْ
كَأَنَّـكَ سَـيْفُكَ؛ لا مـا مَلَكْـ ... ـتَ يَبْقَـى لَـدَيكَ، وَلا مـا مَلَـكْ(٢)
فَـأَكثَرُ مِـن جَرْيِهـا مـا وَهَبْـتَ ... وَأَكثَـرُ مِـن مائِهـا مـا سَـفَكْ
أَسَـأتَ وَأَحسَـنتَ عَـن قُـدرَةٍ ... وَدُرتَ عَلـى النـاسِ دَوْرَ الفَلَـكْ

وَصْف الأمير من خلال وَصْف البِرْكَة والمقارنة بينهما مما يزيد الموقف الارتجالي قَبُولاً ودهشة، وهذا مما يجيده المتنبي كثيرا، ويُحسِن اقتناصه.

ومن ارتجاليات المتنبي الوصفية قوله وقد طُلِبَ منه وصف دُمْيَة في هيئة جارية طويلة الشَّعر، وفي يدها ورد:(٣)

وَجارِيَـةٍ شَـعْرُها شَـطْرُها ... مُحَكَّمَـةٍ نافِـذٍ أَمْرُهـا
تَـدورُ وَفي كَفِّهـا طاقَـةٌ ... تَضَـمَّنَها مُكرَهـاً شِـبْرُها
فَـإِن أَسـكَرَتْنا فَفـي جَهلِهـا ... بِمـا فَعَلَتـهُ بِنـا عُـذْرُها

وقال في دُمْيَة أخرى في كفها ورد حقيقي عابق الرائحة:(٤)

---

(١) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ٢/ ١٠٣٢.

(٢) يريد أن يقول إن الممدوح لا يُبقي على ماله من شدة كرمه، وكأنه سيفُه الذي لا يُبقي على أعاديه.

(٣) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٣٩/٢.

(٤) السابق، ٢٥٦/١.

جارِيَـةٌ مـا لِجِسـمِها رُوحُ بِالقَلـبِ مِـن حُبِّهـا تَبـاريحُ
في كَفِّهـا طاقَـةٌ تُشـيرُ بِهـا لِكُـلِّ طيبٍ مِن طيبِها ريحُ
سَأَشرَبُ الكَأسَ عَن إشارَتِها وَدَمعُ عَيني في الخَدِّ مَسفوحُ

والطريف أن المتنبي الذي قَلَّ شعره الغزلي في وصف محاسن الحُور أكثَرَ من وصف هذه الدُّمَى، يقول أيضا:(١)

إنَّ الأَمـيرَ أَدامَ اللهُ دَولَتَـهُ لَفـاخِرٌ كُسِـيَتْ فَخـراً بِـهِ مُضَـرُ
في الشَّـرْبِ جارِيَـةٌ مِـن تَحتِهـا خَشَـبٌ مـا كـانَ والِـدَها جِـنٌّ وَلا بَشَـرُ(٢)
قامَـتْ عَلـى فَـرْدِ رِجـلٍ مِـن مَهابَتِـهِ وَلَـيسَ تَعقِـلُ مـا تَأتي وَمـا تَـذَرُ

وقال في دُمْيَة تدور وتتراقص كلما بَدَرَتْ من الأمير حركة:(٣)

مـا نَقَلَـتْ في مشـيئةٍ قَـدَماً وَلا اشـتَكَتْ مِـن دُوَارِهـا أَلَمـا
لَم أَرَ شَخصـاً مِـن قَبـلِ رُؤيَتِهـا يَفعَـلُ أَفعالَهـا وَمـا عَزَمـا
فَـلا تَلُمْهـا عَلـى تَوافُعِهـا أَطرَبَهـا أَن رَأَتـكَ مُبتَسِـما(٤)

وكان في مجلس الأمير دُمْيَة ذات غدائر مليحة الشكل كأنها حسناء حقيقية، فأمر الأمير بإبعادها من المجلس، فشق الأمر على المتنبي، فقال:(٥)

---

(١) السابق، ١٣٩/٢.

(٢) الشَّرْب: مجلس الشُّرْب فيه الشاربون.

(٣) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٩٢/٤.

(٤) تَوَافُعها: تَرَاقُصها.

(٥) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٣٥١/٢.

وَذاتِ غَـــدائِرٍ لا عَيـــبَ فيهـــا سِـوى أَن لَـيسَ تَصـلُحُ لِلعِنـاقِ
أَمَـــرتَ بِأَن تُشـــالَ فَفارَقَتنـــا وَمـــا أَلِمَـــتْ لِحادِثَـــةِ الفِـــراقِ
إذا هَجَـرَتْ فَعَـن غَـيرِ اختِيـارٍ وَإن زارَتْ فَعَـــن غَـــيرِ اشـــتِياقِ

ودخل أبو الطيّب مجلس الأمير، واستقبلوه بمُجَسَّم مصنوع من خيزران وفيه بطيخة من النَّدّ تتدلى عليها قلادة لؤلؤ، فطَلَبَ منه الأميرُ وصفها، فقال:(١)

وَبَنِيَّـــةٍ مِـــن خَيـــزُرانٍ ضُـــمِّنَتْ بَطّيخَـــةً نَبَتَـــتْ بِنـــارٍ في يَـــدِ(٢)
نَظَـــمَ الأَمـــيرُ لَهـــا قِـــلادَةَ لُؤلُـــؤٍ كَفِعالِـــهِ وَكَلامِـــهِ في المِشـــهَدِ
كَالكـــأسِ باشَـــرَها المِـــزاجُ فَـــأَبرَزَتْ زَبَـــداً يَـــدورُ عَلـــى شَـــرابٍ أَســـوَدِ

وحين شعر أن في وصفها بقية عاود الارتجال قائلا:(٣)

وَسَـــوْداءَ مَنظـــومٍ عَلَيهـــا لَآلِـــئٌ لَهـــا صـــورَةُ البِطّـــيخِ وَهـــيَ مِـــنَ النَّـــدِّ
كَـــأَنَّ بَقـــايا عَنـــبَرٍ فَـــوقَ رَأسِـــها طُلـوعُ رَواعـي الشَّـيبِ في الشَّـعَرِ الجَعْـدِ

ربما شق عليّ وعلى آخرين تَصَوُّر هيئة هذا المجسَّم كما يجب لخلوّ أذهاننا من صورته الحقيقية، غير أن صورة تقريبية تشكلتْ لدينا من استغراق المتنبي في ذِكر بعض التفاصيل وصفاً وتشبيها.

(١) السابق، ١٧/٢.
(٢) بَنِيّة: مَبْنِية، أي مُجَسَّم مَبْنِيّ.
(٣) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٨/٢.

وأدهشَتْه في مجلس الأمير مِجْمَرة فاخرة تتصاعد أدخنتها الزاكية بروائح النرجس والآس، فقال من فوره في وصفها والثناء على الأمير:[1]

أَحَبُّ امرِئٍ حَبَّتِ الأَنفُسُ ... وَأَطيَبُ ما شَمَّهُ مَعطِسُ
وَنَشرٌ مِنَ النَدِّ لَكِنَّما ... مَجامِرُهُ الآسُ وَالنَّرجِسُ
وَلَسنا نَرى لَهَباً هاجَهُ ... فَهَل هاجَهُ عِزُّكَ الأَقعَسُ[2]

هذه معظم ارتجاليات المتنبي الوصفية، وقد بدا لي أنه يهدف إلى إدهاش سامعيه بسرعة ارتجاله، وبدقة وصفه.

ومن الملحوظ أن وصفياته الارتجالية لم تخرج عن حَيِّز ممدوحيه من الأمراء والكبراء؛ فهو يصف ما يعجبه لديهم، أو ما يطلبون منه وصفه، ولذا انحصرت ارتجالياته على الطرديات التي صحب فيها ممدوحيه، وعلى ما تضمنته مجالسهم من تحف ودُمَى ونفائس.

* * *

(١) شرح شعر المتنبي، ابن الأفليلي، تحقيق: د. مصطفى عليان، ٤/ ٢٢٤.

(٢) الأَقْعَس: الأصيل القديم الثابت.

المبحث الثالث: الإخوانيات:

يُعَدّ الشعر الإخواني متنفَّس الشاعر، وميدان رياضته للقول، فهو فيه يتخفف من كثير من القيود التي يتوخاها في سائر شعره، وينحو به من العلو إلى ما دونه، ويخرج به من الوعر إلى السهل، وتجد فيه النفوس راحتها وأريحيتها.

ويظل الشعر الإخواني مضموناً تقليديّاً مرفوع الكُلْفة إلى حد ما، ويتجوّز فيه الشعراء كما لا يتجوزون في غيره، ويُمِرّ فيه المتلقي ما لا يُمِرُّ في سواه، ولذا كان الشعر الإخواني ولم يزل شعراً يتخفف فيه الشاعر من اشتراطات صارمة، ومما تخفف منه اشتراطات الجودة العالية التي تتطلبها المضامين الأخرى الأكثر جدية.(١)

إن طبيعة الشعر الإخواني جعلت للارتجال مساحة خاصة في الشعر بعامة، وفي شعر المتنبي بخاصة؛ فأكثر ما ارتجله داخل في الإخوانيات بمختلف مجالاتها، ولذا كانت مجالس السمر والمنادمة مواضع رئيسة لميلاد هذه الارتجاليات، وهي مجالس أمراء وأصحاب يغلب على عامريها التقارب الروحي والفكري، وتتلاشى بينهم الرسميات إلى حد كبير.

والمتنبي إذ يرتجل الشعر في هذه المواقف يستجيب لحوافز أهمها رغبته في إثبات براعته واقتداره أمام نفسه والآخرين، ورغبة أخرى في تَسَيُّد المكان الذي

(١) يُنظر: الإخوانيات في الشعر العباسي، محمد الملا، نادي المنطقة الشرقية الأدبي، الدمام، ط:١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، ص: ١٢.

يكون فيه، ولَفْت أنظار أهله، ولذلك بدا شعره الإخواني أكثر المضامين المرتجَلة حضوراً وتنوعا.

وتأتي مجالس الشرب في مقدمة الأماكن التي توالدت فيها ارتجالياته الإخوانية، ومعلوم أن المتنبي ليس من هواة الشرب، ولم يؤثر عنه تطلبه للشراب، غير أنه كان ينادم أهل الشرب، ويسمع منهم، ويسمعون منه، وقد يُصِرُّ عليه بعضهم بالمشاركة، فيشارك مشاركة المجامِل، ويشرب بحذر شديد، ويظل محافظاً على عقله وسَمْته.(١)

فهذا أحد أصحابه يمد إليه كأس شراب مقسماً عليه بالطلاق أن يشربها، فما كان من أبي الطيب إلا مجاملة صاحبه، فشرب من الكأس ما شرب، ثم قال:(٢)

وَأَخٍ لَنَا بَعَثَ الطَّلاقَ أَلِيَّةً ... لَأُعَلِّلَنَّ بِهَذِهِ الخُرْطُومِ(٣)

فَجَعَلْتُ رَدِّي عِرْسَهُ كَفَّارَةً ... عَنْ شُرْبِها وَشَرِبْتُ غَيْرَ أَثِيمِ

بيتان يحكيان ما حدث، ويعلل فيهما خطيئته؛ فقد شرب مضطرّاً ليسهم في الحفاظ على أسرة صاحبه من الشتات؛ خشية وقوع الطلاق لو هو امتنَع.

وفي مجلس آخر يقسم عليه أحد الأمراء بأن يَشرب، فيَبَرّ بقسم الأمير ويتجرع بعض الكأس، ثم يقول:(٤)

---

(١) يُنظر: أبو الطَّيِّب المتنبي وما له وما عليه، الثعالبي، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ص: ١٣.

(٢) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ١/ ٣١٥.

(٣) الأَلِيَّة: القَسَم. الخُرْطُوم: الخمر السريعة الإسكار.

(٤) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١١٨/٤.

حُيِّيتَ مِن قَسَمٍ وَأَفدي المقسِما ... أَمسى الأَنامُ لَهُ مُجِلّاً مُعْظِما
وَإذا طَلَبتُ رِضا الأَميرِ بِشُربِها ... وَأَخَذتُها فَلَقَد تَرَكتُ الأَحرَما

يلاطف الأمير بقبول دعوته، ومشاركته الشرب، وكيف أن البِرَّ بقَسَم الأمير في الشرب أوجب من الامتناع عنه، وإن كان شرب الخمر حراماً فجَعْل الأمير يَحنَث في قَسَمه أشد حُرمة.

وغالباً يمتنع المتنبي عن الشرب، ويَحْرِف مجرى الدعوة إلى الشرب إلى مجال آخر يحبه، وهو ميادين القتال، يقول وقد سأله أحد أصحابه الشرب:(١)

أَلَذُّ مِنَ المُدَامِ الخَنْدَريسِ ... وَأَحْلَى مِنْ مُعَاطَاةِ الكُؤوسِ(٢)
مُعَاطَاةُ الصَفائِحِ وَالعَوَالي ... وَإِقْحامِي خَمِيْساً في خَمِيسِ(٣)
فَمَوْتِي في الوَغَى أَرَبِي لأَنِّي ... رَأَيْتُ العَيْشَ في أَرَبِ النُّفُوسِ

وقال في مجلس آخر وقد عرضوا عليه الشرب:(٤)

لأَحِبَّتِي أَنْ يَمْلَؤوا ... بِالصَّافِيَاتِ الأَكْؤُبا
وَعَلَيْهِمُ أَنْ يَبْذُلوا ... وَعَلَيَّ أَن لا أَشْرَبا
حَتَّى تَكُوْنَ البَاتِرا ... تُ المِسْمِعَاتِ فَأَطْرَبا

(١) الفَسْر (شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي)، ابن جني، تحقيق: د. رضا رجب، ٢/ ٢٤٤.
(٢) الخَنْدَرِيس: من أسماء الخمر وأنواعها.
(٣) الصفائح: السيوف. العوالي: الرماح. الخميس: الجيش له خمس جهات، وهي: الميمنة، والميسرة، والأمام، والخلف، والوسط.
(٤) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ١/ ٣١٠.

يؤكد المتنبي مراراً أن طموحه فيما هو أعظم، وليس له في الشراب أرب، بل هو يتعلل بمنادمة الشاربين متوخيّاً لحظة قتال تُطرِبه، ويُثبِت فيها فروسيته.
وكان الأمير بدر بن عمّار يشرب ليلا، ثم يعلن التوبة النَّصُوح صباحا، لكنه سرعان ما يعود إلى سابق عهده، فقال أبو الطَّيِّب يمازحه:(١)

يا أَيُّهـا المِلـكُ الـذي نُـدَماؤُهُ ... شُـرَكاؤُهُ في مِلْكِـهِ لا مُلْكِـهِ
في كُـلِّ يَـومٍ بَينَنـا دَمُ كَرْمَـةٍ ... لَـكَ تَوبَـةٌ مِـن تَوبَـةٍ مِـن سَـفْكِهِ
وَالصِّـدقُ مِـن شِـيَمِ الكِـرامِ فَنَبِّنـا ... أَمِـنَ الشَّـرابِ تَتـوبُ أَم مِـن تَرْكِـهِ؟!

وفي مجلس سيف الدولة يُؤَذِّن المؤذن للصلاة، فيضع سيف الدولة كأسه من يده إجلالاً للأذان، فيُعجَب المتنبي بتصرف الأمير الذي تضمن إقراراً برجس الشراب، وهذا ما يعني المتنبي في المقام الأول، وكأنه وجد فرصة ليرفع عن نفسه الملام كلما امتنع عن مشاركتهم الشرب، فقال:(٢)

ألا أَذِّنْ فَمَـا أذكَـرتَ نَاسِـي ... وَلا لَيَّنْـتَ قَلْبـاً وَهْـوَ قَاسـي
وَلا شُـغِلَ الأمـيرُ عَـنِ المعَـالي ... وَلا عَـن حَـقِّ خالِقِـهِ بكَـاسِ

وطالما طَلَب المتنبي الانصراف مستأذِناً بأبيات شعر مرتجَلة إن خرج مجلس الشرب عن وقاره، يقول مستأذناً من الأمير:(٣)

نالَ الـذي نِلـتُ مِنـهُ مِـنّي ... للهِ مـا تَصـنَعُ الخُمـورُ

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٣٨٣/٢.
(٢) الفَسْر (شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي)، ابن جني، تحقيق: د. رضا رجب، ٢/ ٢٢٩.
(٣) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٣٨/٢.

وَذا انصِـــــرافي إلى مَحَلّـــــي أَآذِنٌ أَيُّهـــــا الأَمـــــيرُ

وفي مقطوعة أخرى يضج المتنبي من مآلات الشرب والشاربين وبينهم الأمير، فيرتجل أبياتاً يَعْرِض فيها ضجره من تغير أحوالهم، وكيف غدا الحليم وغدا، والحر من الملوك عبدا، ثم يطلب الإذن بالانصراف متداركاً ما بقي من حِلْمه:(١)

يا مَـــن رَأَيـــتُ الحَلـــيمَ وَغْـــدا بِـــهِ وَحُـــرَّ المُلـــوكِ عَبْـــدا
مـــالَ عَلَـــيَّ الشَـــرابُ جِـــدّاً وَأَنـــتَ بِالمِكرُمـــاتِ أَهـــدى
فَـــإِن تَفَضَّـــلْتَ بِانصِـــرافي عَدَدتُـــهُ مِـــن لَـــدُنْكَ رِفْـــدا

وللمتنبي إخوانيات مرتجَلة بعيدة عن الشرب وأجوائه؛ ففي أحد المجالس كان ينشد الحاضرين شيئاً من شعره، فلمح أحدَهم غاطّاً في سُبَاته، فاستفزه المشهد، فقال مخاطباً النائم البليد:(٢)

إِنَّ القَـــوَافِيَ لَمْ تُنِمْـــكَ وَإِنَّمَـــا مَحَقَتْـكَ حَـتَّى صِـرْتَ مـا لا يُوْجَـدُ
فَكَـأَنَّ أُذْنَـكَ فُـوكَ حِـيْنَ سَمِعْتَهـا وَكَأَنَّهَـــا مِمَّـــا سَـــكِرْتَ المرقِـــدُ

يُبَرِّئ المتنبي شعره من تهمة الإملال، ويرى أن سبب نوم ذلك الخامل إنما كان من شدة سُكْرِه بسماع شعره، ولذا شبه أذن النائم بالفم، فهو لما سمع الشعر سَكِر، ومن شدة سُكْره رَقَدَ مغلوباً على أمره كما يرقد الثَّمِل.

(١) السابق، ١٢/٢.

(٢) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ١/ ٣١٢.

وفي مجلس آخر يُعرَض على الأمير سيف صقيل، فيرتجل المتنبي بيتين ظريفين يثني فيهما على جودة السيف، ويستأذن الأمير في اختبار حَدّ السيف على أحد الجالسين، يقول:(١)

أَرَى مُرْهَفــاً مُــدْهِشَ الصَّــيْقَلِين وَبَابَــةَ كُــلِّ غُــلامٍ عَتــا(٢)
أَتَأْذَنُ لِي –وَلَــكَ السَّــابِقَات– أُجَرِّبُــهُ لَــكَ في ذا الفَــتَى؟

ويسأله سيف الدولة عن أي الفريقين أفضل: العرب أو الأكراد، فلا يجيب عن النثر بنثر، بل يقول مرتجِلا هذه الأبيات:(٣)

إن كُنــتَ عَــن خَــيرِ الأَنامِ ســائلا
فَخَــيرُهُمْ أَكثَــرُهُمْ فَضــائلا
مَــن أَنــتَ مِــنهُمْ يا هُمَــامَ وائــلا
الطــاعِنينَ في الــوَغَى أَوائــلا
وَالعــاذِلينَ في النَّــدَى العَــواذِلا
قَــد فَضَــلوا بِفَضــلِكَ القَبــائلا

(١) الموضِح في شرح شعر أبي الطَّيِّب المتنبي، التبريزي (توفي: ٥٠٢هـ)، تحقيق: د. خلف نعمان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط:١، ٢٠٠٠م، ١/ ١٦٩.

(٢) المُرْهَف: السيف رقيق الشفرتَين. مُدْهِشَ الصَّيْقَلين: أي يُحَيِّر صانعي السيوف من فَرْط جِدّته وجودته. البَابَة: الغاية، وأيضاً بابةُ الرجُل أي ما يَصْلُح له، أي أن هذا السيف يَصْلُح لتأديب من يستحق التأديب. عتا: تَمَرَّدَ.

(٣) الفَسْر (شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي)، ابن جني، تحقيق: د. رضا رجب، ٢/ ٨٣٤.

ويزور المتنبي أحد الأمراء في مجلسه المعتاد، فيؤخر الحاجب دخوله على غير العادة، وحين دخل على الأمير ارتجل الأبيات الآتية:(١)

أَصْبَحْتَ تَأْمُرُ بِالحِجَابِ لِخِلْوَةٍ ... هَيهاتَ لَستَ عَلى الحِجابِ بِقادِرِ
مَن كانَ ضَوءُ جَبينِهِ وَنَوالُهُ ... لَمْ يُحجَبَا لَم يَحتَجِبْ عَن ناظِرِ
فَإذا احتَجَبتَ فَأَنتَ غَيرُ مُحَجَّبٍ ... وَإذا بَطَنتَ فَأَنتَ عَينُ الظاهِرِ

كانت الأبيات عتاباً لطيفاً ممزوجاً بثناء، وكأن المتنبي استكثر انتظاره وتأخير الحاجب له، وهو بذلك يتطلع إلى معاملة خاصة تليق به، فطلبها من الأمير بطريقة فيها من الود والتباسط ما فيها.

وتدور عليهم مجمرة فيها طِيب فاخر، فيزهد فيها المتنبي ولا يأخذ نصيبه منها، ثم يقول مرتجِلاً أمام الأمير:(٢)

الطِّيبُ مِمّا غَنِيتُ عَنهُ ... كَفَى بِقُرْبِ الأَميرِ طِيبا
يَنِي بِهِ رَبُّنا المِعالي ... كَما بِكُمْ يَغفِرُ الذُّنوبا

يرى أن كل الطِّيب في القرب من الأمير، فما حاجته إلى المندل والمجمرة والأمير يُحْذِيه من عاطر طيوبه وشمائله؟!

وفي مجلس يُنشِد سيفُ الدولة بيتين لزياد بن معاوية (النابغة الذبياني)، فيبدو على المتنبي نوع من الإنكار، ثم يرتجل هذه الأبيات مُعَلِّلا:(٣)

---

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٣٧/٢.
(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٤٦/١.
(٣) شرح شعر المتنبي، ابن الأفليلي، تحقيق: د. مصطفى عليان، ٣/ ٤٤.

رَأَيتُـــكَ تُوسِـــعُ الشُّـــعَراءَ نَـــيْلاً ... حَـــــديثَهُمُ المُوَلَّـــــدَ وَالقَـــــديما
فَتُعطـي مَـن بَقَـى مـالاً جَسـيماً ... وَتُعطـي مَـن مَضَـى شَـرَفاً عَظيمـا
سَمِعتُـــكَ مُنشِـــداً بَيـــتَي زِيادٍ ... نَشـيداً مِثـلَ مُنشِـدِهِ كَريمـا[1]
فَمـــا أَنكَـــرتُ مَوضِـــعَهُ وَلَكِـــنْ ... غَبَطـتُ بِـذاكَ أَعظُمَـهُ الرَّميمـا

يُشعِر سيف الدولة بأنه غبط النابغة الذبياني على أن نال شرف إنشاد الأمير لبيتيه، وكأن المتنبي يود أن يحظى بهذا الشرف أيضا، وأن يدور شعره على لسان الأمير؛ فهو ليس أقل من النابغة.

وفي مجلس آخر يُنشِد سيف الدولة بيتا، ويطلب من الحاضرين إجازته، فيبادر المتنبي قائلا:[2]

فـدَيناكَ أَهْـدَى النَّـاسِ سَـهْماً إلى قَلـبي ... وَأقـــتَلَهُمْ للـــدَّارِعِينَ بِـــلا حَـــرْبِ
تَفَـــرَّدَ في الأحكـــامِ في أَهْلِـــهِ الهَـــوَى ... فأنـتَ جميـلُ الخُلْـفِ مُستَحْسَـنُ الكِـذْبِ
وَإنّي لمِمنُـــوعُ المقاتِـــلِ في الـــوَغَى ... وَإن كُنـــتُ مَبـــذولَ المقاتِـــلِ في الحُـــبِّ
وَمَـــن خُلِقَـــتْ عَينـــاكَ بَـــينَ جُفُونِـــهِ ... أصـــابَ الحَـــذُورَ السَّـــهْلَ في المُرْتَقَـــى الصَّـــعْبِ

(١) زياد: يريد الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني، واسمه زياد بن معاوية الذبياني، وكنيته أبو أُمَامَة.
يُنظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ١/ ١٥٦.

(٢) الموضِح في شرح شعر أبي الطَّيِّب المتنبي، التبريزي، تحقيق: د. خلف نعمان، ١/ ١٩٢.

وفي مجلس آخر يُعرَض على سيف الدولة سيف أنيق غير مُذَهَّب، فيأمر أن يُطْلَى بالذهب، فيقترح عليه المتنبي اقتراح الصديق على الصديق أن يُبقي السيف على حاله دون طلاء قائلا:[١]

أَحسَنُ ما يُخضَبُ الحَديدُ بِهِ ... وَخاضِبَيهِ النَجيعُ وَالغَضَبُ[٢]
فَلا تَشَيِّنْهُ بِالنُضَارِ فَما ... يَجتَمِعُ الماءُ فيهِ وَالذَّهَبُ[٣]

ومن غير إخوانيات مجالس الشرب والأمراء نطالع إخوانية دارت بينه وبين صاحب له صادفه في الطريق، فألقى عليه السلام فلم يجد من المتنبي ردّا، وحين عاتبه على إهمال الرد قال مرتجِلاً يعتذر إليه:[٤]

أنَا عاتِبٌ لِتَعَتُّبِكْ ... مُتَعَجِّبٌ لِتَعَجُّبِكْ
إذ كُنتُ حينَ لَقيتَني ... مُتَوَجِّعاً لتَغَيُّبِكْ
فَشُغِلْتُ عَنْ رَدِّ السَّلا ... مِ وكانَ شُغْلي عنكَ بِكْ

وجاءه رسول أحد الوجهاء بآنية فيها حلوى، ففرح بها، ونقل ما فيها إلى أوانيه، ثم شكر مُهديها بطريقة تليق بالشعراء، وكان شكرُه أبياتاً إخوانية مرتجَلة كتبها بالزعفران على قاع الآنية:[٥]

---

(١) الموضِح في شرح شعر أبي الطَّيِّب المتنبي، التبريزي، تحقيق: د. خلف نعمان، ١/ ٢٣٠.
(٢) النَّجِيع: الدم.
(٣) النُّضَار: الذهب. الماء: يريد لون السيف.
(٤) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ١/ ٢٤٣.
(٥) السابق، ١/ ١٧٧.

أَقصِـــرْ فَلَســـتَ بِزائِـــدي وُدّا ... بَلَـــغَ المِـــدَى وَتَجـــاوَزَ الحَـــدّا
أَرسَـــلتَها مَملـــوءَةً كَرَمـــاً ... فَرَدَدتُهـــا مَملـــوءَةً حَمْـــدا
جاءَتـــكَ تَطفَـــحُ وَهـــيَ فارِغَـــةٌ ... مَثْـــنىً بِـــهِ وَتَظُنُّهـــا فَـــرْدا
تَأبى خَلائِقُـــكَ الـــتي شَـــرُفَتْ ... أَلّا تَجِـــنَّ وَتَـــذكُرَ العَهْـــدا
لَـــو كُنـــتَ عَصْـــراً مُنْبِتـــاً زَهَـــراً ... كُنـــتَ الرَّبِيـــعَ وَكانَـــتِ الـــوَرْدا

إخوانية ارتجالية فاخرة تضمنت الشكر، والمدح، والوفاء، وجاءت بلغة قريبة، ولم ألحظ فيها وعثاء تَصَنُّع ولا عَجَلة.

وفي طريقه مر برجلين يعرفهما قتلا جُرَذا، ثم أبرزاه في العراء يُرِيَان الناس كِبَرَه، وكان عليهما أثر خُيَلاء وزهو، فقال مرتجِلا:(١)

لَقَـــدْ أَصْـــبَحَ الجُـــرَذُ المســـتَغِيرُ ... أَسِـــيرَ المَنـــايا صَـــرِيعَ العَطَـــبْ(٢)
رَمَـــاهُ الكِنـــانِيُّ وَالعَـــامِرِيُّ ... وَتَـــلّاهُ لِلوَجْـــهِ فِعْـــلَ العَـــرَبْ
كِـــلَا الـــرَّجُلَيْنِ اتَّلَـــى قَتْلَـــهُ ... فَأَيُّكُمـــا غَـــلَّ حُـــرَّ السَّـــلَبْ(٣)
وَأَيُّكُمَـــا كـــانَ مِـــن خَلْفِـــهِ ... فَـــإِنَّ بِـــهِ عَضَّـــةً في الـــذَّنَبْ

يجيد المتنبي السخرية كثيرا، ولا تكاد تخلو منها تأملاته الجادة وهو يسخر من الحياة وتقلباتها، فكيف إذا تناول موضوعاً فيه من الفكاهة ما فيه.

(١) السابق، ١/ ١١٨.

(٢) المستَغِير: طالب الغارة. العَطَب: الهلاك.

(٣) اتَّلَى: تَوَلَّى. غَلَّ الشيء: أخذه خيانةً. السَّلَب: متاع المسلوب.

وفي طريق سفر رأى بعض غلمانه نعاماً فظنوه نخيلا، ثم رأوا قطيع أبقار فظنوه مَنارا، فقال مرتجِلا:[١]

بُسَـيْطَةُ مَهْـلاً سُـقِيتِ القِطَـارا ... تَرَكْـتِ عُيُـونَ عَبِيـدي حَيَـارَى[٢]
فَظَنُّـوا النَّعَـامَ عَلَيْـكِ النّخِيـلَ ... وَظَنُّـوا الصِّـوَارَ عَلَيْـكِ المَنَـارا[٣]
فَأَمْسَـكَ صَـحْبِي بِأَكْـوَارِهِمْ ... وَقد قَصَدَ الضِّحْكُ فِيهِمْ وَجارا[٤]

وعلى هذا نحوه جاءت إخوانيات المتنبي المرتجَلة التي غلبت عليها تلقائيته وطبيعته، فهو يكره الشرب، ويحب الفخر، ويجيد التودد إلى الكبار، ولا يمتهن نفسه، ويحرص على أن يحفظ الود للجميع.

ومن الملحوظ أيضاً أن إخوانياته خلت من حس الفكاهة العالي الذي تزخر به كثير من إخوانيات الشعراء، وهذا يناسب طبيعة المتنبي الجادة؛ إذ إن الإغراق في الفكاهة من مُذْهِبات الوقار، والمتنبي حريص كل الحرص على هذا الجانب.

* * *

(١) الموضِح في شرح شعر أبي الطَّيِّب المتنبي، التبريزي، تحقيق: د. خلف نعمان، ٣/ ٨٩.

(٢) بُسَيْطَة: موضع قرب الكوفة. القِطَار: المطر.

(٣) الصِّوَار: القطيع من البقر.

(٤) الأَكْوَار: جمع كُور، وهو الرحل يوضع على الدابّة. قَصَدَ الضحكُ وجار: أي اقتَصَدَ وقَلّ حِينا، وطغى وتمادى حِينا.

المبحث الرابع: موضوعات أخرى:

ما مضى شمل أضخم الموضوعات التي تناولها المتنبي في شعره الارتجالي، وتبقى موضوعات قليلة الحضور يحسن الالتفات إليها أسوة بغيرها استيفاءً واستجلاءً، وهي موضوعات جليلة، لكنها ضعيفة الحافز ارتجاليا.

ويبدو شعر الشكوى موضوعاً من الموضوعات قليلة الحضور في ارتجالياته، وربما لأنه المعني الأول بهذه النفثة، فما من حافز يدعوه للارتجال ما دام في وسعه النظم بتُؤَدَة.

وكل شكاواه كانت وداعية، ومن ذلك قوله في صباه وقد تذكر إلْفاً أحبه، غير أن الأيام باعدت بينهما، ثم شاء الله أن يلتقيا بعد عام من الغياب، وكان هذا اللقاء لقاءً أخيراً لا اجتماع بعده، يقول:(١)

بِأَبي مَـــن وَدِدتُـــهُ فَافْتَرَقْنَـــا ... وَقَضَـــى اللهُ بَعـــدَ ذاكَ اجْتِماعـــا

فَافْتَرَقنـــا حَـــوْلاً فَلَمّـــا الْتَقَينـــا ... كـــانَ تَســـليمُهُ عَلَـــيَّ وَداعـــا

لا تَذْكر المصادر تفاصيل هذا الوداع، ولا على من ألقى ارتجاليته بما أن الشعر الارتجالي منبري الطابع، غير أن من المؤكد أن حنيناً عارماً اجتاح قلبه، فقال ما قال في جمع من الناس، أو في خاصة منهم، أو حتى بينه وبين نفسه ثم دوّنه لاحقا.

(١) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ١/ ٨٩.

وله ارتجالية وداعية يشكو فيها من صروف الأيام بشيء من الاستسلام، ولا سيما أنه اعتاد آلام الوداع لكثرة ما مر به من مواقف، يقول:(١)

أَمّـا الفِـراقُ فَإِنَّـهُ مـا أَعهَـدُ ... هُـوَ تَـوأَمي لَـو أَنَّ بَينـاً يولَـدُ
وَلَقَـد عَلِمنـا أَنَّنـا سَـنُطيعُهُ ... لَمّـا عَلِمنـا أَنَّنـا لا نَخلِـدُ
مَـن خَـصَّ بِالـذَّمِّ الفِـراقَ فَـإِنَّني ... مَـن لا يَـرى في الـدَّهرِ شَـيئاً يُحمَـدُ

يرى أن بينه وبين الفراق علاقة وطيدة، وكأنه أخوه التوأم لا يفارقه، ثم يبدي شيئاً من تسليم الضعف في البيت الثاني مقراً بأن الفراق حتمية الحياة؛ فلا فرار ولا منجى، ويجيء البيت الثالث كاشفاً عن سخط الشاعر على الحياة كلها لا الفراق فقط، ويقر أن حظه ليس كما يجب، فالفراق له بالمرصاد، وكذلك رزايا الحياة الأخرى.

وفي موقف ثالث يفجعه موقف وداع أمير له عليه كبير إحسان، فيقول مرتجِلاً وموكب الأمير يتلاشى أمامه شيئاً فشيئا:(٢)

مـاذا الـوَداعُ وَداعُ الوامِـقِ الكَمِـدِ ... هَـذا الـوَداعُ وَداعَ الـروحِ لِلجَسَـدِ(٣)
إذا السَّـحابُ زَفَتْـهُ الـريحُ مُرتَفِعـاً ... فَـلا عَـدا الرَّملَـةَ البَيضـاءَ مِـن بَلَـدِ(٤)
وَيا فِـراقَ الأَمـيرِ الرَّحـبِ مَنْزِلُـهُ ... إن أَنـتَ فارَقْتَنـا يَومـاً فَـلا تَعُـدِ

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٨٤/١.
(٢) السابق، ١٦/٢.
(٣) الوامق: المحِبّ. الكَمِد: المهموم.
(٤) زَفَتْه الريح: أي حَرَّكَتْه وسَاقَتْه. الرملة البيضاء: من بلاد الشام، وهي موطن الممدوح.

تبدو هذه الارتجالية الوداعية ردة فعل على فعل الغياب بعد أن بدأت الرحلة، وغاب الأمير، وكأن المتنبي ينظر من بعد إلى الموكب المغادر، ولذا خاطب الأميرَ خطاب الغائب «وَيا فِراقَ الأَميرِ الرَّحبِ مَنْزِلُهُ» يعنيه أن يقول ما في نفسه لا أن يسمعه الأمير، وإن صَحَّتْ هذه القراءة فالمتنبي شاعر مرهف الحس، عالي الإنسانية، أَلُوف شَغُوف كما قال عن نفسه:(١)

خُلِقْتُ أَلُوفاً لَوْ رَحَلْتُ إلى الصِّبَا ... لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجَعَ القَلْبِ باكِيا

ومن ارتجالياته مرثية طلبها منه أهل الميّت، فارتجل أمامهم قصيدة من ثلاثة عشر بيتاً تختلف عن المألوف من مراثيه؛ إذ خلت من التأمل، ومن التفجع، ومن فرائد التصوير، وغلب عليها سرد جامد تضمن محاسن الميت، ومواساة أهله، يقول:(٢)

غَاضَتْ أَنَامِلُهُ وَهُنَّ بُحُورُ ... وَخَبَتْ مَكايِدُهُ وَهُنَّ سَعيرُ
يُبْكَى عَلَيهِ وَما اسْتَقَرَّ قَرَارُهُ ... في اللَّحْدِ حَتَّى صَافَحَتْهُ الحُورُ
صَبْراً بَنِي إسْحَاقَ عَنْهُ تَكَرُّماً ... إنَّ العَظِيْمَ عَلَى العَظِيْمِ صَبُورُ
فَلِكُلِّ مَفْجُوْعٍ سِوَاكُمْ مُشْبِهٌ ... وَلِكُلِّ مَفْقُوْدٍ سِوَاهُ نَظِيرُ
أَيَّامَ قَائِمُ سَيْفِهِ في كَفِّهِ الـ ... ـيُمْنَى وَبَاعُ المَوْتِ عَنْهُ قَصِيرُ
وَلَطَالَما اغْمَلَتْ بِمَاءٍ أَحْمَرٍ ... في شَفْرَتَيْهِ جَمَاجِمٌ وَنُحُورُ
فَأُعِيْذُ إخْوَتَهُ بِرَبِّ مُحَمَّدٍ ... أَن يَحْزَنُوا وَمُحَمَّدٌ مَسْرُورُ
أَوْ يَرْغَبُوا بِقُصُوْرِهِمْ عَنْ حُفْرَةٍ ... حَيَّاهُ فيها مُنْكَرٌ وَنَكِيرُ

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٨٤/٤.
(٢) العَرْف الطَّيِّب في شرح ديوان أبي الطَّيِّب، تحقيق: ناصيف اليازجي، ص: ٦٧.

نَفَـرٌ إذا غَابَـتْ غُمُـوْدُ سُـيُوْفِهِمْ ... عَنْهـا فَآجَـالُ العِبَـادِ حُضُـورُ
وَإذا لَقُـوا جَيْشـاً تَـيَقَّنَ أَنَّـهُ ... مِـنْ بَطْـنِ طَـيْرٍ تَنُوفَـةٍ مَحْشُـورُ[1]
لَمْ تُـثْنَ فِي طَلَـبٍ أَعِنَّـةُ خَـيْلِهِمْ ... إلاَّ وَعُمْـرُ طَرِيْـدِها مَبْتُـورُ
يَمَّمْـتُ شَاسِـعَ دَارِهِـمْ عَـنْ نِيَّـةٍ ... إنَّ المحِـبَّ عَلَـى البِعَـادِ يَـزُورُ
وَقَنِعْـتُ بِاللُّقْيَـا وَأَوَّلِ نَظْـرَةٍ ... إنَّ القَلِيْـلَ مِـنَ الحَبِيْـبِ كَثِـيرُ

مرثية جيدة، غير أن مراثيه الأخرى التي قالها بعد رَوِيّة أجود معنى ومبنى، كرثائه أخت سيف الدولة، ورثائه والدته، وهما قصيدتان بذل فيهما من تحفزه الفني ما يؤهله لمنافسة صفوف الشعراء الذين توافدوا على سيف الدولة مُعَزّين مُوَاسِين.

ويبدو أن بعض أهل الميت استرابوا في المتنبي، وظنوا أن المرثية معدة سلفا، أو من قديم مراثيه التي غير فيها اسم الميت كما يفعل بعض الشعراء في مراثيهم ومدائحهم التي يقولونها بوازع ضعيف، لذلك طلبوا منه أن يزيدهم تعزية وتسلية، وأن يسمعهم شعراً ينفي شماتة الأعداء عنهم في مصابهم في الفقيد، فما تردد المتنبي، وارتجل فيهم قصيدة على منوال سابقتها وزنا وقافية، وجاءت في سبعة أبيات، قال فيها:[2]

أَلِآلِ إبْـــرَاهِيمَ بَعْـــدَ مُحَمَّـــدٍ ... إلاَّ حَنِـــينٌ دَائِـــمٌ وَزَفِـــيرُ؟!
مَـا شَـكَّ خَـابِرُ أَمْـرِهِمْ مِـنْ بَعْـدِهِ ... أَنَّ العَـــزَاءَ عَلَـــيْهِمُ مَحْظُـــورُ
تُـدْمِي خُـدُوْدَهُمُ الـدُّمُوْعُ، وَتَنْقَضِـي ... سَـــاعَاتُ لَـــيْلِهِمُ وَهُـــنَّ دُهُـــورُ

(١) التَّنُوفَة: الصحراء.

(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَرِي، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٣٥/٢.

أَبْنَـاءُ عَـمِّ.. كُـلُّ ذَنْـبٍ لامْـرِئٍ ... إلاَّ السِّـعَايَةَ بَيْـنَهُمْ مَغْفُـورُ[1]
طَـارَ الوُشَـاةُ عَلَـى صَـفَاءِ وِدَادِهِـمْ ... وَكَـذَا الـذُّبَابُ عَلَـى الطَّعَـامِ يَطِـيرُ
وَلَقَـدْ مَنَحْـتُ أَبَا الحُسَـيْنِ مَـوَدَّةً ... جُـوْدِي بِهَـا لِعَـدُوِّهِ تَبْـذِيرُ
مَلِـكٌ تَصَـوَّرَ كَيْـفَ شَـاءَ كَأَنَّمَـا ... يَجْـرِي بِفَصْـلِ قَضَـائِهِ المَقْـدُورُ

وللمتنبي في الفخر مقطوعات ارتجالية يتطلبها الموقف؛ فقد استراب في قدرته الارتجالية أحد الحاضرين، فقال:[2]

أَتُنكِـرُ مـا نَطَقـتُ بِـهِ بَـديهاً ... وَلَـيسَ بِمُنكَـرٍ سَـبْقُ الجَـوادِ
أُراكِـضُ مُعْوِصـاتِ الشِّـعرِ قَسْـراً ... فَأَقتُلُهـا وَغَـيري في الطِّـرادِ[3]

يحامي عن نفسه بالمنطق، فهو الجواد الأصيل الذي لا يُستنكَر منه كَسْب السبق، أما الشعراء الآخرون فهم كسائر الجياد فيها الرديء والأقل رداءة والمقبول، ولا يكون منها إلا الجري والطرد، أما السبق فله وحده.

وكان في مجلس شرب، فدَعَوه إلى مشاركتهم، غير أنه آثَرَ الامتناع، وعَلَّلَ لامتناعه بعلو همته التي شغلته بعظائم الأمور التي يُبنَى بها المجد، يقول:[4]

مـا أَنا وَالخَمـرُ وَبِطِّيخَـةٌ ... سَـوداءُ في قِشـرٍ مِـنَ الخَيـزُرانْ
يَشـغَلُني عَنهـا وَعَـن غَيرِهـا ... تَـوطينِيَ الـنَّفسَ لِيَـومِ الطِّعـانْ

(١) السِّعَايَة: النميمة.

(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٨/٢.

(٣) المعْوِصَات: الصَّعْبَات. الطِّرَاد: الكَرّ والفَرّ.

(٤) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٣٢/٤.

وَكُـــلُّ نَجـــلاءَ لَهَـــا صـــائِكٌ يَخضُـبُ مـا بَـينَ يَـدي وَالسِّـنانْ[1]

واللافت للنظر أن المتنبي شاعر الحكمة خلت ارتجالياته منها إلا في مقطوعة يتيمة، ولعل هذه الندرة تؤكد أن شعر الحكمة شعر تأملي لا يتخلق في رحم الارتجال، بل يحتاج إلى إمعان نظر، واستجماع إدراك، حتى تكون الحكمة قادرة على النفاذ والسيرورة.

حتى مقطوعته اليتيمة في الحكمة جاءت باهتة نوعا ما، وليس فيها معنى عميق يؤهلها للتداول، أو يلفت نظر متلقيها ليتلقف منها شيئا جديدا، يقول:[2]

لا تَلـــومَنَّ اليَهـــودِيَّ عَلـــى أَن يَـرى الشَّـمسَ فَـلا يُنكِرُهـا
إِنَّمـــا اللَّـــومُ عَلـــى حاسِـــبِها ظُلْمَـةً مِـن بَعـدِ مـا يُبصِـرُها

ثمة من ينكر الشمس عناداً وجحودا، وهذا متوقع من أهل العناد والجحود، غير أن الخارج عن حد التوقع أن يراها الرائي، ويرى فيها مصدر إظلام!

معنى باهت غير مُثْرٍ ولا مثير، وكأنه من أحاديث العامة رؤية وبنية، ولعل سبب هذا أن شعر الحكمة يتطلب مزيد أناة وتفكر، ومع تمكن المتنبي من الحكمة في سائر شعره خاب فيها مسعاه حين ارتجَلَها.

(١) نجلاء: يعني الطعنة الواسعة يَطعَنها عدوَّه في الحرب. صائك: لازق لاصق. السِّنَان: رأس الرمح.

(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٤٥/٢.

وقد لحظ طه حسين (توفي: ١٣٩٣هـ) أن في بعض ارتجاليات المتنبي شيئاً من السخف، وعَلَّل لذلك بأن الشعر المرتجَل «لا يتهيأ الشاعر له، ولا يُعنَى به، وهو من هذه الجهة يُصَوِّر طبع الشاعر كما هو دون أن يُعمِل فيه الاحتفال لقول الشعر، والتهيؤ لنظم القصيد».[١]

ومع تعدد الموضوعات التي تناولها في ارتجالياته لم يكن للغزل فيها حضور يذكر، وهذا يؤكد ما عُرِفَ عن المتنبي من كونه مفتوناً بالعلياء لا النساء.

تلك هي موضوعات شعر المتنبي الارتجالية، وقد بدا أنه نظم في أبرز مساراتها التقليدية من مديح ووصف وإخوانيات وشكوى وفخر وحكمة، وأجاد في معظمها إجادة تُحمَد في الشعر المرتجَل، ويؤخذ منها ويُرَدّ في موازين الشعر العالي.

* * *

(١) مع المتنبي، طه، حسين، نشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط:١، ٢٠١٣م، ص: ٢٢٠.

الفصل الثاني: تشكلات شعر الارتجال:

المبحث الأول: توالد البنية:

يتأنق الشعراء المجيدون في بناء نصوصهم، ويتأنَّوْن في سبكها وتهذيبها حتى لحظة إشهارها، ويدرك النقاد جيداً أن هناك تفاوتاً ملحوظاً بين الشعراء في هذا الجانب؛[١] فمن شاعر يَعتمد ما تَرمي به قريحته كيفما اتفق، إلى شاعر يُلقي عليها بعض النظرات إصلاحاً وتهذيبا، إلى شاعر يُحَكِّك قصيدته حولاً قبل أن يَعترف بها.

ونحن مع هذه المدَوَّنة المدروسة أمام بنية نصية نادرة الحدوث؛ إذ إن الشعر المرتجَل محدود، والشعراء المرتجِلون يُعَدُّون على الأصابع، والدراسات التي تعمقت في دراسة هذا النوع من الشعر قليلة.

ولأن الشعر المرتجَل ومضة قصيرة تعكس حالة انفعالية مُلِحّة فإن أهم سماته البنائية تَخَفُّفُه من أكثر القيود التي يراعيها الشاعر في نصوصه غير المرتجَلة.[٢]

وأول مظاهر التخفف في الشعر المرتجَل لدى المتنبي إهمال المقدمات التمهيدية التي يفضلها الشعراء الأوائل في معظم شعرهم، وأستثني أرجوزتين[٣] أُولاهما

---

(١) يُنظر: بناء القصيدة في النقد العربي القديم، د. يوسف بكار، دار الأندلس، بيروت، ط:٢، ١٩٨٢م، ص: ١٠.

(٢) يُنظر: ارتجال الشعر وإجازته، أسعد خليل داغر، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، عدد: رمضان ١٣٥١هـ- كانون الثاني ١٩٣٣م، المجلد: ١٣، ١/ ٤.

(٣) الأرجوزتان في ديوانه: ٣/ ٢٠١ ، ٢/ ١٣ ، وقد مَرّتَا في مبحث شعر الوصف، ومطلع الأرجوزة الأولى:

وَمَنْزِلٍ لَيْسَ لَنا بِمَنْزِلِ

ومطلع الأرجوزة الثانية:

وَشَامِخٍ مِنَ الجِبالِ أَقْوَدِ

من ستة وخمسين بيتاً، والثانية من أربعة وعشرين بيتا، وأُقِرُّ أن شكّاً ينتابني في أمر ارتجالهما؛ لفرط طولهما بين مجموع ارتجالياته القصيرة، ولدقة ما تضمنتاه من صور تحتاج إلى تأمل، وإعمال فكر.

والأرجوزة الأولى قالها في وصف كلب صيد وطريقة انقضاضه على ظبي، وقد ابتدأها بمقدمة تضمنت الحديث عن المكان وطبيعته، وبعد هذه التوطئة الوصفية للمكان ينتقل إلى موضوعه الرئيس واصفاً كلب الصيد، وأفانين مناورته للظبي، حتى لحظة تمكنه منه.

وجاءت الأرجوزة الثانية قريبة من هذا النحو؛ إذ كان تمهيدها وصفاً للجبل الذي قصدوه للصيد فيه، ثم وصفاً للمناورة التي درات بين كلب الصيد والظبي.

وإن سَلَّمْنا بارتجال المتنبي للأرجوزتين فلن يفوتنا أن بنية الرجز سمحة سهلة سريعة التدفق، «حتى سماه المتأخرون حمار الشعر»؛[1] لهوان بنيته وإيقاعه بين أضرابه من البحور الشعرية، ولقدرة الشعراء وأشباههم على رياضة القول فيه، ولذلك جاءت معظم قصائد النظم عليه.

وجاءت ارتجالياته الأخرى بلا تمهيد، وعالج من خلالها فكرته المطروحة مباشرة، وهذا بالشعر المرتجَل أَخْلَق؛ إذ إن مَداه محدود لا يكاد يتسع إلا للغرض الذي ارتُجِلَ الشعر من أجله.[2]

---

(١) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط:١، ١٩٩٧م، ٢/ ٢٢.

(٢) يُنظر: ارتجال الشعر وإجازته، أسعد خليل داغر، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، عدد: رمضان ١٣٥١هـ- كانون الثاني ١٩٣٣م، المجلد: ١٣، ١/ ٢.

وما مر من نصوص واف كاف يؤكد ولوج المتنبي إلى غرضه مباشرة دون مقدمات، ومعظمها على منوال قوله:(١)

أَبا سَعِيْدٍ جَنِّبِ العِتَابا
فَرُبَّ رَأْيٍ أَخْطَأَ الصَّوَابا
فَإِنَّهُمْ قَدْ أَكْثَرُوا الحُجَّابا
وَاسْتَوْقَفُوا لِرَدِّنا البَوَّابا
وَإِنَّ حَدَّ الصَّارِمِ القِرْضَابا(٢)
وَالذَّابِلاتِ السُمْرَ وَالعِرَابا(٣)
تَرْفَعُ فيما بَيْنَنا الحِجَابا

وكان صاحبه (أبو سعيد) عاتبه على ترك زيارة الملوك، فارتجل هذه المقطوعة ردّاً عليه، وابتدأ بمخاطبته مباشرة ذاكراً سبب امتناعه.

كما غلب على ارتجالياته البالغة عددها مئة نص قِصَرُها، وأقلها بيتان، وأطولها الأراجيز، واستأثرت المقطوعات المؤلفة من بيتين وثلاثة على قرابة ثلثي ارتجالياته، وشيئاً فشيئاً يقل عدد النصوص كلما زاد عدد أبياتها كما في الجدول الآتي:

عدد أبيات النص المرتجَل	عدد النصوص المرتجَلة	النسبة المئوية	مجموع الأبيات

(١) العَرْف الطَّيِّب في شرح ديوان أبي الطَّيِّب، تحقيق: ناصيف اليازجي، ص: ٣٣.
(٢) القِرْضَاب: القاطع.
(٣) الذابلات: الرماح. العِرَاب: الخيل العربية الأصيلة.

١	بيتان	٣٦	٪٣٦	٧٢
٢	ثلاثة أبيات	٣٢	٪٣٢	٩٦
٣	أربعة أبيات	١٤	٪١٤	٥٦
٤	خمسة أبيات	٥	٪٥	٢٥
٥	ستة أبيات	٥	٪٥	٣٠
٦	سبعة أبيات	٢	٪٢	١٤
٧	تسعة أبيات	١	٪١	٩
٨	أحد عشر بيتا	١	٪١	١١
٩	ثلاثة عشر بيتا	١	٪١	١٣
١٠	أربعة وعشرون بيتا (أرجوزة)	١	٪١	٢٤
١١	ستة وعشرون بيتا (أرجوزة)	١	٪١	٢٦
١٢	ستة وخمسون بيتا (أرجوزة)	١	٪١	٥٦
	المجموع	١٠٠	٪١٠٠	٤٣٢ بيتاً

نسبة عدد النصوص المرتجلة (١٠٠) من مجموع النصوص الكُلّيّ (٣٢٣) :

٪٣٠,٩

نسبة عدد الأبيات المرتجلة (٤٣٢) من مجموع الأبيات الكُلّيّ (٥٥٧٨) :

٪٧,٧

إذا استثنينا الأراجيز بدت النسبة معقولة مقبولة، وأهل الشعر قديماً وحديثاً كان مَدَاهم قصيراً في الارتجال إلا في حالات نادرة.(١)

(١) يُنظر: قضايا الشعر المعاصر، أحمد زكي أبو شادي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤م، ص: ٢٧.

وقد راعى المتنبي في نصوصه الارتجالية وحدة الموضوع، وهي مراعاة حتمية تتطلبها محدودية النص الذي لا يكاد يتسع إلا لغرضه الرئيس، أما أراجيزه الطردية فاشتملت على موضوعات متقاربة؛ فهي تتضمن وصفا للمكان، ووصفاً لعملية الصيد، ومديحاً لصاحب الصيد، وهذا كله منسجم داخل في وحدة الشعور.

أما الوحدة العضوية التي تتطلب تماسك النص بيتاً بيتاً بحيث يطلب البيت أخاه ولا يستغني عنه فقد حضرت في بعض نصوصه، ومن ذلك قوله:(١)

يُقــاتِلُني عَلَيــكَ اللَيــلُ جِــدّاً ... وَمُنصَــرَفي لَــهُ أَمضــى السِّــلاحِ
لأَنّي كُلَّمــا فارَقــتُ طَــرفي ... بَعيــدٌ بَــينَ جَفــني وَالصَّــباحِ

بيتان مترابطان يتطلب الثاني منهما الأول لكونه تعليلاً له.

وقد يأتي الترابط العضوي بأدوات الربط، كقوله:(٢)

لَقِيــتَ العُفــاةَ بِآمالِهــا ... وَزُرتَ العُــداةَ بِآجالِهــا(٣)
وَأَقبَلَــتِ الــرومُ تَمشــي إِلَيْــ ... ــكَ بَــينَ اللُّيــوثِ وَأَشــبالِها
إِذا رَأَتِ الأُسْــدَ مَســبِيَّةً ... فَــأَينَ تَفِــرُّ بِأَطفالِهــا

البيت الثاني معطوف على الأول عطف سرد وشرح، والبيت الثالث لقطة تصويرية للمشهد الوارد في البيت الثاني.

---

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٥٧/١.

(٢) شرح شعر المتنبي، ابن الأفليلي، تحقيق: د. مصطفى عليان، ٢/ ٩٥.

(٣) العُفَاة: طالبو الإحسان.

وقد ضَعُفَ أثر الوحدة العضوية في عدة نصوص، ومن ذلك قوله:[١]

وَصَـفتَ لَنـا وَلَم نَـرَهُ سِـلاحاً ... كَأَنَّـكَ واصِـفٌ وَقـتَ النِّـزالِ
وَأَنَّ البَـيْضَ صُـفَّ عَلـى دُروعٍ ... فَشَـوَّقَ مَـن رَآهُ إلى القِتـالِ[٢]
فَلَـو أَطفَـأتَ نارَكَ تا لَدَيْـهِ ... قَـرَأتَ الخَـطَّ في سـودِ اللَّيـالي[٣]
إنِ استَحسَـنتَ وَهْـوَ عَلـى بِساطٍ ... فَأَحسَـنُ مـا يَكـونُ عَلـى الرِّجـالِ
وَإنَّ بِهـا وَإنَّ بِـهِ لَنَقصـاً ... وَأَنـتَ لَهـا النِّهايَـةُ في الكَمـالِ
وَلَـو لَحَـظَ الدُّمُسـتُقُ جانِبَيـهِ ... لَقَلَّـبَ رَأيَـهُ حـالاً لِحـالِ[٤]

ليس بالمتعذر إعادة ترتيب الأبيات، ولا حذف بعضها، وليس هذا بالمعيب، فأكثر الشعر العربي القديم لا تبدو الوحدة العضوية فيه صارمة الحضور إلا في الشعر القصصي،[٥] والغالب على النصوص التقليدية مراعاة وحدة البيت فحسب، وقد يستعيض الشاعر عن الوحدة العضوية بوحدة الشعور والمعنى، وهي وحدة تجعل النص يبدو منسجم الأجزاء غير متنافر.[٦]

---

(١) شرح شعر المتنبي، ابن الأفليلي، تحقيق: د. مصطفى عليان، ٢/ ١١١.

(٢) البَيْض: الخُوذَة التي توضع على الرأس لتحميه في الحرب.

(٣) تا: هذه، أي لو أطفأت نارك هذه لدى السلاح اللامع لأغناك لمعانه عن ضوء النيران والمصابيح، ولاستطعتَ القراءة في الظلام بكل يسر ووضوح.

(٤) الدُّمُسْتُق: مُقَدَّم الفِرِنْجَة.

(٥) يُنظر: النقد والنقاد المعاصرون، د. محمد مندور، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص: ١١٣.

(٦) يُنظر: دراسات بلاغية، ونقدية، د. أحمد مطلوب، دار الحرية، بغداد، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م، ص: ٥٥٧.

وتأتي خاتمة النص الارتجالي في معظم أحوالها مفتوحة غير دالة على انتهاء صارم، ولا تتضمن ما تتضمنه الخواتيم الدارجة المشْعِرَة بالتوقف، كالختام الآليّ الدال على النهاية بدعاء ونحو ذلك، أو الختام الخلاصة الذي يلخص فكرة النص لينغلق عليه، أو الختام الحكمة الذي يتوقف عنده النص مُؤْذِناً بانفضاض مجلسه عبر تجربة حياة ختامية.

وكما كان المتنبي يستهلّ معظم ارتجالياته بابتداء مباشر يدلف به إلى فكرة النص كان يتوقف مباشرة متى شعر أنه قال ما لديه، يقول:(١)

يا ذا المعالي وَمَعدِنَ الأَدَبِ ... سَيِّدَنا وَابنَ سَيِّدِ العَرَبِ
أَنتَ عَلِيمٌ بِكُلِّ مُعجِزَةٍ ... وَلَو سَأَلنا سِواكَ لَم يُجِبِ
أَهَذِهِ قابَلَتكَ راقِصَةً ... أَم رَفَعَتْ رِجلَها مِنَ التَّعَبِ

ما زال النص قابلا للامتداد والسرد، ولا يتضمن البيت الأخير أي علامة توحي بالانتهاء، وعلى هذا النحو كانت معظم خواتيم ارتجالياته.

وليس بين ارتجالياته ما يوحي بالانتهاء غير مقطوعتين، يقول في الأولى:(٢)

مَضى اللَّيلُ وَالفَضلُ الذي لَكَ لا يَمضي ... وَرُؤياكَ أَحلى في العُيونِ مِنَ الغُمْضِ
عَلى أَنَّني طُوِّقتُ مِنكَ بِنِعمَةٍ ... شَهيدٌ بِها بَعضي لِغَيري عَلى بَعضي
سَلامُ الذي فَوقَ السَّمَواتِ عَرشُهُ ... تُخَصُّ بِهِ يا خَيرَ ماشٍ عَلى الأَرضِ

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٣٦/١.
(٢) السابق، ٢١٩/٢.

اختتام آليّ بدعاء وسلام وثناء، وبمثل هذا الاختتام يَشعر المتلقي أن الشاعر أنهى ما لديه، وتأهب للوقوف.

ويقول في ختام المقطوعة الثانية:[1]

سَأَمضـــي وَالسَّـــلامُ عَلَيـــكَ مِـــنّي مَغيـــــبي لَيلَـــــتي وَغَـــــداً إيابي

اشتَمَلَت العَتَبَة الأخيرة على نهاية ظاهرة، فالشاعر من خلالها يعلن المضِيّ «سأمضي...»، ثم يودّع الأمير: «والسلامُ عليكَ مني»، ويَعِد بتجديد الوصل: «غداً إيابي»، تماماً يُشْبِه ما يمكن أن يحدث في الواقع بكل تفاصيله عند ختام مجلس.

وما سبق في هذا المبحث يؤكد أن بنية الشعر في ارتجاليات المتنبي تغلب عليها التلقائية؛ فهو لا يحتشد لها بتمهيد ولا حتى بتصريع إلا في مقطوعات معدودات، ولا يُطنِب ما أسعفه الإيجاز، ولذا جاءت معظم ارتجالياته مقطوعات لا يتكلف اختتامها، بل يتوقف متى ما شعر أنه أتى على اللُّب. وهذا كله يتلاشى لو درسنا شِعره غير المرتجَل، فما عُجالةُ الزاد تقيم الصُّلْب كالزاد يتفنن فيه طاهيه ليُبهر آكليه.

(١) السابق، ١/١٣٥.

المبحث الثاني: تفاعل اللغة:

فطن النقاد الأوائل إلى أثر اللغة دلاليّاً وجماليّاً في بنية النص، وراحوا يضعون لها المعايير المناسبة على مستوى المفردة والتركيب،(١) ولم يغب عن النقاد المتأخرين هذا الأثر، وأضافوا إليه أبعادا، وتعمقوا فيه، رائين أن عالم اللغة كيان مستقل داخل النص، وإبداع داخل إبداع،(٢) ويسوغ لبعضهم أن يقرر أن «في كل قصيدة عربية عظيمة قصيدة ثانية هي اللغة».(٣)

وتكشف ارتجاليات المتنبي عن ثروة لغوية مَكَّنَت الشاعر من صياغة أفكاره بسلاسة ويسر، ولا أشك أن أهم عامل في الارتجال بعد قوة الموهبة يَكْمُن في تَوَفُّر الشاعر على مخزون لغوي ثري يسعفه، ويتيح له المزيد من الخيارات.

ومما يؤكد اتساع المخزون اللغوي لدى المتنبي تفاوت مستوى بناء ارتجالياته آخذاً في حسبانه أجواء الموقف، وطبيعة المضمون، وثقافة المتلقي، ومن ثم يُشَكِّل لغته على هذا الأساس.

ولنتأمل شيئاً من اقتداره اللغوي وهو صبي في الكُتّاب يتلقى العلم مع أترابه حين أثنى بعضهم على وفرة شَعره، فقال من فوره:(٤)

---

(١) يُنظر: سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، تحقيق: علي فودة، ص: ٦٠– ٨٢.

(٢) يُنظر: عن اللغة والأدب والنقد: رؤية تاريخية ورؤية فنية، د. محمد أحمد العزب، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، ١٩٨٢م، ص: ٣٦٦.

(٣) ديوان الشعر العربي، أدونيس (علي أحمد سعيد)، دار المدى، دمشق، ١٩٩٦م، ١/ ١٥.

(٤) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ١/ ١١٦.

لا تَحْسُنُ الوَفْرَةُ حَتَّى تُرَى ... مَنْشُورَةَ الضَّفْرَينِ يَوْمَ القِتالْ[1]
عَلَى فَتىً مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً ... يُعِلُّها مِنْ كُلِّ وافي السِّبالْ[2]

في الحين الذي كان أترابه يُعجَبون بثناء الآخرين على مظهرهم كان المتنبي يتطلع أن يثني الناس عليه في مواقف أكثر حماسة وبطولة، ولذا لم يُعجبه شَعره الذي أعجبهم؛ لأن الصورة المثالية لشَعر الرجُل تكون في شَعَته جَرّاء الجهد والكفاح والقتال.

وإمعاناً منه في الفتوة وإظهار القوة وظَّفَ ألفاظاً جزلة وتراكيب فخمة تشبه تلك التي يتلقاها في الكُتّاب من أشعار الجاهليين، وكأنه أراد إبهار معلمه وأترابه بارتجالية على منوال ما يَحفظون.

وحين يختلف الموقف ومستوى المتلقين، يُوَجِّه المتنبي لغته توجيهاً مختلفاً يناسب الموقف والمتلقين، وهذه ارتجالية قالها وهو كهل في مجلس شراب، وقد تعمد أن ينتقي لها أعذب الألفاظ وأوضحها ليصل مضمونها بيسر بين جَمْع فيهم العالِم والأقل علما، والواعي والأقل وعيا، يقول:[3]

وَجَدتُ المِدامَةَ غَلاَّبَةً ... تُهَيِّجُ لِلقَلبِ أَشواقُهُ
تُسيءُ مِنَ المرءِ تأديبَهُ ... وَلَكِنْ تُحَسِّنُ أَخلاقَهُ
وَأَنفَسُ ما لِلفَتى لُبُّهُ ... وَذو اللُّبِّ يَكرَهُ إنفاقَهُ
وَقَد مُتُّ أَمسِ بِها مَوتَةً ... وَلا يَشتَهي المَوتَ مَن ذاقَهُ

(١) الوَفْرة: الشَّعر الوَفِير الغَزِير. منشورة الضفرين: أي طائشة الضفيرتين من شدة الحركة والجَهْد.
(٢) مُعْتَقِل: مُمْسِك. الصَّعْدَة: الرمح القصير. يُعِلُّها: يَسْقِيها مَرّة بعدَ مَرّة. وافي السِّبال: تامّ الشارب.
(٣) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢/٣٥٠.

أَلَحُّوا عليه بالشرب، فاعتذر بارتجالية تناسب إدراك الحاضرين بمختلف مستوياتهم، ولم يكن يعجزه أن يترنم بارتجالية جزلة الألفاظ فخمة التراكيب؛ فقد كان مستطيعاً وهو صبي، فكيف به بعد أن نضجتْ تجرِبته!

ويُشَكِّل المتنبي لغة ارتجالياته بذكاء؛ فحين يخاطب ذوي الوعي العالي يعمد إلى ألفاظ وتراكيب تمزج بين العذوبة والجزالة، والقرب والعمق، ومعظم ارتجالياته في سيف الدولة تنحو هذا المنحى، ولا سيما أن سيف الدولة أديب أريب يتذوق الشعر، ويحفظ منه الكثير.

ومن ارتجاليات المتنبي التي تظهر فيها مزاوجته بين العذوبة والجزالة قوله في سيف الدولة وقد جاءه رسوله برقعة فيها بيتان، ويسأله إجازتهما:(١)

رِضاكَ رِضايَ الذي أُوثِرُ ... وَسِرُّكَ سِرّي فَما أُظهِرُ
كَفَتْكَ المروءةُ ما تَتَّقي ... وَآمَنَكَ الوُدُّ ما تَحذَرُ
وَسِرُّكُمُ في الحَشا مَيِّتٌ ... إذا أُنْشِرَ السِّرُّ لا يُنشَرُ
كَأَنّي عَصَتْ مُقلَتي فيكُمُ ... وَكاتَمَتِ القَلْبَ ما تُبصِرُ
وَإفشاءُ ما أنا مُستَودَعٌ ... مِنَ الغَدْرِ وَالحُرِّ لا يَغدِرُ
إذا ما قَدَرْتُ عَلى نَطْفَةٍ ... فَإنّي عَلى تَرَكِها أَقدَرُ
أُصَرِّفُ نَفْسي كَما أَشتَهي ... وَأَمْلِكُها وَالقَنا أَحمَرُ
دَوالَيكَ يا سَيفَها دَولَةً ... وَأَمْرَكَ يا خَيرَ مَن يَأمُرُ
أَتاني رَسُولُكَ مُستَعجِلاً ... فَلَبّاهُ شِعري الذي أَذْخَرُ

(١) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ٣/ ١٤٠٤.

وَلَـو كـانَ يَـومَ وَغـىً قائِمـاً لَلَبّـاهُ سَـيفِيَ وَالأَشـقَرُ[1]
فَـلا غَفَـلَ الـدَّهْرُ عَـن أَهلِـهِ فَإِنَّـكَ عَـيْنٌ بِهـا يَنظُـرُ

قصيدة ظاهرة الطبع، ولا ألحظ فيها أثر تكلف، ولا وَهَنَ عَجَلَة، وأكثر ما راقني فيها قوة مفرداتها، وانسياب تراكيبها، وتقارب مستواها من أول بيت حتى آخره، وهذا في جملته اقتدار لغوي يحسب للمتنبي.

وقد يحرص المتنبي في بعض ارتجالياته التي يخص بها الأمراء في مجالسهم على توظيف الرائج من المفردات والتراكيب المألوفة في عصره أكثر من حرصه على توظيف مخزونه التراثي، يقول وقد استحسن عين باز في مجلس الأمير:[2]

أَيا مـا أُحَيْسِـنَها مُقلَـةً وَلَـولا المِلاحَـةُ لَم أَعْجَـبِ
خَلُوْقِيَّـةٌ في خَلُوْقِيّهـا سُـوَيداءُ مِـن عِنَـبِ الثَّعْلَـبِ[3]
إِذا نَظَـرَ البَـازُ في عِطفِـهِ كَسَـتهُ شُـعاعاً عَلـى المَنْكِـبِ[4]

«خلوقية، سويداء، عنب الثعلب» مفردات متداولة في عصره، ولم أتبيَّن منها بعد البحث في المعاجم اللغوية غير مفردة «خَلُوقية» المنسوبة إلى الخَلُوق،

(١) الأشقر: الجواد الأشقر.
(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٤٧/١.
(٣) خَلُوقِيَّة: أي أن عين الباز لونها كلون الخَلُوق، والخَلُوق خليط عِطْرِيّ أصفر اللون. سويداء: حبة البركة، أو تصغير سوداء، والمراد بؤبؤ عين الباز. عنب الثعلب: فاكهة طيبة المذاق في حجم حبة العنب.
(٤) العِطْف: الجانب. المَنْكِب: طَرَف الكتف من جهة العَضُد.

وهو خليط من العطور والزيوت أصفر اللون، وأشكل عليّ بدءاً معنى «السويداء»، هل يعني به بؤبؤ العين، أو يعني الحبة السوداء (حبة البركة) كما يسميها الآن بعض المعاصرين، أما «عنب الثعلب» ففاكهة حجم ثمرتها كحجم حبة العنب، وما تبيّنتُ هذا الشرح إلا من خلال المعاجم النباتية والطبية التي تتيحها محركات البحث في الشبكة العنكبوتية، وإلا فإن شُرّاح ديوانه[1] أعرضوا عن تفسير معناها لشدة وضوحه لديهم، أو لاستشكاله عليهم.

وليس في ارتجاليات المتنبي توظيف للمفردات العامية ولا الأعجمية؛ بل ظل محافظاً على أصالة لغته كما يفعل في سائر شعره.

وتحاشى في ارتجالياته أيضاً الألفاظ الموغلة في الغموض التي تتطلب عودة إلى المعاجم لاستيضاح دلالاتها، وهو المولَع بغريب اللغة في جملة من أشعاره غير المرتجَلة،[2] ولم أصادف من هذه الألفاظ إلا نزراً في أراجيزه الطردية المطوَّلة، ولعل هذه الألفاظ سبب من أسباب الارتياب في شأن ارتجالها، يقول في وصف كلب صيد:[3]

---

(١) من شراح ديوانه الذين لم يذكروا معنى «عنب الثعب»: العكبري، الواحدي، أبو العلاء المعري، التبريزي، البرقوقي، ابن الأفليلي، ناصيف اليازجي، سليم إبراهيم صادر.

(٢) يُنظر: من معجم المتنبي: دراسة لغوية تاريخية، إبراهيم السامرائي، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ط:١، ١٩٧٧م، ص: ١٢٧.

(٣) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٠٣/٣.

أَقَـــبَّ سَـــاطٍ شَـــرِسٍ شَمَـــرْدَلِ[١]
مُؤَجَّـــدِ الفِقْـــرَةِ رِخْـــوِ المِفْصِـــلِ[٢]
كَأَنَّمَـــا يَنْظُـــرُ مِـــنْ سَـــجَنْجَلِ[٣]
شَـــبِيْهُ وَسْمِـــيِّ الحِضَـــارِ بِالـــوَلِي[٤]
كَأَنَّـــهُ مُضَـــبَّرٌ مِـــنْ جَـــرْوَلِ[٥]

تبدو هذه الألفاظ «أَقَبّ، ساطٍ، شَمَرْدَل، مُؤَجَّد، سَجَنْجَل، مُضَبَّر، حِضَار، جَرْوَل...» بحاجة إلى شرح حتى لدى بعض المتخصصين، وما على هذا النحو جاءت ارتجاليات المتنبي، ولا حتى الجُلّ من قصائده الأخرى، ويبدو لي أنه كان يريد محاكاة طرديات الأوائل معنى ومبنى، أو محاكاة بنية الأراجيز القديمة التي يغلب عليها غرابة اللفظ، ولا سيما أن كل أراجيز المتنبي المرتجلة تضمنت ألفاظاً تحتاج إلى شروح، وتراكيب تقارب تراكيب الأوائل، يقول:[٦]

لا عَـــــدِمَ المشَـــــيّعَ المشَـــــيَّعُ
لَيْـــتَ الـــرِّياحَ صُـــنَّعٌ مـــا تَصْـــنَعُ
بَكَـــرْنَ ضَـــرّاً وبكَـــرتَ تَنْفَـــعُ

(١) أَقَبّ: ضامر البطن. ساطٍ: جريء. شَمَرْدَل: طويل.
(٢) مُؤَجَّد: قويّ.
(٣) سَجَنْجَل: مِرْآة.
(٤) الحِضَار: العَدْو.
(٥) مُضَبَّر: منحوت. جَرْوَل: حَجَر.
(٦) الموضِح في شرح شعر أبي الطَّيِّب المتنبي، التبريزي، تحقيق: د. خلف نعمان، ٣/ ٢٣٥.

وَسَجْسَـــجٌ أنْـــتَ وَهُـــنَّ زَعْـــزَعُ[1]
وواحِـــدٌ أنْـــتَ وَهُـــنَّ أربَـــعُ[2]
وَأنْـــتَ نَبْـــعٌ وَالمُلُـــوكُ خِـــروَعُ[3]

لو لم أَطَّلِع على أراجيز المتنبي في ديوانه لظننتُها من أراجيز العَجّاج (توفي: ٩٠هـ)، أو ابنه رُؤْبة (توفي: ١٤٥هـ).

والتراكيب اللغوية في ارتجالياته متناسقة متآلفة، وهي -إن لم تكن مدهشة كما هو الحال في معظم شعره- تبدو غير مستنكَرَة، ولا نافرة، وقد يلحظ المتذوق في بعضها ضعفاً ناجماً عن طبيعة الموقف الارتجالي وما يَعْتَوِره من عَجَلة، يقول مخاطباً الأمير في مجلس شرب:[4]

أَنَشْـــرُ الكِبـــاءِ وَوَجـــهُ الأَمـــيرِ وَصَـوتُ الغِنـاءِ وَصـافي الخُمـورِ[5]
فَـــداوِ خُمـــاري بِشُـــربي لَهـــا فَـإنّي سَـكِرتُ بِشُـربِ السُّـرورِ[6]

(١) الريح السَّجْسَج: السَّهْلة اللّيّنة. الريح الزَّعْزَع: الشديدة العنيفة.

(٢) واحد أنت: أي أنت ريح مباركة لها اتجاه ميمون واحد. هُنّ أربع: أي لسائر الريح أربع اتجاهات متقلبة، وهي: شَمَال، جَنُوب، صَبَا، دَبُور.

(٣) نَبْع: صَلْب، والنَّبْع في الأعواد والأشجار أصلبها وأقواها. خِرْوَع: كل نبات هش ضعيف.

(٤) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٤٥/٢.

(٥) الكِبَاء: عُود البَخور.

(٦) الخُمَار: أَثَر السُّكْر في الثَّمِل.

بدأ مقطوعته متسائلاً متعجباً من اجتماع زاكي الرائحة، وجمال وجه الأمير، ورهافة الغناء، وصفاء الشراب، وجاء البيت الأول متضمّناً جُمَلاً متساوية التركيب والمدَى مما جعلنا نترقب انتقالة احترافية في البيت الثاني، لكنّ هذا لم يحدث، بل جاء البيت الثاني مبدوءاً بفعل الأمر (داوِ) متصلا بـ (الفاء)، حتى ظننا أن هناك علة وسببا، ولا شيء من ذلك، بل جاء المتنبي بفعل الأمر مُخْبِراً بأن لديه الجواب والحَلّ!

وأجد أن أسلوب الاستفهام في سياق التعجب لا يتسق مع من لديه حَلّ، فإما أن يغير أسلوب البيت الأول ليكون خبريّا، أو يغيّر أسلوب البيت الثاني ليكون إنشائيّا، أو خبريّاً يلائم أجواء السؤال التعجبي.

ومن ضعيف أساليبه في ارتجالياته حشو الشعر بمفردات يأتي بها لإتمام الوزن، وما أكثر ما جاء باسم الإشارة «ذا» ليملأ به فراغ بيت مرتجَل حتى يَتّزِن، يقول:(١)

مـــاذا يَقـــولُ الـــذي يُغَـــنّي ... يا خَـيرَ مَـن تَحـتَ (ذي) السَّـماءِ
شَـــغَلتَ قَلـــبي بِلَحـــظِ عَيـــني ... إلَيـــكَ عَـــن حُســـنِ (ذا) الغِنـــاءِ

ويقول أيضا:(٢)

إن قُلـــتَ في (ذا) البَخـــورِ سَـــوقاً ... فَهَكَـــذا قُلـــتَ في النَّـــوالِ

(١) الموضِح في شرح شعر أبي الطَّيِّب المتنبي، التبريزي، تحقيق: د. خلف نعمان، ١/ ١٥٩.

(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٦٢/٣.

وله:[1]

بِأَبِي رِيحُـــكَ لا نَرْجِسُـــنا (ذا) وأَحَادِيثُـــكَ لا هَـــذا الشَّـــرَابُ

وقوله:[2]

يَنْشُـدُ مِـن (ذا) الخِشْـفِ مـا لَم يَفْقِـدِ[3]

وقد أَغْرَبَ إذ جاء بـ «تا» بمعنى اسم الإشارة (هذه)، فأوقع السامع والقارئ في لبس، وذلك في قوله واصفاً بَرِيق سلاح في مجلس الأمير:[4]

فَلَـوْ أَطفَـأتَ نارَكَ (تا) لَدَيْـهِ قَـرَأتَ الخَـطَّ في سـودِ اللَّيـالي[5]

لقد أشكل عليّ معنى البيت زمنا، وكنت أظن أن «تا لَدَيْه» مثنى (تالد) أي قديم: (تَالِدَيْه)، وحين لم يستقم لي المعنى عدت إلى بعض شروح ديوانه، فأدركت أن بعثرة الارتجال حَمَلَت المتنبي على الإتيان بـ «تا» اسمَ إشارة، وهذا جائز لغةً، لكنه في الشعر قليل مُلْبِس.

(١) العَرْف الطَّيِّب في شرح ديوان أبي الطَّيِّب، تحقيق: ناصيف اليازجي، ص: ١٤٤.

(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٣/٢.

(٣) يَنْشُد: يَطْلُب. الخِشْف: ولد الظبي.

(٤) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٩٣/٣.

(٥) تا: هذه، أي لو أطفأت نارك هذه لدى السلاح اللامع لأغناك لمعانه عن ضوء النيران والمصابيح، ولاستطعتَ القراءة في الظلام بكل يسر ووضوح.

وقد يقع المتنبي في أساليب أهل النظم، كإكثاره من (كذا)، ومن ذلك قوله:[١]

أَعَــن إذْني تَهُــبُّ الــريحُ رَهْــواً وَيَســري كُلَّمــا شِـئتُ الغَمــامُ[٢]
وَلَكِــنَّ الغَمَــامَ لَــهُ طِبــاعٌ تَبَجُّسُــهُ بِهــا (وَكَــذا) الكِــرامُ[٣]

وقوله:[٤]

طَــارَ الوُشَــاةُ عَلَــى صَــفَاءِ وِدَادِهِــمْ وَ(كَـذَا) الـذُّبَابُ عَلَى الطَّعَامِ يَطِيرُ

وقد يُتِمّ البيت بإضافة لا تضيف شيئا، كقوله:[٥]

سَــقاني اللهُ قَبــلَ المِــوتِ يَومــاً دَمَ الأَعــداءِ مِــن (جَــوفِ) الجُــروحِ

فما الذي أضافته مفردة (جوف) حين أضافها إلى (الجروح)، وهل من فارق بين دم الجروح، ودم جوف الجروح في مثل سياقه ذاك؟!

ومما عاب ارتجاليات المتنبي أنه راعى بها مقتضى الحال وظرف المكان، وكأنها ارتجلها لِتُسمَع لا لتُدَوَّن، ولذا وعى دلالاتها من كان حاضراً قريباً منه، وأشكلت بعض الدلالات على من سها أو اكتفى بالسماع فقط.

---

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٣٣/٤.

(٢) الرَّهْو: الساكن.

(٣) تَبَجُّسه: انسكابه وانهماره.

(٤) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٣٥/٢.

(٥) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٥٨/١.

ومن ذلك أنه حضر مجلس سيف الدولة وبين يديه تُرُنْج وطَلْع، فقال سيف الدولة لأحد رجاله: ليس هذا للشرب، بل للشم، فقال المتنبي مرتجِلاً وكان أثناء ذلك يشير بيديه ويوظف لغة الجسد ليزيد المعنى وضوحا:(١)

شَدِيدُ البُعْدِ مِن شُرْبِ الشَّمُولِ ... تُرُنْجُ الهِنْدِ أَوْ طَلْعُ النَّخِيلِ(٢)
وَلَكِن كُلُّ شَيءٍ فيهِ طِيبٌ ... لَدَيكَ مِنَ الدَّقِيقِ إلى الجَلِيلِ
وَمَيدانُ الفَصَاحَةِ وَالقَوافي ... وَمُتَحَنُ الفَوارِسِ وَالخُيُولِ

لقد أشكل على بعضهم معنى بيته الأول، فمَن هو البعيد من شرب الشَّمُول؟ وما شأن ترنج الهند وطلع النخيل؟ وما موقعهما من المعنى والإعراب؟!

يريد أن يقول: لا تظنوا بالأمير ظن السوء؛ فهو أبعد الناس من شرب الخمر، وما هذا الذي ترونه أمامكم وتظنونه خمراً إلا ترنج الهند وطلع النخيل.

هذا ما افترض الشاعر أن يعيه الحاضرون لكونهم شهود عيان، لكن هذا لم يحدث، بل أشكل المعنى على بعضهم ممن لم يتنبه إلى إشارات المتنبي، وإلى سياق الأبيات، وسبب ارتجالها، فاندفع بعضهم يستوضح ويستنكر، فأجاب

---

(١) الفَسْر (شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي)، ابن جني، تحقيق: د. رضا رجب، ٢/ ٨٠٠.

(٢) الشَّمُول: الخمر. والمعنى: الأمير بعيد عن شرب الخمر، وهذا الذي لديه إنما هو ترنج أو طلع نخيل، وحذفَ وأوجَزَ وبدا أنه أَخَلّ؛ لأن موقف الارتجال أتاح له أن يشير بيده إلى الترنج والطلع، فاكتفى برؤية العِيان عن زيادة البيان.

قال ابن جني: «كأنه قال: بين يديك، أو في مجلسك ترنج الهند، إلا أنه حذف من الأول المبتدأ، ومن الثاني الخبر؛ لأنه مُشاهَد».

المتنبي مرتجلاً وقد ذم مَن لم يفهم، وما مستحق للذم غيره في غموض معناه، يقول:(١)

أَتَيْتُ بِمَنْطِقِ العَرَبِ الأَصِيلِ ... وَكَانَ بِقَدْرِ مَا عَايَنْتُ قِيلِي
فَعَارَضَهُ كَلامٌ كَانَ مِنْهُ ... بِمَنْزِلَةِ النِّسَاءِ مِنَ البُعُولِ
وَهذا الدُّرُّ مَأمُونُ التَّشَظّي ... وَأَنْتَ السَّيْفُ مأمُونُ الفُلُولِ
ولَيْسَ يَصِحُّ في الأَفهامِ شَيْءٌ ... إذا احتَاجَ النَّهارُ إلَى دَلِيلِ

يا له من داهية عنيد يأبى الاعتراف بالتقصير حتى في بيت ارتجالي قد يعتريه ما يعتريه، وإن كان إشكال المعنى شعر به من حضر فقد شعر به بعض شُرّاح دواوينه أيضا، يقول ابن جني محاولاً رفع الإشكال، وتقريب المعنى بتوضيح إعرابه، وشرح دلالاته:

«رَفَعَ (شديدُ البُعد)؛ لأنه خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال: (أنتَ شديدُ البُعد)، ورَفَعَ (تُرُنْجُ الهند) بالابتداء، كأنه قال: (بينَ يديكَ أو في مجلسِكَ تُرُنْجُ الهند)، إلا أنه حَذَفَ من الأول المبتدأَ، ومن الثاني الخَبَرَ؛ لأنه مُشاهَد، فذَكَرَ الحالَ على ما أَضْمَره، كما تقول إذا رأيتَ رَجُلاً قد سَدَّدَ سهما، ثم سَمِعتَ صوتا: (القِرْطَاسَ)، أي: (السَّهْمُ أصابَ القِرْطَاسَ)، وكما تقول للقادم من سفر: (خَيْرَ مَقْدَم)، فتَنْصِب؛ لأنك تريد: (قَدِمْتَ خَيْرَ مَقْدَم)...، فإن قيل: وما في إخباره عمّا في مجلسه –وهو بحضرته– مِن الفائدة؟ وهل كان يُشَكّ في ذلك فيَجُوز إخبارُه عنه؟ قيل: إنما ذلك ثناءٌ عليه، فيقول له: (أنتَ

(١) الفَسْر (شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي)، ابن جني، تحقيق: د. رضا رجب، ٢/ ٨٠٣.

شديدُ البُعد من شُرب الشَّمُول وإن كان بين يديكَ ما يَحضُر في أكثر الأمر للشُّرب)، فأثنى عليه، ونَفَى الظِّنَّة عنه، فجَرَى هذا مجرَى قولك للرجُل الذي لا يُشَك في فضله وشرفه: (أنتَ فاضل، وأنتَ شريف)، لِمَا في ذلك من وصفه وتقريظه وتعديد محاسنه».[١]

ومما يحمد للمتنبي في ارتجالياته خلوها من ضرورات الشعر القبيحة، ولا عجب؛ فالمتنبي يجيد قواعد اللغة إجادة لحظها شراح دواوينه ودارسوه، وهي إجادة لا تقل عن إجادة اللغويين أنفسهم، وسليقته فيها من البداوة والفصاحة ما ليس في سليقة من جاء بعده. [٢]

ولا يكاد يجد متأمل ارتجالياته من الهنات اللغوية غير نزر يسير معدود في الضرورات المقبولة المكرورة التي يتغاضى عنها الشعراء تساهلاً لا جهلاً ولا عجزا، كتخفيف بعض الهمزات، وصرف الممنوع من الصرف، ومن ذلك قوله:[٣]

كَيْفَ (أُكَافِي) عَلى أَجَلِّ يَدٍ مَنْ لا يَرَى أَنَّها يَدٌ قِبَلي؟

هي (أكافئ)، فخففها، وربما كانت بعد التخفيف أعذب.

---

(١) الفَسْر (شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي)، ابن جني، تحقيق: د. رضا رجب، ٢/ ٨٠١.

(٢) يُنظر: الصبح المُنْبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي (توفي: ١٠٧٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا و محمد شتا و عبده زيادة عبده، ص: ١٤٣.

(٣) العَرْف الطَّيِّب في شرح ديوان أبي الطَّيِّب، تحقيق: ناصيف اليازجي، ص: ١٨.

وقوله وقد جعل همزة «شئت» ياءً لتنسجم بنية الكلمة مع بنية القافية:[١]

انْصُـرْ بجُـودِكَ ألْفاظـاً تَرَكـتُ بهـا ... في الشَّرْقِ والغَرْبِ مَن عاداكَ مكبوتا

فقـد نَظَرْتُـكَ حـتى حـانَ مُرْتَحَلـي ... وذا الـوَداعُ فكُـنْ أهْـلاً لِمـا (شِـيتا)

وقوله وقد وصل همزة «أن» وحقها القطع:[٢]

مَوْقِـعُ الخَيْـلِ مِـن نَـدَاكَ طَفِيـفُ ... وَلَـوَ (انَّ) الجِيَـادَ فِيهـا أُلُـوفُ[٣]

ومِن صرف للمنوع من الصرف قوله:[٤]

وَلَطَالَمـا انْهَمَلَـتْ بِمَـاءٍ (أَحْمَـرٍ) ... فِي شَـقْرَتَيْهِ (جَمَـاجِمٌ) وَنُحُـورُ

إذ صرف «أحمر» و «جماجم»، وهذا في الشعر كثير غزير، ولم يُضطَرَّه إليه ارتجال؛ فسائر شعره وشعر غيره من الكبار يزخر بمثل هذا النوع من الضرورات.

وربما اضطره الارتجال إلى اختيار لغة قليلة الاستعمال أو مستنكَرة، كتسميته (جبريل) عليه السلام بـ «جبرين»، مراعاة للقافية، يقول:[٥]

---

(١) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ١/ ٢٤٤.

(٢) شرح شعر المتنبي، ابن الأفليلي، تحقيق: د. مصطفى عليان، ١/ ٢٤٧.

(٣) يقول للممدوح: إن الخيل التي تُكْرِم بها الناس هي أقل عطاياك سخاءً حتى لو كنتَ تعطي منها بالألوف؛ لأن عطاياك الأخرى أعظم منها وأفخم.

(٤) العَرْف الطَّيِّب في شرح ديوان أبي الطَّيِّب، تحقيق: ناصيف اليازجي، ص: ٦٧.

(٥) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٤/٢٠٨.

لَعَظُمْتَ حَتّى لَو تَكونُ أَمانَةً ما كانَ مُؤتَمَناً بِها (جِبرينُ)[1]

أو كاختصاره حرف الجر «من» في حرف «مِ» كما في قوله:[2]

مُحَلَّلٍ (مِ) لْوَحْشِ لَمْ يُحَلَّلِ

على أن مثل هذه الضرورات الطفيفة ليست محصورة في ارتجالياته، فقد ترد أيضاً في سائر شعره قليلا، كقوله في قصيدة غير مرتجَلة:[3]

ولَدَيْهِ (مِ) لْعِقْيَانِ والأَدَبِ المِفَا دِ و(مِ) لْحَيَاةِ و(مِ) لْمَمَاتِ مَنَاهِلُ

وربما وقع المتنبي في هذا الاختصار عمداً؛ لكون حذف نون (مِن) الجارة لغة من لغات العرب كانت في بعض قبائل خَثْعَم وزَبِيد الذين يقولون «خَرَجْتُ مِ لْبَيْتِ»،[4] وكأن المتنبي أراد استعراض معرفته بهذه اللغة، أو أراد توظيف جوازاتها حين ضاق به الوزن.

ومع هذا تظل لغة المتنبي في مجمل ارتجالياته لغة ناضجة متماسكة على مستوى المفردة والجملة، وعلى مستوى الاشتقاق والتركيب.

---

(١) جبرين: لغة في جبريل المَلَك عليه السلام.

(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٠١/٣.

(٣) السابق، ٢٥٥/٣.

(٤) يُنظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار الساقي، بيروت، ط:٤، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، ١٦/ ٢٠٩.

ومهما يكن من تجويد فإن الارتجال أسهم في خفض مستوى التقانة اللغوية في عدد من نصوصه حتى لو خلت من العيوب الجسيمة، وحَسْب الارتجال تأثيراً أنه قَلَّلَ من حِدّة الإدهاش اللغوي التي يترقبها المتلقي من شاعر ضخم كالمتنبي.

* * *

المبحث الثالث: تَخَلُّق الصورة:

تُعَدّ الصورة في النقد القديم وسيلة جوهرية يُبَلِّغ بها الشاعرُ المعنى، ويودِعه قلب السامع،[١] وهي لدى دارسي النقد الحديث «المركز البؤري للبناء الشعري كله»،[٢] وعماد اللغة الشعرية،[٣] إلى الحد الذي أصبحت فيه «قوة الشعر تتمثل في الإيحاء بالأفكار عن طريق الصور، لا في التصريح بالأفكار مجردة، ولا في المبالغة في وصفها».[٤]

والصور التي جاءت في ارتجاليات المتنبي جزئية وكلية، أما الجزئية فغلب عليها التشبيه، في حين أن معظم الصور الجزئية التي جاءت في شعره غير الارتجالي كانت استعارية،[٥] فما الذي عكس الأمر في الارتجاليات؟

في تصوري أن لذلك سببين رئيسين: الأول أن صناعة الصورة التشبيهية أمر ميسور على الشاعر، ولا يحتاج إلى كثير من التفكر وإعمال الذهن في لحظة

---

(١) يُنظر: كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط:٢، ١٩٧١م، ص: ١٦.

(٢) الصورة الفنية في النقد الشعري، عبدالقادر الرباعي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط: ١، ١٤٠٥هـ، ص: ١٠٤.

(٣) يُنظر: الصورة الشعرية: وجهات نظر غربية وعربية، د. ساسين عساف، دار مارون عبود، بيروت، ط:١، ١٩٨٥م، ص: ١١٥.

(٤) يُنظر: دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده، د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص: ٦٠.

(٥) يُنظر: في مجلس أبي الطَّيِّب المتنبي، إبراهيم السامرائي، دار الجيل، بيروت، ط:١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص: ١٤٧.

محسوبة الوقت، وهذه طبيعة في الصورة التشبيهية لحظها أكثر من ناقد،[١] والثاني أن معظم هذا الشعر المرتجَل مُوَجَّه إلى ندماء في مجالس أُنْس، لذلك فإن الصورة التشبيهية لقربها من الأذهان والتصوّر تبدو أنسب إليهم وأقرب من الصورة الاستعارية التي تتطلب وعياً أعلى في تركيبها وفي تَلَقِّيها، ومن خلالها يتخلص الشاعر «من بدائية التشبيه؛ لينطلق في رحاب الخيال»،[٢] ولا سيّما أن الاستعارة تُعَدّ «عاملاً رئيساً في الحفز والحث، وأداة تعبيرية، ومصدراً للترادف، وتعدد المعنى».[٣]

واللافت أيضاً أن معظم صور المتنبي التشبيهية في ارتجالياته قريبة جدا، سافرة الوضوح، وهي إلى ذلك مكرورة مألوفة، ويتضمن بعضها مبالغات قد تبدو فَجّة، على أن صوره في سائر شعره محكمة منتقاة، حتى مبالغاتها يمكن تَقَبُّلها.[٤]

---

(١) يُنظر: الصورة الفنية في الأدب العربي، د. فايز الداية، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط: ٢، ١٤١١هـ، ص: ٧٤.

(٢) الصورة بين البلاغة والنقد، د. أحمد بسام ساعي، دار المنارة، جدة، ط: ١، ١٤٠٤هـ، ص: ٨٥.

(٣) الاستعارة في النقد الأدبي الحديث: الأبعاد المعرفية والجمالية، د. يوسف أبو العدوس، الأهلية للنشر والتوزيع، عَمَّان، ط: ١، ١٩٩٧م، ص: ١١.

(٤) يُنظر: شعر المتنبي قراءة أخرى، د. محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة، ط:٢، ١٩٨٨م، ص: ٨٤.

وهذه طائفة من تشبيهاته في ارتجالياته تؤكد وفرتها من جهة، وتؤكد أيضاً قُرب مَدَاها التصويري، يقول:(١)

هَجَرْتُ الخَمْرَ كَالذَّهَبِ المصَفَّى ... فَخَمْري ماءُ مُزْنٍ كَاللُّجَينِ

خمر يُشْبه في لونه وصفائه الذهب الخالص، وماء نقي يُشْبه الفضة، وهذا كل ما هنالك.

ويقول في باز ينقض على حَجَلَة:(٢)

كَأَنَّ الريشَ مِنهُ في سِهامٍ ... عَلى جَسَدٍ تَجَسَّمَ مِن رِياحِ

كَأَنَّ رُؤوسَ أَقلامٍ غِلاظٍ ... مُسِحنَ بِريشِ جُؤْجُئِهِ الصِّحاحِ(٣)

يُشَبِّه حدة أطراف ريش الباز بالسهام، ويُشَبِّه جسد الباز بالرياح من شدة سرعته وخفة حركته، وفي البيت الثاني يُشَبِّه صدر الباز ذي اللون الأسود المشُوب بخطوط رمادية وبيضاء بالثوب الأبيض بعد أن عاثت فيه الأقلام.

وقال مبالِغاً في وصف خضوع طيور السُّمَانَى للأمير إذ يصطادها:(٤)

كَأَنَّ السُّمَانَى إذا ما رَأَتكَ ... تَصَيَّدُها تَشتَهي أَن تُصادا(٥)

---

(١) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ١/ ٤٤٣.

(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٥٩/١.

(٣) الجؤجؤ: الصدر.

(٤) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٢/٢.

(٥) السُّمَانَى: نوع من الطيور المهاجرة الصالحة للأكل، وهي أكبر من العصافير، وأصغر من الحَمام.

وهنا يُشَبِّه انقياد الطيور للأمير وارتماءها في حصيلة صيده بانقياد المحِبّ إلى حبيبه، أو الخائف إلى مأمنه، وهذا تشبيه فيه من المبالغة ما فيه، وربما فهم منه أن الأمير لم يبذل مهارته ليصطاد؛ لأن الطيور كَفَتْه هذه المشقة، واستسلمَتْ له!

ثمة ما يغري الشاعر بالتشبيه كثيرا، فهو يكثر منه، ويُوالِيه تباعاً في بعض ارتجالياته، يقول في وصف أنياب كلب صيد يسعى إلى الفتك بظبي:(١)

افْـــتَرَّ عَـــنْ مَذْرُوبَـــةٍ كَالأَنْصُـــلِ(٢)
لا تَعْـــرِفُ العَهْـــدَ بِصَـــقْلِ الصَّـــيْقَلِ(٣)
كَأَنَّهَـــا مِـــنْ سُـــرْعَةٍ فِي الشَّـــمْأَلِ
كَأَنَّهَـــا مِـــنْ ثِقَـــلٍ فِي يَـــذْبُلِ(٤)
كَأَنَّهَـــا مِـــنْ سَـــعَةٍ فِي هَوْجَـــلِ(٥)
كَأَنَّـــهُ مِـــنْ عِلْمِـــهِ بِالمُقْتَـــلِ
عَلَّـــمَ بُقْـــرَاطَ فِصَـــادَ الأَكْحَـــلِ(٦)

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٠٦/٣.
(٢) مَذْرُوبة: الأنياب الحادّة. الأَنْصُل: جمع نَصْل، وهو رأس السهم، ومَتْن السيف.
(٣) الصَّيْقَل: صانع السيوف.
(٤) يَذْبُل: جبل في الحجاز.
(٥) هَوْجَل: الأرض الفسيحة.
(٦) بُقْرَاط: طبيب يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. الفِصَاد: القَطْع والشَّقّ. الأَكْحَل: عِرْق في الذراع.

أنياب كالسهام، لها سرعة ريح الشمال، ولانغرازها ثِقَل الجبال، وسعة ما بينها كالصحراء، وهو كلب صيد خبير بالموضع المناسب الذي يُطْبِق فيه أنيابه على فريسته، لِتَخِرّ من فورها دون مقاومة، وكأنه بخبرته عَلَّمَ الطبيب اليوناني الشهير (بقراط) وظائف عروق الأجساد، وكيف ومتى يَفْصِدها.

خمسة تشبيهات متتابعة انهمرت بسخاء في مشهد واحد، وكأنه قدم لنا خمس لوحات تتضمن كل لوحة منها صورة واضحة مستقلة.

وللاستعارة في ارتجاليات المتنبي حضور لا بأس به، وهي استعارات في مجملها قريبة واضحة تقترب من تشبيهاته كثيرا، ويَقِل فيها الإدهاش المتَوَخَّى في سائر شعره الحافل بالاستعارات البعيدة،[1] يقول على لسان صاحب له طَلَبَ منه أن يصف ما انتابه من مشاعر شوق إلى أحد الغائبين:[2]

شَوْقِي إلَيْكَ نَفَى لَذِيْذَ هُجُوعي ... فَارَقْتَنِي، فَأَقَامَ بَيْنَ ضُلُوعي

أَوَ مَا وَجَدتُمْ في الصَّراةِ مُلُوْحَةً ... مِمَّا أُرَقْرِقُ في الفُرَاتِ دُمُوعي؟[3]

مَا زِلْتُ أَحْذَرُ مِنْ وَدَاعِكَ جَاهِداً ... حَتَّى اغْتَدَى أَسَفِي عَلَى التَّوْدِيعِ

رَحَلَ العَزَاءُ بِرِحْلَتي فَكَأَنَّمَا ... أَتْبَعْتُهُ الأَنْفَاسَ لِلتَّشْيِيعِ

---

(١) يُنظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبدالعزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م، ص: ٤٢٩.

(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٢٤٨/٢.

(٣) الصَّرَاة: نهر يَتفرَّع من الفُرَات.

شوق ينفي لذيذ الهجوع، ويقيم بين الضلوع، ودموع إثر دموع تختلط بالنهر فيزداد ملوحة، وعزاء يَرحل، وأنفاس تُشَيِّعه، كلها صور استعارية قريبة مألوفة تناسب مقام الارتحال ومقتضياته، غير أن طرافتها قد تكمن في احتشادها لرسم مشهد كُلّي تتحرك تلك الاستعارات داخلَه.

ومن قريب استعاراته وصفه لمجلس فسيح فيه الأمير وابنه، وحولهما مصباح مضيء، يقول:(١)

أَمَـا تَـرَى مَـا أَرَاهُ أَيُّهَـا المِلِـكُ؟ كَأَنَّنَـا فِي سَمَـاءٍ مَـا لَهَـا حُبُـكُ(٢)

الفَرْقَـدُ ابْنُـكَ، وَالمِصْـبَاحُ صَـاحِبُهُ وَأَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى، وَالمَجْلِسُ الفَلَكُ(٣)

لقد شَكَّلَتْ هذه الاستعارات مشهداً كليّاً منعكساً عن السماء إلى الأرض في هيئة فضاء مَدَاه المجلس، وفي مداراته يسبح الفرقدان والقمر.

ويقول مفتخِراً بنفسه بعد أن اختبر الأمير قدرته على الارتحال:(٤)

زَعَمـتَ أَنَّـكَ تَنفـي الظَّـنَّ عَـن أَدَبِي وَأَنـتَ أَعظَـمُ أَهـلِ العَصـرِ مِقـدارا

إنّي أَنا الـذَّهَبُ المعـروفُ مَخـبَرُهُ يَزيـدُ في السَّـبْكِ لِلـدينارِ دينـارا

(١) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٣٧٦/٢.

(٢) الحُبُك: طرائق النجوم.

(٣) الفَرْقَد: أحد نجمين ساطعين لا يفترقان يُطْلِق عليها العرب اسم الفرقدين.

(٤) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٤٠/٢.

ما زال يُقارِب صوره التشبيهية، بل إن قوله «إني أنا الذهب» ما يصلح أن يكون تشبيهاً بليغاً عند بعض البلاغيين. (١)

ومن أجمل استعاراته المتوالية التي بدت مشهداً كليّاً متماسكاً كلوحة مرسومة بمهارة فائقة، أو كصورة ملتقطة بدقة عالية، قوله:(٢)

وَشَـــامِخٍ مِـــنَ الجِبِـــالِ أَقْـــوَدِ(٣)
فَـــرْدٍ كَيَـــافُوخِ البَعـــيرِ الأَصْـــيَدِ(٤)
يُسَـــارُ مِـــنْ مَضِـــيْقِهِ وَالجَلْمَـــدِ(٥)
في مِثْـــلِ مَـــتْنِ المسَـــدِ المعَقَّـــدِ(٦)

ليس من الصعب أن يتصور الذهن صورة جبل شامخ منفرد له قمة ممتدة في السماء، وطرقات وعرة ملتوية كالحبال ينعقد بعضها ببعض، وهذه الصور التي تبدو كلية ذات حيوية عالية، وفيها يستعين الشاعر بحركة الدراما، وحياة القصة؛ ليبدع قصيدته، ويؤثر في المتلقي.(٧)

---

(١) يُنظر: المعجم المفصَّل في علوم البلاغة، د. إنعام عكّاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، ص: ٣٢٧.

(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٣/٢.

(٣) أَقْوَد: مُمْتَدّ طُولا.

(٤) فَرْد: متفرِّد وحدَه. اليَافُوخ: الرأس. الأَصْيَد: ممتدّ العُنُق شامخ الرأس.

(٥) الجَلْمَد: الصَّخْر.

(٦) المسَد: الحبل من الليف أو الشعر.

(٧) يُنظر: جماليات القصيدة المعاصرة، د. طه وادي، دار المعارف، القاهرة، ط:٣، ١٩٩٤م، ص: ٩٤.

ولا تخلو استعارات المتنبي من محاولات تجديد، يقول وقد أنكر عليه قوم مناداته الأمير أبي العشائر الحسين بن حَمْدان باسمه مجردا دون كُنية:(١)

قالوا: أَلَمْ تَكْنِهِ؟ فَقُلتُ لَهُمْ: ذَلِكَ عِيٌّ إذا وَصَفْناهُ(٢)
لا يَتَوَقَّى أَبو العَشائرِ مِن لَبْسِ مَعاني الوَرَى بِمَعْناهُ(٣)
أَفرَسُ مَن تَسْبَحُ الجِيادُ بِهِ وَلَيسَ إلّا الحَديدَ أَمْوَاهُ(٤)

لقد وظف في البيتين الأولين حسن التعليل، وفي البيت الأخير وظف حسن التخلص؛ إذ انتقل من الدفاع عن نفسه إلى مدح الأمير مديحاً يمحو ما بقي في نفسه من إرجاف أولئك المعترضين، فجعله فارساً يسبح على فرس يطفو على الأسنة والرماح لا على وجه الماء، وهي صورة ذهنية يُحمَد ارتجالُ مثلُها. ومن مبالغاته قوله في الأمير الذي سوف تسير الدار إليه إن لم يَسِرْ إليها:(٥)

قَد بَلَغتَ الذي أَرَدتَ مِنَ البِرْ رِ وَمِن حَقِّ ذا الشَّريفِ عَلَيكا
وَإذا لَم تَسِر إلى الدارِ في وَقْـ ـتِكَ ذا خِفتُ أَن تَسيرَ إلَيكا

(١) الموضح في شرح شعر أبي الطَّيِّب المتنبي، التبريزي، تحقيق: د. خلف نعمان، ٥/ ٤١٨.
(٢) أَلَمْ تَكْنِهِ: أي أَلَمْ تُنَادِهِ بِكُنْيَته.
(٣) لا يَتَوَقَّى: لا يَتَّقي ولا يَحْذَر، أي أن ممدوحه لا يحتاج إلى كنية تزيل اللبس عنه أو تُعَرِّف به؛ لأنه لا شبيه له في الناس.
(٤) أَفْرَس: أكثر الناس فروسية. أمواه: جمع ماء. أي أن ممدوحه فارس تسبح به جياده على بحر من حديد الرماح والسيوف، وهذا تأكيد لفروسيته.
(٥) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٣٨٤/٢.

وحتى يعطي المتنبي صوره الاستعارية حياةً وقَبُولاً يَعْمَد إلى التشخيص[١] لعل المتلقي ينشغل بحركة الصورة عما يعتورها من تكرار أو سُفور، يقول:[٢]

أَلَمَ تَـــرَ أَيُّهـــا المِلِـــكُ المرَجَّـــى عَجائِـبَ مـا رَأَيـتُ مِـنَ السَّـحابِ
تَشَـــكّى الأَرضُ غَيْبَتَـــهُ إلَيـــهِ وَتَرشُـفُ مـاءَهُ رَشْـفَ الرُّضـابِ[٣]

جعل الأرض تشكو اشتياقها إلى السحاب، فيريق عليها السحاب ماءه، لترتشف الأرض منه ارتشاف اشتياق، عسى أن تهدأ الأشواق.

ويقول أيضا:[٤]

تَعَـرَّضَ لي السَّـحابُ وَقَـد قَفَلْنـا فَقُلْـتُ: إلَيـكَ إنَّ مَعـي السَّـحابا
فَشِـمْ في القُبَّـةِ المِلِـكَ المرَجَّـى فَأَمسَـكَ بَعـدَما عَـزَمَ انسِـكابا

صادَفَ الشاعرُ السحابَ وهو مع الأمير، وكعادة السحاب في السخاء هَمَّ أن يجود بما لديه، غير أن الشاعر طَلَبَ منه الإمساك والانصراف؛ لشدة غِناه عنه بما أن السحاب الغامر والخير الماطر في مَعِيَّته.

وكقوله وقد جعل القَنَا نَدَامى، والعزمَ ساقيا:[٥]

---

(١) التشخيص: نعت موضوع أو وحدة مُجَرَّدة أو كائن غير إنساني بنعوت تسمح باعتباره فاعلا. يُنظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م، ص: ١٢٦.

(٢) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ١٣٥/١.

(٣) الرُّضَاب: ماء الرِّيق.

(٤) شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى العُكْبَري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرَين، ٤٦/١.

(٥) ديوان المتنبي، الواحدي، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، ١/ ٣٠٩.

إذا مـا شَـرِبْتَ الخَمْـرَ صِـرْفاً مُهَنَّـأً شَرِبْنَا الذي مِنْ مِثْلِهِ شَرِبَ الكَرْمُ[1]
أَلا حَبَّـذَا قَـوْمٌ نَـدَامَاهُمُ القَنـا يُسَـقُّوْنَهَا رِيّاً وَسَـاقِيْهِمُ العَـزْمُ

وعلى هذا النحو كثير من استعاراته في ارتجالياته، وقد بدا ظاهراً أن استعاراته مع قربها أفخم من تشبيهاته، وأكثر حيوية.

ومما بدا لي أيضاً أن الصور في شعره المرتجَل أشبه ما تكون بصور شاعر متوسط الاقتدار يُجيد مرة، ويقارِب الإجادة أخرى، وقد يندفع في الارتجال اندفاع من لا يأبه إلا بإقامة الوزن، فيُسِفّ أحيانا، ولهذا وغيره وَصَفَ طه حسين (توفي: ١٣٩٣هـ) بعض ارتجاليات المتنبي بـ «الشعر السخيف».[2]

ومن قارن صور المتنبي في ارتجالياته بسائر شعره أدرك فارقاً ملحوظاً يؤكد أن التحفز للشعر أقوى وأبلغ من حافز الشعر.

* * *

(١) الكَرْم: العِنَب الذي يُعصَر منه الخمر.

(٢) مع المتنبي، طه حسين، ص: ٢٢٠ .

الخاتمة

وبعد هذا الرصد النقدي لارتجاليات المتنبي آن لي أن أوجز ما بدا لي من نتائج وتوصيات، ولعل أهم النتائج فيما يلي:

١. ارتبط الارتجال بالطبع ارتباطاً وثيقا، فلا يمكن لشاعر محدود الطبع أو متكلِّف أن يَرتجل، وإن ارتجل لم يكن في ارتجاله ما يُغري بالتدوين، ولذا لم يُؤْثر الارتجال إلا عن شعراء معروفين بالطبع.

٢. ظهرَت ارتجاليات المتنبي مقارنة بأمثاله الشعراء متنوعة وافرة؛ فمجموع نصوصه المرتجَلة بلغ مئة نص، وهذا العدد يشكل ما نسبته ٣٠,٩٪ من مجموع نصوصه البالغ عددها ثلاثمئة وثلاثة وعشرين نصّا، كما بلغ عدد أبياته الارتجالية أربعمئة واثنين وثلاثين بيتاً من مجموع أبياته البالغ عددها خمسة آلاف وخمسمئة وثمانية وسبعين بيتا، أي ما نسبته ٧,٧٪ من مجموع أبياته الكليّ.

٣. تَنوّعتْ موضوعات الشعر المرتجَل لدى المتنبي تنوُّعاً ملحوظا؛ إذ ارتجَل في الموضوعات الشعرية المعروفة عدا الغزل، وأكثر غاية الإكثار في المديح والوصف والإخوانيات، وهذه موضوعات اقتضاها الحال؛ فهو كثير الاتصال بالأمراء، شديد القرب منهم، وله معهم صحبة وطرديات يصف فيها ما يدهشه، وما يطلبون منه وصفه، وله تردد مستمر على مجالس السمر الحافلة بالوجهاء والأصدقاء منتظري سماع شعره.

٤. غَلَبَ على ارتجاليات المتنبي القِصَر، فمن بين المئة ارتجالية ثنتان وتسعون مقطوعة أقلها بيتان، وأطولها ستة أبيات، أما القصائد التي بلغت سبعة أبيات فأكثر فعددها ثماني قصائد، مما يؤكد أن فضاء الارتجال قريب المدَى.

٥. جاءت ارتجاليات المتنبي مكثفة تعالج فكرة محدودة محدَّدة، وخَلَتْ من المقدمات التقليدية، وقَلَّ فيها التصريع، وانغلق معظمها انغلاقاً مباشراً دون توطئة تُشعر بالنهاية، وهذا كله متوقع في الشعر المرتجَل الذي لا يكاد يتسع إلا لما أُنشئ له.

٦. خَلَت ارتجاليات المتنبي من الأبيات السائرة التي ألفناها في سائر شعره،(١) مما يؤكد أن الشعر المرتجَل أقل طبقة، وأن الشاعر البارع يتحفز للشعر إن أراد، فيبدع أكثر مما لو اقتصر على سانح ما يُسعفه به الطبع.

٧. أتتْ لغة ارتجاليات المتنبي قريبة واضحة مستمدة من المعجم التراثي المألوف، ومما هو دارج في بيئته وعصره مما تتسع له اللغة دلالة واشتقاقا، ولذلك وظف مفردات لم يكن يتوخاها في سائر شعره.

٨. مع وضوح معاني ارتجالياته أشكل بعضها على من لم يكن حاضر الموقف؛ إذ إن بعض ارتجالياته تجيب عن سؤال، أو تصف شيئاً مُشاهَدا، أو

---

(١) أستثني بيتاً يتيماً ضِمْن مقطوعة ارتجالية يَسُوغ إدراجُه في الأبيات السائرة، وهو:

ولَيْسَ يَصِحُّ في الأَفهامِ شَيْءٌ إذا احتَاجَ النَّهارُ إلَى دَلِيلِ

الفَسْر (شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي)، ابن جني، تحقيق: د. رضا رجب، ٢/ ٨٠٣.

يأتي بها مستعيناً عليها بالإشارات وتعابير الجسد، بخلاف سائر شعره الذي يُعِدُّه لِيَبْقَى.

٩. اضطرتْه طبيعة الموقف الارتجالي إلى الوقوع في بعض الهنات اللغوية الطفيفة كتخفيف الهمزات، ووصل ما حقه القطع، وما إلى ذلك مما كان يَحرص على تلافيه في سائر شعره.

١٠. بَدَتْ معظم صوره الشعرية في ارتجالياته تشبيهية واضحة، وهذا خلاف الأكثر في سائر شعره الذي كانت الاستعارة فيه بمختلف مستوياتها سيدة الموقف، ولها القول الفصل في الإدهاش والإمتاع، ومعلوم أن التشبيه أيسر في الاستحضار والتركيب، وأقرب إلى أذهان المتلقين، ولذا كثر التشبيه في شعره المرتجَل، وقَلَّت الاستعارة، وما جاء منها جاء قريباً سافرا.

١١. قَلَّت الصور الكلية في ارتجالياته، فلا حضور يذكر للمشهد الثابت ولا المتحرك إلا في لمحات يسيرة، وليس هذا مستغربا؛ لأن تشكيل الصورة فضلاً عن بث الحياة فيها عمل يحتاج إلى أناة وإعمال ذهن، وهذا متعسر في الشعر المرتجَل.

تلك هي أهم النتائج، أما أهم التوصيات فأوجزها في الآتي:

١. تمييز مصطلح الارتجال عن غيره من المصطلحات القريبة منه؛ كشعر البديهة، وشعر الإجازة، وتحرير مفهومه، ومعرفة ملابساته واستثناءاته؛ فبعض المتقدمين يورد المصطلح واشتقاقاته للدلالة على إلقاء الشعر، كما أن بعضهم يُدخِل في الارتجال ما لا يَصِح عقلاً ولا نقلا، ثم يعتمده دارسون، ويبنون عليه نتائج قلقة أو مغلوطة.

٢. دراسة ارتجاليات المتنبي دراسة أسلوبية تقارن بين بِنْيَاتها، وبِنْيَات سائر شعره.

٣. إحياء الشعر المرتجَل بإقامة فعاليات له، وتخصيصه بعدد من الدراسات، فمن شأن هذا الحراك إحياء سُنّة شعرية عرفها العرب، وإذكاء التنافس بين فئة من الشعراء تجيد هذا النمط، مع إجادتها لغيره.

هذا وأعتقد أني بذلتُ ما أستطيع من جهد، وآمل أن أكون وُفِّقتُ في إضافة بعض اللفتات النافعة، واللمحات المُقْنِعة، وما أحسنتُ فيه فمِن الله ﷻ، وما قَصّرتُ فيه فمن نفسي، وأصلي وأسلم على نبينا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه.

* * *

ثَبَت المصادر والمراجع

– المصادر:

١. ديوان المتنبي، الواحدي (توفي: ٤٦٨هـ)، تحقيق: د. ياسين الأيوبي و د. قصي الحسين، دار الرائد العربي، بيروت، ط:١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

٢. شرح ديوان أبي الطَّيِّب المتنبي، المنسوب إلى أبي البقاء العُكْبَري (توفي: ٦١٦هـ)، تحقيق: مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري و عبدالحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨م.

٣. شرح شعر المتنبي، ابن الأفليلي (توفي: ٤٤١هـ)، تحقيق: د. مصطفى عليان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:٢، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

٤. العَرْف الطَّيِّب في شرح ديوان أبي الطَّيِّب، تحقيق: ناصيف اليازجي، دار القلم، بيروت، د.ت.

٥. الفَسْر (شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي)، ابن جني (توفي: ٣٩٢هـ)، تحقيق: د. رضا رجب، دار الينابيع، دمشق، ط:١، ٢٠٠٤م.

٦. الموضِح في شرح شعر أبي الطَّيِّب المتنبي، التبريزي (توفي: ٥٠٢هـ)، تحقيق: د. خلف نعمان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط:١، ٢٠٠٠م.

– المراجع:

١. الإبداع في الشعر العربي القديم: الإلهام والارتجال، د. فضل بن عمّار العمّاري، بحث مُحَكَّم منشور في مجلة الآداب بجامعة الملك سعود، الرياض، المجلد: ٩، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٢. أبو الطَّيِّب المتنبي وما له وما عليه، الثعالبي، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة الحسين التجارية، القاهرة، د.ت.

٣. الإخوانيات في الشعر العباسي، محمد الملا، نادي المنطقة الشرقية الأدبي، الدمام، ط:١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٤. ارتجال الشعر وإجازته، أسعد خليل داغر، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، عدد: رمضان ١٣٥١هـ- كانون الثاني ١٩٣٣م.

٥. أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السُّود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٦. الاستعارة في النقد الأدبي الحديث: الأبعاد المعرفية والجمالية، د. يوسف أبو العدوس، الأهلية للنشر والتوزيع، عَمَّان، ط: ١، ١٩٩٧م.
٧. بدائع البدائه، علي بن ظافر الأزدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.
٨. البديهة والارتجال في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، د. مضر الآلوسي، دار غيداء، عَمّان، ط:١، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.
٩. البديهة والارتجال، محمد باسل عيون السُّود، دراسة منشورة في مجلة الفيصل، العدد: ١٩١، جمادى الأولى ١٤١٣هـ- نوفمبر ١٩٩٢م.
١٠. بناء القصيدة في النقد العربي القديم، د. يوسف بكار، دار الأندلس، بيروت، ط:٢، ١٩٨٢م.
١١. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط:٣، ١٩٧٥م.
١٢. تاج العروس من جواهر القاموس، الزَّبِيدي، تحقيق: لجنة من مجموعة محققين بإشراف وزارة الإعلام الكويتية، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط:٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
١٣. تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط:١، ١٩٩٧م.
١٤. تاريخ بغداد، البغدادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.
١٥. تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط:١، ١٤٠٣هـ.
١٦. التوقيف على مهمات التعاريف، محمد المناوي، تحقيق: محمد الداية، دار الفكر، بيروت، ط:١، ١٤١٠هـ.
١٧. جماليات القصيدة المعاصرة، د. طه وادي، دار المعارف، القاهرة، ط:٣، ١٩٩٤م.
١٨. جوهر الكنز (تلخيص كنز البراعة في أدوات ذي اليراعة لابن الثير الحلبي)، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، نشر منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٣م.
١٩. الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط: ٢، ١٣٨٩هـ.
٢٠. خطاب الطبع والصنعة: رؤية نقدية في المنهج والأصول، د. مصطفى درواش، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.

٢١. دراسات بلاغية، ونقدية، د. أحمد مطلوب، دار الحرية، بغداد، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.
٢٢. دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده، د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
٢٣. ديوان ابن الرومي، تحقيق: حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.
٢٤. ديوان أبي نواس، تحقيق: إيفالد فاغنر، دار الكتاب العربي، برلين، ط:٢، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
٢٥. ديوان الشعر العربي، أدونيس (علي أحمد سعيد)، دار المدى، دمشق، ١٩٩٦م.
٢٦. سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، تحقيق: علي فودة، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ط: ١، ١٣٥٠هـ- ١٩٣٢م.
٢٧. شرح القصائد العشر، التبريزي، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط:٤، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.
٢٨. شعر المتنبي قراءة أخرى، د. محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة، ط:٢، ١٩٨٨م.
٢٩. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
٣٠. الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط:٦، ١٩٨٦م.
٣١. الصبح المُنْبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، تحقيق: مصطفى السقا و محمد شتا و عبده زيادة عبده، دار المعارف، القاهرة، ط:٣، ١٩٩٤م.
٣٢. الصِّحَاح، الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط:٤، ١٩٩٠م.
٣٣. الصورة الشعرية: وجهات نظر غربية وعربية، د. ساسين عساف، دار مارون عبود، بيروت، ط:١، ١٩٨٥م.
٣٤. الصورة الفنية في الأدب العربي، د. فايز الداية، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط: ٢، ١٤١١هـ.
٣٥. الصورة الفنية في النقد الشعري، عبدالقادر الرباعي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط: ١، ١٤٠٥هـ.

٣٦. الصورة بين البلاغة والنقد، د. أحمد بسام ساعي، دار المنارة، جدة، ط: ١، ١٤٠٤هـ.
٣٧. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ط:٥، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
٣٨. عن اللغة والأدب والنقد: رؤية تاريخية ورؤية فنية، د. محمد أحمد العزب، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، ١٩٨٢م.
٣٩. الفهرست، ابن النديم، تحقيق: ناهد عباس عثمان، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، ط:١، ١٩٨٥م.
٤٠. في عالم المتنبي، د. عبدالعزيز الدسوقي، دار الشروق، القاهرة، ط:٢، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٤١. في مجلس أبي الطَّيِّب المتنبي، إبراهيم السامرائي، دار الجيل، بيروت، ط:١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
٤٢. قضايا الشعر المعاصر، أحمد زكي أبو شادي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤م.
٤٣. قضية الطبع والتكلف في التراث النقدي، د. إسماعيل حسين فتاتيت، بحث مُحَكَّم منشور في مجلة كلية الآداب بجامعة مصراتة في ليبيا، العدد: ٥، ديسمبر/ ٢٠١٥م.
٤٤. الكامل في اللغة والأدب، المبرد، تحقيق: د. محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:٣، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
٤٥. كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط:٢، ١٩٧١م.
٤٦. المخصَّص، ابن سِيده، تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م.
٤٧. مذهب الجاحظ في الارتجال في كتابه البيان والتبيين، د. عبدالكريم الحياري، بحث مُحَكَّم منشور في مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب الصادرة عن الجمعية العلمية لكليات الآداب، عَمّان، المجلد:١١، العدد: ١- ب، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.
٤٨. مع المتنبي، طه حسين، نشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط:١، ٢٠١٣م.
٤٩. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م.

٥٠. المعجم المفصل في الأدب، د. محمد التنوجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
٥١. المعجم المفصَّل في علوم البلاغة، د. إنعام عكّاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
٥٢. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار الساقي، بيروت، ط:٤، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
٥٣. من معجم المتنبي: دراسة لغوية تاريخية، إبراهيم السامرائي، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ط:١، ١٩٧٧م.
٥٤. النقد والنقاد المعاصرون، د. محمد مندور، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
٥٥. الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبدالعزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م.
٥٦. الوَشْي المرقوم في حُلَل المنظوم، ابن الأثير، تحقيق: د. جميل سعيد، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٩م.
٥٧. الوصف في الشعر العربي، عبدالعظيم قناوي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط:١، ١٩٤٩م.
٥٨. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.
٥٩. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي، تحقيق: د. محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، ط:٢، ١٣٩٢هـ.

* * *

حدود الأدبية في نصوص الرحالين العرب
مقاربة نظرية

د. إبراهيم بن علي الدغيري
كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
جامعة القصيم

حدود الأدبية في نصوص الرحالين العرب "مقاربة نظرية"

د. إبراهيم بن علي الدغيري

كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
جامعة القصيم

تاريخ تقديم البحث: ٢٥/ ٤/ ١٤٤١هـ تاريخ قبول البحث: ١٤/ ٧/ ١٤٤١هـ

ملخص الدراسة:

عني هذا البحث بطرح مقاربة نظرية تؤطر حدود الأدبية في نصوص الرحالين العرب، منطلقة من تأكيد العديد من الباحثين غنى كتب الرحلات بالمادة الأدبية، كما تناول البحث مميزات النص الرحلي من منظور النقد الأدبي الجديد، وعدّد مجموعة من الاعتبارات التي جعلت النص الرحلي يجتذب نقادا جددا متجاوزا الانحصار في الدراسات ذات البعد التاريخي والجغرافي والإنثربولوجي.

وأكد على أن أهم التقنيات الفنية التي تجعل النص الرحلي يدخل منظومة الدرس الأدبي هي: هيمنة بنية السفر، وهيمنة السرد الذاتي. وقد خلص البحث إلى أهمية ارتياد هذا الحقل الواعد بالمزيد من الدراسات النظرية والتطبيقية المعمقة.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة- نصوص الرحالين-المصطلح-الأدبية-مقاربة.

Literary Borders in the Texts of Arab Ambulants Theoretical Approach

Dr. IBRAHIM ALI ALDUGHAIRI
Al Qussaim university

Abstract:

This research concerned to provide a theoretical approach frames the literary borders in the texts of the Arab ambulants, launches from the confirmation by many researchers about the plenty literary material in the traveling books. The research also dealt with the advantages of texts of trips from the perspective of modern literary criticism, it mentioned many of the considerations which made the texts of trips attract new critics, going beyond the traditional studies in historical, geographical, and anthropological fields.

It also emphasized that; the most important artistic techniques which enable the text of trips to enter the literary study system are:

The dominance of the structure of travel and dominance self-narration. This research emphasized the importance of exploring this promising field with further theoretical and applied proficient studies.

key words: Travel literature - Traveler texts -The literary- term - literary - Approach

مدخل:

يتحدد الهدف من كتابة هذا البحث في غاية ذات أبعاد:

– التأكيد على أن قدرا لا بأس به من الرحلات التي كتبها الرحالون العرب قديما وحديثا تحمل سمات أدبية تجعلها جديرة بالدخول في حقل الدراسات الأدبية.

– تنبيه دارسي الأدب إلى وجود أفق بحثي يصلح للبحث والتوسع والتحليل؛ مجاله نصوص الرحالين العرب.

– الكشف عن أهم التقنيات الفنية للنص الرحلي، والوقوف على العناصر الأكثر تأثيرا في أدبيته.

ولن يتسنى الوصول لهذه الأهداف إلا بالدخول في مطارحة علمية ذات طابع وصفي تستشرف آراء النقاد الذين بحثوا في النصوص الرحلية في حقلي: نظرية الأدب، وأدب الرحلات.

فأصحاب نظرية الأدب حددوا الأطر العامة الدافعة لإيجاد نوع أو جنس أدبي جديد، والمتمثل هنا في أدب الرحلات، وأشاروا إلى دور التطور اللغوي والثقافي في تحويل اهتمامات المتلقين إلى أنواع أدبية جديدة تتناسب مع متغيرات الزمن.

وأصحاب ما بات يدعى "أدب الرحلات" بحثوا موضوع أدبية النصوص الرحلية، واجتهدوا في صياغة منظومة فنية تؤطر أحقيتهم في مشاركة الجغرافيين والمؤرخين والأنثربولوجيين...في تلقي نصوص الرحلات أدبيا. مما أفضى بهم للبحث في خصائص هذا الجنس، وإيضاح أهم التقنيات الفنية

التي تمنحه شخصية مستقلة، تجعله يجاور الأجناس النثرية الأخرى المبنية على آلية القص.

- **حدود الأدبية في النص الرحلي:**

تضاءل الجدل حول الاعتراض على انتساب نصوص الرحالين العرب إلى الحقل الأدبي[1] بعد أن قطعت الدراسات النقدية شوطا في اكتشاف الأبعاد الأدبية فيها، وتأكد ذلك بعد أن صدر كم لا بأس به من الدراسات الأكاديمية وغير الأكاديمية التي عززت من حضورها في الدرس الأدبي.[2]

---

(١) لعل الجانب التجوزي هنا مفهوم، فأنا أعني بالعرب: الذين كتبوا بالعربية بغض النظر عن جنسهم العرقي. ثم إني آثرت استخدام عبارة: نصوص الرحالين لا مصطلح أدب الرحلات لأني أردت التأكيد على عد "الرحلة" نصا أدبيا قابلا للتحليل والدرس كما الرواية والقصة والسيرة الذاتية، واستخدمت كلمة الرحالين من باب التغليب وأقصد بهم الذين عانوا الرحلة سواء كانت رحلة واحدة أو رحلات متعددة. ولم أقل أدب الرحلات لوجود جدل علمي حول استخدام هذا المصطلح ويمكن مراجعة هامش صفحة ١٥ من هذا البحث، ولعل أسماء الكتب التي وسمته مرة بفن الرحلة، وتارة النص الرحلي، وحينا أدب الرحالة، يعكس هذا القلق المصطلحي.

(٢) أخذ أدب الرحلة مواقع متقدمة سواء في الدراسات الأكاديمية أو البحوث الجادة في الحقبة المتأخرة، وهناك عدد من المؤشرات على ذلك:

- نشأت في المغرب العربي طليعة بحثية شكلت ما يمكن أن يدعى تيارا يستهويه البحث في أدب الرحلات أثمر العديد من الدراسات المعمقة التي تؤطر أدبية النص الرحلي نقديا، ويمكن أن أشير إلى رموزها في كل من المغرب والجزائر على سبيل التمثيل لا الحصر:

سعيد يقطين، في كتابه: السرد العربي مفاهيم وتجليات. وشعيب حليفي، في كتابه: الرحلة في الأدب العربي: التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل. وعبد الرحيم مؤدن، في كتبه: أدبية الرحلة، وأدب الرحلة في المغرب، والرحلة المغربية في القرن التاسع عشر –مستويات السرد–. وفوزية

قفصي في كتابها: شعرية الوصف في أدب الرحلة–رحلة ابن بطوطة أنموذجا. وإبراهيم الحجري في كتابه: الخطاب والمعرفة. وبوشعيب الساوري في كتابه: الرحلة والنسق دراسة في إنتاج النص الرحلي: رحلة ابن فضلان نموذجا. وجميلة روباش في أطروحتها للدكتوراه: أدب الرحلة في المغرب العربي.

وفي الجزائر:

عيسى بخيتي، في كتابه: أدب الرحلة الجزائري الحديث، وأطروحته للماجستير: جمالية المشهد في أدب الرحلة الجزائري الحديث. وإسماعيل زردومي في أطروحته للدكتوراه بعنوان: فن الرحلة في الادب المغربي القديم. وعمر بن قينة، في كتابيه: اتجاهات الرحالين الجزائريين. والشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة. وفاطمة بوطبسو في أطروحتها للماجستير بعنوان: أدبية الخطاب في رحلة نور الأندلس لأمين الريحاني. وعزوزي عبد الصمد، في أطروحته للماجستير أدب الرحالة الجزائريين في الخمسية الهجرية الثانية.

- كما " أنشئت مؤسسات علمية تخصصت في أدب الرحلة كالمركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلات، والجمعية المغربية للبحث في الرحلة، ومتحف ومرصد بن بطوطة بالمغرب، والمركز العربي للأدب الجغرافي –ارتياد الآفاق ...وغيرها من المراكز العلمية والمؤسسات الثقافية التي تهتم بأدب الرحلة وتسخر كل إمكاناتها البحثية وطاقاتها البشرية والتنظيمية من أجل هذا الفن الأدبي الجميل، كما بدأ انتشار الوعي بأهمية أدب الرحلات في الكشف عن معارف جديدة، من خلال التظاهرات العلمية التي تقوم بها هذه المؤسسات، وكذلك منشوراتها وجوائزها التي تخصص للباحثين في أدب الرحلة، مما جعل هذا الفن محل اهتمام الجميع وعشق أغلب القراء." نقلا عن كتاب: الرحلة وفتنة العجيب بين التلقي والكتابة ص١٧ .

واهتمام المغاربة بالرحلات –الحجازية خاصة–ليس جديدا، وقد أشار إلى ذلك الشيخ حمد الجاسر في كتابه ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي ص١٧ ورأى أنه موضوع جدير بالبحث. ويمكن الرجوع لكتاب عبد الهادي التازي المطبوع بعنوان: رحلة الرحلات: مكة في مئة رحلة مغربية. وكتاب أدب الرحلة الجزائري الحديث مبحث: الرحلات الحجازية ص٤٧ .

- لا يقتصر الأمر على المغاربة، ففي الإمارات العربية المتحدة اهتمام متصاعد بهذا الحقل يتمثل

ولم يأت ذلك عفوا؛ فقد مر وقت طويل صُنفت فيه كتب الرحلات ضمن حقل التاريخ، أو المسالك والممالك، أو صورة الأرض.[١] مما جعلها تقع ضمن اهتمامات الجغرافيين، والمؤرخين، وعلماء الإناسة؛ لا دارسي الأدب.

غير أن هذا لم يصمد، حيث خضع لإعادة تقييم بسبب التطورات النقدية التي أعادت فهم كتب الرحلات من زاوية مختلفة أعطت للبعد الأدبي قيمة جديدة فتّقت مسارات تحث على ارتياد ما لم يبحث فيها بعد.

في مؤسستين حاضنتين للإصدارات الرحلية مقرهما أبو ظبي، إحداهما حكومية والأخرى خاصة، هما: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ودار السويدي للنشر والتوزيع في أبو ظبي.

- توجد العديد من المراجع العامة التي تصلح لأن تكون قاعدة تكوينية لمكتبة مختصة بأدب الرحلات تضم العديد من العناوين، مثل كتاب:

حمد الجاسر: ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي. محمد المغيربي: رحالة الغرب الإسلامي. شوقي ضيف: الرحلات. وفؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي. وحسين نصار: أدب الرحلة. وحسين محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب. وأحمد أبو سعد: أدب الرحلات. وحسين أحمد فهيم: أدب الرحلات. وناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري. وعبدالله بن أحمد بن حامد آل حمادي: أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية. وأريج السويلم: السرد الرحلي والمتخيل لدى السيرافي والغرناطي. أحمد أبو زيد في سلسلة الرحلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة (كتاب المجلة العربية). وعلي مال الله: كتب أدب الرحلات عند العرب في المشرق...وغيرها

(١) للاطلاع على الجدل العلمي حول هذا الموضوع ينظر كتاب: الرحلة في الأدب العربي ٣٩. وكتاب: الرحلة إلى بلاد الحجاز في الأدب المصري الحديث ٣١ و٦٢٧. وكتاب: فن الرحلة، دراسات نقدية لمجموعة من النقاد ٨١، وكتاب: الرحلة وفتنة العجيب بين التلقي والكتابة ٥٢.

وقد أسهم في تفعيل هذا الاتجاه جملة من نقاد الرواية الذين تزحزحوا من حقل النقد الروائي إلى حقل النص الرحلي "لاسيما أولئك المتابعين لمتغيرات النقد الأدبي في فرنسا والغرب بشكل عام الذين اهتموا ببنيات النصوص الرحلية ومقومات أدبيتها وتجنيسها، ومحاولة حصر الخصائص التي يتميز بها خطاب السرد الرحلي عن غيره من خطابات النصوص السردية." (١)

وهو تطور طبيعي في عالم الأفكار؛ إذ التغير الثقافي لأي أمة من الأمم يملي عليها إيجاد صيغ جديدة في تحليل الظواهر وتصنيف المستجدات حسب المتغيرات، وهذا ما حدا بالنقاد العرب –قسرا–للانخراط في تصنيف جديد لهذا الجنس وإعادة موضعته.

ولا يظهر أن هذا المنظور النقدي الجديد لنصوص الرحلات قد نضج إلا منتصف القرن المنصرم متأثرا بالدراسات الغربية(٢)، حيث لم تشكل النصوص الرحلية قبل ذلك استقطابا لدراسات منفصلة قائمة بذاتها لعدم توافر المعطيات النظرية المشجعة على ذلك؛ وهذا تؤيده الرؤية التي تقول: عندما

---

(١) بتصرف يسير من مقالة: المقاربات السردية لأدب الرحلة في النقد العربي للدكتور مسعود عمشوش منشورة في موقع: mahaarat.com.

(٢) يستنتج الدكتور عبد الهادي التازي أن مصطلح "أدب الرحلات" ظهر في الفضاء العربي منتصف القرن التاسع عشر وذلك بعد ترجمة رحلة ابن بطوطة للفرنسية ثم الإنجليزية. ينظر بحثه: أدب الرحلات: هل سيختفي من الساحة؟ في كتاب: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض عام ١٤٢١هـ، دارة الملك عبد العزيز، ١/١١.

تنضج رؤية لغة ما، حيال معطى أدبي، فإنها –مع الزمن–تتمثله. ثم يصبح مع الزمن جزءا من منظومتها.[١] إذ "المبدأ العام في نشأة الأنواع الأدبية، وتطورها، وفناء بعضها في بعض، وانقراضها، يقوم أساسا على تطور المجتمعات"[٢] وتغيرها، وهي رؤية معقولة، لأنها تقرن تغير الاهتمامات الأدبية بتحولات القيم الذهنية والمعرفية والجمالية للمجتمعات.

يؤيد هذا آلية العمل التشاركي بين اللغة والثقافة، وأثر كل واحد منهما في الآخر. إذ اللغات ماهي إلا تضافر للقواعد اللغوية والعقل والثقافة[٣] التي تتشارك فيما بينها لتفضي إلى تشريع يسمح لاستقبال أي جنس أدبي جديد، وتهيئة المناخ لتلقيه. فللنصوص أشكال "من الوجود لا تنفصم عن الظروف والمكان والزمان والمجتمع مهما بدا على هذه النصوص من بعد عنها."[٤] وهي ليست "موضوعا خارج الزمان"[٥]، ولا "وحدة كلامية مغلقة لا علاقة لها بأي مرجع كائن خارج اللغة"[٦]، إنما هي نصوص تفاعلية

(١) ينظر حول هذه الفكرة كتاب: الأدب والغرابة ١٣.

(٢) مقدمة في نظرية الأدب ١٢٩.

(٣) ينظر: اللغة: تلك الأداة الثقافية ١١.

(٤) العالم والنص والناقد ٧٢. وينظر ص٣٦.

(٥) درس السيميولوجيا ٣٤.

(٦) الذاتية في الخطاب السردي ٩.

بامتياز بدأت تأخذ موقعها اليوم جنسا أدبيا يخلق أفق انتظار خاص به "ينقل إلى المتلقي خبرة جديدة منفعلة بالحياة."[١]

إنه إذا كان هناك أدباء أبدعوا تجاربهم وفقا للقوالب الأدبية المتعارف عليها؛ أعني الشعر والنثر، الشعر بأنواعه، والنثر بتفريعاته؛ فإن الرحلة قد لحقت بالنثر الفني حين "ظفرت بمن يمثلها، وهم الرحالون الذين تميزوا عن غيرهم باتباعهم هذا المسلك الذي لم يستو على سوقه إلا بعد قرون من الممارسة، ثم أضحى ميراثا أدبيا واعيا تتجاذب إليه أجيال، فيتعاقب فيه فعل الممارسة حتى يصير بالغا مبلغ الرشد"،[٢] ينسج على منواله رحالون كثر، وفقا للمواصفات العامة التي تظاهروا على رسم حدودها العامة، حتى لو لم يكن الرحالون قد كتبوا نصوصهم بوصفها نصوصا غير أدبية.[٣]

ومع الوعي بوجود التباس في موضوع التداخل التجنيسي[٤] بين أدب الرحلات والأدب السيري والجغرافي والتاريخي... إلا أن ذلك آخذ بالتحرر،

---

(١) الأدب وفنونه، عز الدين إسماعيل ٢٥.

(٢) أدب الرحلة الجزائري الحديث ٩٣.

(٣) ينظر: نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد د محمد العمري، دار أفريقيا الشرق، المغرب، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٨.

(٤) نستحضر في هذا السياق رؤية بعض النقاد الرافضة لمسألة تجنيس الفنون مؤمنة بما يدعى تمازج الفنون، وهي رؤية لا تخدم الوجهة التي يتبناها هذا البحث. ينظر مثلا كتاب: في نظرية الأدب وعلم النص ص ٢٣ وكتاب مقدمات في نظرية الأنواع الأدبية ١١. وكتاب: الرحلة في الأدب العربي ٣٩.

خاصة بعد اجتهاد عدد من منظري الدراسات النقدية الجديدة في وضع سمات تفرز الأنواع عن بعضها، وتعطي أولوية متقدمة لفنيات القول مما جعل الجدل حول التجنيس —جزئيا–ينحسر.

هذا الانحسار لم ينته إلى حسم صارم، لأن مسألة التجنيس النوعي يشوبها توجس في رسم الحدود الفاصلة، وبالأخص في الأنواع النثرية غير التخييلية كالسيرة الذاتية واليوميات وغيرها من الأجناس المحايثة، مما جعل النص الرحلي "نصا معقدا أعيى الدارسين والمنظرين وهم يحاولون تصنيفه ضمن خانة أجناسية محددة. فضمير المتكلم المهيمن على الفعل السردي، وتطابق المؤلف والسارد والشخصية تمنح الرحلة مميزات تجعلها قريبة من السيرة الذاتية دون أن يجرؤ أحد على وضعها في هذه الخانة. والتواريخ الدقيقة التي تصاحب الأحداث والوقائع في غالبها تحيل على طبيعة المذكرات أو اليوميات، غير أن القراءة المتأنية تجعل الدارس مترددا في وضعها هناك. فارتباطها بالسفر ومتابعة وقائع الرحلة ومشاهداتها منحت الرحلة ملامح خاصة على مستوى تجلياتها الخطابية، وكانت نصا مرنا مفتوحا يستوعب كل ما يدور في ذاكرة السارد–الرحالة وهو يستحضر الأحداث والوقائع، والأماكن والفضاءات التي ترسخت بذاكرته، إلى جانب ما جادت به قريحته أو قريحة من رافقه من إبداعات شعرية أو نثرية." (١)

(١) التخييل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقاربة تداولية ٢٤٤. وينظر كتاب: الرحلة في الأدب العربي ٨، ٤٢. وينظر كتاب: الحجاز في أدب الرحلة العربي ٢.

كما أن انفتاح النص الرحلي على حقول معرفية متعددة سمح لكل فريق من أصحاب العلوم غير الأدبية بالتعامل مع الرحلة من منظور حقله الدراسي، وهذا دفع بمفهوم الرحلة إلى الالتباس والعموم بحيث يعجز عن لمّ تسربه إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية مما يدعو إلى ضرورة فهمه في تعدديته مع عدم التنازل عن أدبيته.(١)

ولعل هذا الغموض في التصنيف قد دفع بعض النقاد للاجتهاد في وضع مقاربة تضيق من التردد في حسم تجنيسها. منها مقاربة الباحث ناصر الموافي الذي فرق بين ثلاثة أنواع من كتب الرحلات وفقا لسماتها الخاصة، يقول في بحثه:

"الأساس في النصوص التي يتناولها هذا البحث أنها نتاج رحلات واقعية، وأن طريقة التدوين هي التي تصنف هذه النصوص بين الجغرافيا الوصفية والأدب الجغرافي وأدب الرحلة، فإذا اختفت العناصر الأدبية والذاتية —أو ندرت–صنف النص على أنه جغرافيا وصفية. وإذا حاول الرحال أن يوازن بين الموضوع والذات فإن عمله يصنف على أنه أدب جغرافي. أما إذا طغت

(١) بتصرف من كتاب: الرحلة في الأدب العربي ٤٢. وينظر كتاب الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض عام ١٤٢١هـ مبحث: الرحلة الحجازية الصغرى لأبي عبد الله الدرعي (١٢٣٩) قيمتها العلمية والتاريخية للدكتور عبد الخالق المفضل أحمدون ص١٥٧.

العناصر الأدبية الذاتية فإن عمله يصنف على أنه "أدب رحلة"[(١)].

ومع التقدير لهذه المقاربة التصنيفية إلا أن فرز النصوص بهذه الطريقة الآلية يفضي إلى الإلباس، وهذا ما دفعه في موضع آخر إلى التأكيد على معيار توفر النّفَس الأدبي أكثر من مسألة التصنيف الموضوعي لمحتويات الرحلة، وهو ما يتسق مع الرؤية الحديثة للأدب التي ترى أن المعيار هو طبيعة الاستخدام اللغوي لا المحتوى الموضوعي، وأن كل نوع أدبي تواطأ المبدعون فيه على طريقة خاصة في استخدام اللغة يخلق لدى المتلقين أفق انتظار يناسبه.

يقول الباحث الموافي: "إن شخص الرحال يكاد يكون مختفيا في نصوص الجغرافيا الوصفية، بينما يظهر على فترات متقطعة في حال الأدب الجغرافي، أما في أدب الرحلات فحضوره دائم وفاعل. وهذا الحضور هو الذي يكفل الوحدة الموضوعية للعمل، ويضفي عليه السمة الفنية، مما يجعله جديرا بالانضمام لحظيرة الأدب." [(٢)]

وإذا كنا لا نستطيع الإحاطة بالأسباب التي دفعت بنصوص الرحلات إلى أخذ موقع أدبي في العصر الحديث؛ فإن من أهم الأسباب –فيما يبدو– ما طرأ على مفهوم الأدبية مؤخرا من تغيرات أكدت على التحديق في

---

(١) الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ناصر عبد الرزاق الموافي، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥، ص٣٥.

(٢) الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ص١٤.

الخصائص الشكلية للعمل الأدبي، والبحث عما يجعل العمل الأدبي أدبيا،[١] والاتجاه نحو التخفف من الشرط التخييلي، واعتبار الجانب البلاغي في النصوص غير مركزي، وإعطاء الذاتية المتمثلة بـ"بصمات أو آثار الذات المتكلمة في ما تنتجه من خطاب"[٢] موقعا متقدما، مع النظر للنص بوصفه علامة منزاحة عن الكلام الاعتيادي تحيل لشبكة معقدة من المراجع الواقعية والتخييلية.

- **النص الرحلي من منظور النقد حديث:**

هذا المكان الجديد الذي تموقعت فيه نصوص الرحلات أفضى لأن تكون موضع إشادة من قبل العديد من النقاد –روادا ومتأخرين– كالدكتور شوقي ضيف الذي قال بأن أدب الرحلات "من أهم فنون الأدب العربي"[٣]، والأستاذ فؤاد قنديل الذي يقول: "لقد آمنت بعد رحلتي بين جنبات التراث الشاسعة أن بعض كتب الرحلات استوعبت طاقة القص عند الكتاب العرب في تلك الآونة، وكشفت عن مواهبهم التي لم تعد بحاجة إلى دليل يؤكدها، وامتزجت هذه النصوص بالمغامرات، والواقع بالأساطير، ذات الكاتب ومشاهداته، التجربة والحكمة مع الخيال، السحر مع الغرائب

---

(١) معجم مصطلحات النقد الأدبي المعاصر لسعيد علوش: مادة (الأدبية) ص٣٨٠ وينظر مادة: (الشعرية) ص٤٩٣.

(٢) الذاتية في الخطاب السردي ١٢. وينظر كتاب: مفهوم الأدب لتودوروف ص ٢٩.

(٣) الرحلات، شوقي ضيف، ص ١٤.

والعجائب."[١] في مراوحة "بين العوالم الأدبية وغير الأدبية."[٢]

والدكتور خالد التوزاني؛ إذ يقول بشيء من الإعجاب: "اجتمع في هذا النمط من الإبداع الأدبي، جمال التعبير وجلال الفكر وهيبته، بما يؤسس لكتابة فاتنة ومشرفة لا تغيب شمس القراء عنها، حيث إن إدراج الرحلات ضمن فنون الأدب العربي قد انطوي على نظرة جمالية لهذا النمط من الكتابات، دشنها استقلال الرحلات عن علم الجغرافيا، فأصبحت نصاً أدبياً جميلاً، ينفتح على جماليات التعبير والتواصل، فيحقق لمتلقيه متعة أدبية، ترتقي بالذوق والفكر."[٣]

وعلى الرغم من الإشادات بمميزات هذا الجنس، ووفرة نماذجه، وتعدد أعلامه؛ إلا أنه بحاجة لنقد مواز يأخذ على عاتقه التأطير، والتنظير، والفحص.

إن مما دفع بالرحلة للدخول في عالم الأدبية أنها تحولت من "الرحلة بوصفها فعلا يتجسد في الانتقال من مكان (هنا) إلى مكان آخر (هناك) والعودة، وبين الرحلة بوصفها خطابا مقيدا في نص متعدد الأبعاد."[٤] وأنها

---

(١) أدب الرحلة في التراث العربي ص١٣.

(٢) فن الرحلة، دراسات نقدية لمجموعة من النقاد تحرير بوقراط طيب، دراسة الأستاذة حرايز العلجة بعنوان: تواشج التمثلات المعرفية في الرحلة المغربية "الرحلة الحجازية" للحضيكي نموذجا ٨٠.

(٣) الرحلة وفتنة العجيب بين التلقي والكتابة ٦٠. وينظر: السرد العربي مفاهيم وتجليات ٢٠٠

(٤) مقالة: المقاربات السردية لأدب الرحلة في النقد العربي للدكتور مسعود عمشوش منشورة في موقع: mahaarat.com.

ترهنت في نص مكتوب "ينتج معرفة ترتبط بزمن مغاير لزمن الرحلة وهو زمن تلفيظ الرحلة، ويعبر عن معتقدات تكونت لدى الرحالة –المؤلف وهو يعيد استحضار وقائع الرحلة وينظمها خطابياً، وبالتالي تتحكم هذه المعرفة في سيرورة السرد من جهة، وفي التفاعلات الخطابية للخطاب العام من جهة ثانية." (١)

كما عزز من حيوية هذا الجنس أن نصوصه منفتحة "على تخصصات معرفية وفنية متعددة، وهي تتميز بنمطها الخاص في الكتابة، والمتمثل في قدرتها على رسم ملامح الأزمنة والأمكنة، خارج مقتضيات النمطية المعتادة في الكتابة البحثية بمختلف مجالاتها، أو الكتابة الإبداعية بطابعها المعتمد على كفاءة التخييل." (٢)

ويبدو أن هذا أضفى عليها بسطة في المتن والحاشية فأضحت "ميداناً معرفياً وثقافياً غنياً بالدلالات والرموز، ومجالا خصباً يشي بقصة جهود الإنسان وجهاده ساعياً إلى اكتشاف مجاهيل الكوكب الأرضي مرتاداً آفاقاً جديدة، رغبة في إدراك بعض أسرار الكون وفهم سلوك البشر وطرائق عيشهم وغرائب المخلوقات وعجائب الموجودات." (٣)

---

(١) خطاب الرحلة، الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة ٨.

(٢) فن الرحلة، دراسات نقدية لمجموعة من النقاد تحرير بوقراط طيب، دراسة الأستاذة حرايز العلجة بعنوان: تواشج التمثلات المعرفية في الرحلة المغربية "الرحلة الحجازية" للحضيكي نموذجا ص٩٣.

(٣) الرحلة وفتنة العجيب بين التلقي والكتابة ١٥.

لقد شكّل أدب الرحلة "مزيجاً من عناصر الفكر والأدب والإبداع، وعكس تفاعلاً بين رؤية العين وإبصار المخيلة أو القلب، ويعزز هذا التوجه في الفهم، كون تلك الرحلات قد صيغت بأسلوب أدبي جميل، وذلك بانتقاء أجزل الألفاظ وأعذبها، والارتقاء بالوصف من المألوف إلى الغريب والعجيب في البلاغة والتركيب، علاوة على ما قد يستعين به الرحالة –أحياناً–من أسلوب قصصي سلس ومشرق وشائق." (١)

مما جعل الرحلة المكتوبة تتبوأ " مكانا خاصا ضمن الأجناس الأدبية...فكانت فنا نثريا قائما تجاوز بحضوره مختلف الأطر الأدبية إلى أطر معرفية رحبة."(٢) هذه الأطر المعرفية الرحبة أنتجت خطابا له تجليات متنوعة يمكن استثمارها في الحقول الأدبية أولا –كما هو شأننا الان– ومدّها إلى الدراسات البينية المحايثة. (٣)

(١) الرحلة وفتنة العجيب بين التلقي والكتابة ٥٧.

(٢) أدب الرحلات عند العرب، حسني محمود حسن، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط١، ص١٠.

(٣) لعل من المناسب التنويه إلى أن انفتاح النص الرحلي على عدد من العلوم يهيئه ليكون مفتاحا لإقامة دراسات بينية تمتن من العلاقة بين أفرع العلوم المختلفة انطلاقا من نص واحد، وذلك مثل علم الأنثربولوجيا والاجتماع والجغرافيا والتاريخ...وغيرها. وقد أشار كتاب: دليل الدراسات البينية العربية في اللغة والأدب والإنسانيات [للدكتور نور الدين بنخود مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية] إلى أهمية هذا النوع من الدراسات.

إن معنى أدب الرحلة وفقا للمطارحة السالفة:

"مجموعة الآثار الأدبية والفكرية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد."[(١)]

أو هو: "ذلك النثر الذي يصف رحلة -أو رحلات-واقعية، قام بها رحال متميز، موازنا بين الذات والموضوع، من خلال مضمون وشكل مرنين، بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه."[(٢)]

ولا يمكن الإحاطة بنماذج الرحلات التي تنضوي تحت هذا المفهوم، لكثرتها وتنوعها، غير أنه يمكن الإشارة إلى بعض النصوص الصالحة للتمثيل بوصفها نصوصا رحلية/أدبية:

---

(١) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، كامل المهندس ووجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٧٤م ، ص١٧. وينظر: معجم مصطلحات النقد الأدبي المعاصر لسعيد علوش ص ٦٣٤، وينظر مبحث "مفهوم أدب الرحلات" في كتاب: الرحلة وفتنة العجيب ص٤٩. وعموما؛ فإنه يثار جدل طويل حول التعريف الدقيق لأدب الرحلة حاله حال أجناس الأدب المتعددة ويمكن لطالب المزيد الرجوع إلى كتاب الرحلة في الأدب العربي لشعيب حليفي ص٤٠ و ٨٠.

(٢) الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ٤١ . ووضْع المؤلف كلمة "واقعية" في التعريف مثار جدل، لأن هناك من يرى إدخال الرحلات الخيالية في أدب الرحلات. ينظر على سبيل المثال كتاب: الرحلة في الأدب العربي ص٨٠ و٣٩٩.

– رحلة: تحفة النظار في غرائب الأمصار لابن بطوطة، درسها شعيب حليفي في كتابه: الرحلة في الأدب العربي. كما استعرضها الأستاذ محمود رداوي في كتابه الرحلات العربية والإسلامية وأعلامها في الأدب العربي القديم والمعاصر.

– رحلة: ماء الموائد لأبي سالم العياشي حللها الناقد سعيد جبار في كتابه خطاب الرحلة الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة.(١)

– رحلة المقدسي التي درسها ناصر الموافي في كتابه: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري.

– رحلة ابن فضلان التي درسها شعيب حليفي في كتابه: الرحلة في الأدب العربي. وبوشعيب الساوري في كتابه: الرحلة والنسق دراسة في إنتاج النص الرحلي: رحلة ابن فضلان نموذجا.

– رحلة أمين الريحاني التي درستها فاطمة بوطبسو في أطروحة ماجستير بعنوان: أدبية الخطاب في رحلة نور الأندلس لأمين الريحاني.

– رحلة السيرافي والغرناطي التي درستها أريج السويلم في كتابها: السرد الرحلي والمتخيل لدى السيرافي والغرناطي.

---

(١) خطاب الرحلة، الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة. الصفحات: ٤٢ و ١١٦ و ١٥٠. ونظرا لموقع رحلة العياشي أدبيا فقد حظيت باهتمام الدارسين، ينظر: حمد الجاسر في كتابه مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد). ومحمود رداوي في كتابه الرحلات العربية والإسلامية وأعلامها في الأدب العربي القديم والمعاصر ص٨١. وخالد التوزاني في كتابه الرحلة وفتنة العجيب ص١٠٣.

وهي نماذج تمثيلية لا تستقصي كل ما هو مدروس في فضاء الأدب الرحلي في العصر الحديث.

– السمات الفنية للنصوص الرحلية:

وعطفا على أن النص الرحلي شكل لغوي متحول من الفعل إلى التلفظ، وأنه ينطوي على سمات تدعم تركيبته الأدبية مثل: توظيف اللّغة الجمالية، وتفعيل الجانب القصصي، وإبراز عنصر الذاتية؛ "وغلبة سرود العيان على الخبر، والسرد السيري، والانفتاح على العجائبي والأسطوري"[(١)]، وتضمنه "للاقتباسات والإحالات والأصداء"[(٢)]، واحتوائه على العناصر الحوارية والتهجينية التي تعطيه إمكانية الانفتاح على الأنظمة الفكرية والاجتماعية والثقافية السائدة...[(٣)] فقد اجتهد النقاد في فحص هذه الإمكانات، فوجدوا فيها مادة تستحق التحليل الأدبي بوصفها لوحة تفاعلية تجمع بين السرد والوصف والتقرير والحوار، وتنزع نحو التقاط العجيب، وتدوين الغريب، وبث الرؤى الخلاقة "في قالب تنصهر فيه معالم الأدبية مع المعالم الفكرية والمعرفية حيث تتنوع المعطيات والمواد بتنوع الدوافع والأغراض بما يكون ويقصد صاحب الرحلة...فهو كنز فياض لا يزال في حاجة إلى سبر أغواره التي لم تفض بعد وحسن قراءته وتوجهه إلى تحقيق الإفادة المطلوبة والغاية

(١) السرد السيري والمتخيل لدى السيرافي والغرناطي ١٥.

(٢) درس السيميولوجيا ٦٣.

(٣) ينظر: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر –مستويات السرد–١٣.

المأمولة."[١]

ومع الوعي بأن تلك السمات لا تنطبق على كل نصوص الرحلات؛ إلا أنها تتحقق في كم لا بأس به" وبخاصة تلك الرحلات التي تسعى لتفعيل أدبية النص...التي تثير الرغبة في الدخول إلى هذا الفن الأدبي المميز لتفحص عوالمه المثيرة بصخب المادة المعرفية التي تتأسس من الثقافي والتاريخي والجغرافي والاجتماعي... وكل هذا لا يمكن له أن يكون إلا ضمن مادة حكائية تعتمد على عناصر سردية مستلهمة من حقل الأدب الذي يصر – دوما–على ملاحقة القارئ ببراعة تركيبه وجمال بنائه" [٢] وذلك عبر تحويل التجربة "من وقائع ومشاهدات إلى تذكر ثم إلى فعل الكتابة"[٣] الذي يجعل النص الرحلي يدخل تحت مظلة الأدبية.

لقد أفرز الفحص للمدونة الرحلية عن كم كبير من النصوص المنطوية على لفيف واسع من الصياغات المتقاطعة مع التكوين البنيوي لطريقة الحكي/القص بتوافر أهم عناصر منظومة القص، وهما: الوصف والسرد.

ولا يقف الأمر عند هذين العنصرين، إذ التنوع الخلاق الذي تتميز به النصوص الرحلية جعلها تتسم بالحيوية والدينامية "فمن سرد قصصي إلى

---

(١) فن الرحلة، دراسات نقدية لمجموعة من النقاد، مقدمة الكتاب بقلم بوقراط طيب ص١٣.

(٢) فن الرحلة، دراسات نقدية لمجموعة من النقاد تحرير بوقراط طيب، دراسة الدكتورة جميات منى بعنوان: تمفصلات العجائبي في أدب الرحلة المغربية ص ٦٣.

(٣) الرحلة في الأدب العربي ٤٠٠.

حوار داخلي وخارجي إلى وصف جذاب، ومن حديث عن النفس إلى تسجيل لمظاهر الحياة وطبائع الناس وطبيعة البلدان، ومن تصوير واقعي إلى جنوح إلى خيال يصل في كثير من الأحيان، إلى حد الأسطورة." [١]

وهذا التنوع بين الأساليب يعكس حوارا "—بوعي أو بدون وعي–بين أنماط الكلام، الذي امتزج فيه العامي بالفصيح، الدخيل بالأصيل، العلمي بالأدبي، التاريخي بالجغرافي، السياسي بالإيديولوجي، المقدس بالمدنس، السردي بالوصفي، الناطق بالصامت، الداخل بالخارج، المكتوب بالمرسوم، المرئي بالمسموع."[٢]

ولا تخرج المدونات الرحلية عن الإطار السردي الذي نجده في جنس الرواية أو القصة، إذ "تشكل الرحلة شكلاً من عموم الأشكال الأدبية السردية التي تقوم على هذه الثلاثة: وهي القصة أو الحكاية العامة لمجريات السفر، والخطاب الذي يعد القناة السردية، لتمرير هذه القصة نحو ملتقى [معين] ، وهي النص الذي يتعانق مع سابق لولا حقها النصوص المختلفة، وكذلك المتجاورة وغيرها من الحيثيات التي تجعل الرحلة نصا متفاعلاً." [٣]

ولا يعني هذا إمكانية تحديد نمط مألوف لشكل الرحلة المتبع إذ "لم يتفق الرحالون —أو النقاد–على شكل معين —فضلا عن مضمون معين–يمكن

(١) الرحلة إلى بلاد الحجاز في الأدب المصري الحديث ٣٤.

(٢) أدبية الرحلة٤٠.

(٣) أدب الرحلة الجزائري الحديث ٨٥.

احتذاؤه، ومن هنا فإن كل محاولة للدراسة هذا النوع الأدبي لابد أن تصطدم بعقبة "عدم الانضباط المنهجي" ولابد أن تعترف بها؛ لأن الزعم بغير ذلك ينطوي على عدم فهم حقيقي لهذا النوع." [١] وهذا أمر مفهوم في عالم الإبداع الذي يمكن تحديد معالم قوله لا طريقة أدائه.

وطالما أننا معنيون هنا بتحديد شكل النص الرحلي فلا أقل من أن نلتمس رؤية أحد النقاد العرب المميزين في هذا المجال وهو الباحث عيسى بخيتي في كتابه: أدب الرحلة الجزائري الحديث حيث التمس أهم التقنيات الفنية المميزة لهذا الجنس عن غيره من الأجناس الأدبية؛ فوجد أن العناصر التي تجعل النص الرحلي نصا أدبيا منفردا عن بقية الأجناس هي مسألة الهيمنة:

هيمنة بنية السفر، وهيمنة السرد الذاتي.

ويتحدد مفهوم الهيمنتين من خلال العديد من الملاحظات التوضيحية الصالحة لأن تكون منطلقا للتفكير التجنيسي التي تضمنتها مقاربته. [٢]

إن تحديد بنية السفر كبنية أساسية في مفهوم أدبية النص الرحلي يجعل الرحلات الخيالية الصرفة كحكاية حي بن يقظان أو رسالة أبي العلاء المعري أو المقامات الأدبية خارج إطار هذا الجنس، كما إن تحديد هيمنة السرد الذاتي (تذويت الأشياء) يجعل العديد من الرحلات التسجيلية الصرفة التي

---

(١) الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ٤٧.

(٢) ينظر: أدب الرحلة الجزائري الحديث ١١٤.

تهتم بتتبع الأماكن ووصف مراحل ارتياد الآفاق خارجة –أيضا–عن هذا التحديد[(١)].

وإذا كانت النصوص الأدبية في العموم تشترط بروز الذاتية في النص المكتوب فإن النص الرحلي يحقق هذا الشرط عبر مزجه بين ما هو ذاتي وموضوعي حيث " يتأرجح بين الذات والتعبير عن هواجسها وانفعالاتها خلال مسار الرحلة، وبين الوصف الموضوعي لما شاهده أو عاينه أو سمعه (الرحالة) في الفضاءات التي مر بها خلال رحلته. وبناء على ذلك فإن ملفوظ الرحلة يكون قابلاً لاستيعاب الملفوظات المختلفة التي يستحضرها الرحالة – السارد دون أن يخل ذلك بالانسجام العام لخطابها. "[(٢)]

كما يؤدي ذلك إلى التوازن في "الجانب البنيوي الذي يعمد إلى التوافق الداخلي والخارجي للنص، أي الذاتي والموضوعي،"[(٣)] لأن "الرحال المتميز الذي يجيد وصف رحلته، سوف يحقق كافة العناصر الفنية التي تكفل

---

(١) للتوسع؛ يمكن الرجوع إلى كتاب: الرحلة في الأدب العربي ١٢٦ و ٣٠٢، وكتاب السرد الرحلي والمتخيل ٣١. ومن باب التمثيل على رحلات لا تحمل صفة الأدبية حسب محددات هذا البحث كتاب: أيام في الجزيرة رحلتي إلى الحجاز ونجد رحلة العلامة أحمد محمد شاكر للجزيرة العربية عام ١٣٦٨هـ، تحقيق وتعليق أشرف عبد المقصود، مركز الوراق، الكويت، ط١، ١٤٣٩هـ، حيث لا تعدو أن تكون تدوينا ليوميات لا أثر فيها للذاتية ولا للبنية القصصية.

(٢) خطاب الرحلة، الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة ٢٩.

(٣) أدب الرحلة الجزائري الحديث ١٨٤.

تماسكها طالما وازن – بدقة–بين أحداث الرحلة وشخصه، فوحدة الحدث وتدرجه ومنطقيته مرتبطة بشخص الرحال وواقعية الرحلة."[١]

ليس هذا فحسب؛ إذ "يضعنا تأمل الرحلة أمام فعلين متلازمين، الفعل التجريبي الواقعي الذي تحقق من خلاله الرحلة في الواقع بانتقال الشخصية عبر فضاءات مختلفة ذهاباً وإياباً؛ والفعل التلفظي الذي نقل الرحلة من فعل إلى ملفوظ قابل للنقل والتداول، وقد توسط هذين الفعلين فعل التذكر الذي استحضر الرحالة من خلاله الفعل الأول ذهنياً."[٢]

بحيث يؤدي التعبير عن تجربة السفر من طريق الكتابة إلى "نوع من الاندماج بين زمن التجربة وزمن تدوينها، اعتماداً على ما بقي محفوراً في الذاكرة، ويؤدي هذا الاندماج، إلى تشكيل نوع من التداخل والتكامل؛ بين ما يراه الكاتب بعينه، وما يرسمه الخيال للمتلقي، وهو يعكس تواصلاً من نوع خاص...حيث يصبح منجز الرحلة نصا جميلا وممتعا"[٣] متضمنا القدر الكافي من التعبير عن العجيب الغريب في النواحي والبلدان ويكون فعلا "فضاء افتتان."[٤]

---

(١) الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ٦٩.

(٢) خطاب الرحلة، الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة ٣٤.

(٣) الرحلة وفتنة العجيب بين التلقي والكتابة ٤٩.

(٤) درس السيميولوجيا ٥٣.

إن صفة الأدبية في نصوص الرحالة العرب تنطبق على جملة واسعة من النصوص المكتوبة في العصر الحديث التي صارت تعي شروط الأدبية، وتقصد إلى الكتابة في هذا الجنس، كما تنطبق على عدد لا بأس به مما كتب قبل العصر الحديث.

ولا يعني هذا التقليل من نصوص الرحالة القدماء في هذا التصنيف؛ فإن بعض كتاباتهم قد اصطبغت بالأدبية بوضوح، بل حققت قدرا عاليا منها؛ لأن "غالبية هؤلاء الرحالة المؤلفين كانوا كتاباً قبل كل شيء فجاءت كتاباتهم يغلب عليها الطابع القصصي، يستندون به إلى الواقع أحياناً ويجنحون إلى الخيال أحياناً أخرى، ويحفلون فيه بالقصص للمتعة التي تسمو به إلى مرتبة الأدب الفني الصرف في أغلب الأحيان." [(١)]

* * *

(١) أدب الرحلة عند العرب ١٦.

الخاتمة:

وبعد، فقد أفضت بنا هذه المطارحة حول حدود الأدبية في نصوص الرحالين العرب إلى تحديد السمات التي بها يتعين أن يكون النص الرحلي نصا أدبيا، متكئين في ذلك إلى المعايير الفنية التي رسمها النقاد للنص الأدبي، والتكوينات الجوهرية للنص الرحلي الذي وجدناه ينطوي على لفيف واسع من المقومات الأدبية بعد أن "خضع انبناء النص الرحلي لمسيرة طويلة من أجل التشكل والتجنس، وتحولت الرحلة من فعل إلى نص وإبداع يستقطب تعددا وتنوعا بمكونات وخصوصيات تكررت بحسب النوع ودرجات الاهتمام والوعي بالكتابة"[1] مما يجعله جديرا بأخذ موقع كنوع أدبي مستقل.

كما أفضت بنا إلى القول بأن حقل الدراسات النقدية ينبغي أن يتسع لهذا النمط الكتابي الواعد، وأن ينهض الباحثون لتعميق الأطر الفنية للوصول إلى تحديد جمالياته، وأن يكون له حض لدى دارسي الأدب الشغوفين بارتياد حقول بحثية لمّا تُستزرع –بما فيه الكفاية–بعدُ.

* * *

(١) الرحلة في الأدب العربي ٤٩٨.

ثبت المراجع:

- أدب الرحلة الجزائري الحديث، د عيسى بخيتي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٧م.
- أدب الرحلة عند العرب، حسني محمود حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٧٦م.
- أدب الرحلة في التراث العربي، فؤاد قنديل، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.
- أدب الرحلات عند العرب، حسني محمود حسن، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط١، بلا تاريخ.
- الأدب وفنونه، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٩، ٢٠١٣م.
- الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي، عبد الفتاح كيليطو، دار الطليعة، بيروت، ط٣، ١٩٩٧م.
- أدبية الرحلة، عبد الرحيم مؤدن، دار الثقافة، ١٩٩٦م.
- أيام في الجزيرة رحلتي إلى الحجاز ونجد رحلة العلامة أحمد محمد شاكر للجزيرة العربية عام ١٣٦٨هـ، تحقيق وتعليق أشرف عبد المقصود، مركز الوراق، الكويت، ط١، ١٤٣٩هـ
- التخييل وبناء الأنساق الدلالية-نحو مقاربة تداولية، د سعيد جبار، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م.
- الحجاز في أدب الرحلة العربي، حافظ محمد شاه، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد، ٢٠١٣م، (مخطوطة).
- خطاب الرحلة: الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة، سعيد جبار، دار رؤية، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م.
- درس السيميولوجيا، رولان بارط، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، المغرب، ط٣، ١٩٩٣م.
- دليل الدراسات البينية العربية في اللغة والأدب والإنسانيات للدكتور نور الدين أحمد بنخود، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سلسلة دراسات بينية، ط١، ١٤٣٦هـ.
- الذاتية في الخطاب السردي: الإدراك والسجال والحجاج، محمد نجيب العمامي، دار محمد علي للنشر، تونس، ط١، ٢٠١١م.
- الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض عام ١٤٢١هـ، دارة الملك عبد العزيز.
- الرحلة إلى بلاد الحجاز في الأدب المصري الحديث دراسة ونقد وموازنة، د. أحمد محمد حنطور، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠١٥م.

- الرحلات، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨٧، ٢٠٠٢م.
- الرحلة وفتنة العجيب بين التلقي والكتابة، د خالد التوزاني، دار السويدي، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٧م.
- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ناصر عبد الرزاق الموافي، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥.
- الرحلة في الأدب العربي: التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، د شعيب حليفي، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- الرحلة وفتنة العجيب بين الكتابة والتلقي، د. خالد التوزاني، دار السويدي، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٧م.
- السرد الرحلي والمتخيل لدى السيرافي والغرناطي، أريج السويلم، دار السويدي، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٧م.
- العالم والنص والناقد، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عصفور، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠١٧.
- فن الرحلة دراسات نقدية، تحرير: بوقراط طيب، دار غيداء، الأردن، ط١، ٢٠١٧م.
- في نظرية الأدب وعلم النص بحوث وقراءات، إبراهيم خليل، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
- اللغة تلك الأداة الثقافية، دانييل ايفيريت، ترجمة د عبد العزيز أبانمي، دار جامعة الملك سعود للنشر، الرياض، ط١، ١٤٣٨هـ.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، كامل المهندس ووجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.
- معجم مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، سعيد علوش، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٩م.
- مفهوم الأدب، تزفيتان تودوروف، ترجمة د منذر عياشي، دار نينوى، دمشق، ط١، ٢٠١٧م.
- مقدمات في نظرية الأنواع الأدبية، رشيد يحياوي، وكالة الصحافة العربية، ٢٠١٦م.
- مقدمة في نظرية الأدب، عبد المنعم تليمة، دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.
- ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي، حمد الجاسر، دار الرفاعي، الرياض، ط٢، ١٩٨٣م.
- نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد د محمد العمري، دار أفريقيا الشرق، المغرب، ط١، ٢٠٠٥م.

* * *

دلالة الفعل كاد وحال خبرها بين النحاة والمفسرين

د. صلاح بن عبدالله ين عبدالعزيز بوجليع
قسم اللغة العربية
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء

دلالة الفعل كاد وحال خبرها بين النحاة والمفسرين

د. صلاح بن عبدالله ين عبدالعزيز بوجليع
قسم اللغة العربية – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء

تاريخ تقديم البحث: ٨/ ٦/ ١٤٤١ هـ تاريخ قبول البحث: ١٠/ ٢/ ١٤٤٢ هـ

ملخص الدراسة:

يتحدث البحث عن قضية دلالية تختص بالفعل "كاد " وحال خبرها بين النحاة والمفسرين.

ويهدف البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

ما أقوال النّحاة في هذه المسألة؟ وما محل النزاع بينهم؟ وهل يتفق المفسرون مع النحاة فيما اختلفوا فيه؟ وهل يتفق المفسرون مع النحاة فيما اتفقوا عليه؟ وهل هناك معانٍ أخر لدلالة "كاد" عند المفسرين؟ وهل النّحاة متأثرون بالتفسير القرآني أم التفسير القرآني متأثر بأقوال النحاة؟ و أيّ هذه الأقوال أقرب إلى الاستعمال اللّغوي؟ وما القول الراجح؟ –بناء على الدراسة النظرية عند النحاة والتطبيقية عند المفسرين– في دلالة "كاد"؟

قسمت البحث إلى قسمين قبلهما تمهيد، وبعدهما خاتمة، كالتالي:

تمهيد: كاد صيغة ودلالة معجمية.

القسم الأول: دلالة "كاد " وحال خبرها عند النّحاة.

القسم الثاني: دلالة "كاد " وحال خبرها عند المفسرين.

الخاتمة، بينت فيها أهم النتائج التي توصل البحث.

الكلمات المفتاحية: دلالة الفعل "كاد " وحال خبرها –دلالة الفعل "كاد " – المعنى الدلالي للفعل "كاد" – "كاد " عند النحاة والمفسرين.

The connotation of the Arabic verb ‘kaad’ and its predicate between the views of grammarians and Qur’an exegetes

Dr. Salah bin Abdullah bin Abdulaziz bu Gelei’
Department of Arabic Language
College of Shari’a and Islamic studies in Ahsa’

Abstract:

This research discusses the connotative meaning of the Arabic verb "كاد" and the scholarly dispute among grammarians and Muslim exegetes of the Holy Qur’an about the position of its predicate. It seeks to answer the following questions: What are the views of the grammarians about this issue? What are the points of disagreement among them? Do Muslim exegetes subscribe to the grammarians’ views regarding the points they differed? Do the exegetes agree with the grammarians concerning the points they agreed upon? Are there any other senses for the verb "كاد" held by the exegetes? Are the grammarians influenced by the exegetes’ Qur’an interpretations, or were the Qur’anic interpretations influenced by the positions of the grammarians? Which of those sayings is closer to the lexical sense of the verb? What is the most correct saying about the meaning of "كاد" based on the grammarians’ theoretical views and the exegetes’ applied methods? The research consists of a preface, two main sections and a conclusion. The preface analyzes the form and lexical meaning of the verb “كاد”. The section defines the communicative meaning of the verb “كاد” and the grammarians’ views on its predicate. The second section analyses the exegetes’ interpretations of the connotative meaning of the verb "كاد" and the position of its predicate. The conclusion presents the main findings of the research.

key words: Connotation of the Arabic verb ‘kaad’ – connotative meaning of the verb ‘kaad’ – the verb ‘kaad’ between grammarians and exegetes

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإنّ دلالة الفعل "كاد" وحال خبرها من القضايا التي تعددت فيها أقوال النحاة واضطربت، لما فيها من العموم، فيرى بعضهم أنّ إثباتها نفي ونفيها إثبات، ويرى بعضهم أنّ إثباتها نفي ونفيها نفي، فهل الإثبات والنفي متعلقان بدلالة "كاد" وهو القرب، أم بدلالة حصول خبرها؟ فالمسألة تحتاج إلى تحرير محل النزاع، وبيان القول الأقرب إلى الواقع اللغويّ لدلالة "كاد" وحال خبرها.

وقد ظهر أثر ذلك التعدد والاضطراب في تفسيرهم لبعض الآيات، قال ابن أبي العز الهمداني في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾[النور: ٤٠]: "اختلف النحاة في تأويل هذه الآية، واضطربت أقاويلهم فيها، فمنهم من نفى الرؤية، ومنهم من أثبتها، ولم يكشفوا عن حقيقة ذلك"(١).

ولما كان المفسرون أقرب إلى بيان الدلالة من النّحاة، فإنّ معرفة آرائهم في دلالة "كاد" وحال خبرها سيعطي الحكم النّحويّ قوة وتأكيداً؛ لذا جعلت دراسة هذا الموضوع دراسة بينيّة أبين فيها دلالة "كاد"، وحال خبرها عند النحاة والمفسرين، فإنّ هذا النوع من الدراسة سيجمع بين النّظرية والتطبيق في أفصح

(١) الفريد في إعراب القرآن المجيد (٣/٦٠٥).

النّصوص، وهو النص القرآني، وأقصد بالمفسرين: كل من ألّف في تفسير القرآن أو بيان معانيه، وإن كان المؤلِّف معدوداً من علماء النّحو؛ لأنّ بعض النحاة الذين ألفوا في التفسير أو بيان معانيه قد تختلف آراؤهم في التفسير عما قرروه في كتبهم النّحويّة.

ويدل على أهمية الموضوع وحاجته إلى الدراسة النظرية المقترنة بالدراسة التطبيقية، دقة معاني "كاد" وتصرفاتها، قال ابن عطية في تفسيره: «لهذا ونحوه قال سيبويه: "إنّ أفعال المقاربة لها نحو آخر"[1] ، بمعنى: أنها دقيقة التّصرف»[2].

وصغت له العنوان التالي:

"دلالة الفعل «كاد» وحال خبرها بين النّحاة والمفسرين".

ويهدف البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما أقوال النّحاة في هذه المسألة؟ وما محل النزاع بينهم؟
- هل يتفق المفسرون مع النحاة فيما اختلفوا فيه؟
- هل يتفق المفسرون مع النحاة فيما اتفقوا عليه؟
- هل هناك معانٍ أخر لدلالة "كاد" عند المفسرين؟
- هل النّحاة متأثرون بالتفسير القرآني أم التفسير القرآني متأثر بأقوال النحاة؟

---

(١) الكتاب (١٦١/٣).

(٢) المحرر الوجيز (٥٢٣/١٠).

– أيّ هذه الأقوال أقرب إلى الاستعمال اللّغوي؟ وما القول الراجح – بناء على الدراسة النظرية عند النحاة والتطبيقية عند المفسرين– في دلالة "كاد"؟

وقد قسمت البحث إلى قسمين قبلهما تمهيد، وبعدهما خاتمة، كالتالي:

تمهيد: كاد صيغة ودلالة معجمية.

القسم الأول: دلالة "كاد" وحال خبرها عند النّحاة، وبينت فيه ما يلي:

– أقوال النحاة وأدلتهم.

– بيان حقيقة قول النّحاة: "كاد" إثباتها نفي ونفيها إثبات.

– بيان الموضع الذي يختلف فيه النّحاة في دلالة "كاد".

– بيان المواضع التي يتفق فيها النّحاة على دلالة "كاد".

القسم الثاني: دلالة "كاد" وحال خبرها عند المفسرين.

وفيه أحصيت الآيات القرآنية التي ذكر فيها الفعل "كاد"، وبلغت ثلاثاً وعشرين آية، بينت فيها أقوال المفسرين، وقارنتها بأقوال النحاة، ورتبتها على النحو التالي:

– دلالة "كاد" المثبتة وحال خبرها عند المفسرين.

– دلالة "كاد" المنفية وحال خبرها عند المفسرين.

– دلالة "يكاد" المثبتة وحال خبرها عند المفسرين.

– دلالة "يكاد" المنفية وحال خبرها عند المفسرين.

الخاتمة، بينت فيها أهم النتائج التي توصل البحث إليه.

الدراسات السابقة:

سبق هذا البحث بحثٌ لأستاذي الأستاذ الدكتور أحمد مطر العطية بعنوان: "كاد استعمالاتها ودلالتها"[1] ، والفرق بين هذه الدراسة ودراستي من وجهين:

الأول: أنّ دراستي تركّز على دلالة الفعل "كاد" في نفسها وفي خبرها، بخلاف الأخرى فهي تدرس الدلالة والاستعمال.

الثاني –وهو الأهم–: أنّ دراستي بينية: بين النحاة والمفسرين، والأخرى تدرس الدلالة من خلال آراء النّحويين فقط.

* * *

(١) طبع في كتابه: "دراسات في النحو واللغة" البحث الخامس.

تمهيـد

كاد صيغة ودلالة معجمية

تناول أصحاب المعاجم اللغوية وكتب الغريب دلالة الفعل "كاد" من جهتين:

الأولى: دلالتها في نفسها دون النظر إلى خبرها.

الثانية: حال خبرها من حيث الوقوع وعدمه.

فأما دلالتها في نفسها فترجع عندهم إلى الهم بالشيء والقرب منه:

قال أبو بكر الأنباري: "والمشهور في كدت مقاربة الفعل"(١).

وقال أبو بكر الزبيدي الأندلسي: "كاد يكود كوداً ومكادة بمعنى: همّ"(٢).

وقال ابن سيده: "كاد كوداً ومكاداً ومكادة: هم وقارب"(٣).

وقال الراغب الأصفهاني: "ووضع كاد لمقاربة الفعل"(٤).

وقال ابن منظور: "كاد وضعت لمقاربة الشيء فعل أو لم يفعل"(٥).

---

(١) الأضداد (٩٨).

(٢) مختصر العين (٤٤/٢).

(٣) المحكم والمحيط الأعظم (٩٥/٧).

(٤) المفردات في غريب القرآن (٤٤٥).

(٥) لسان العرب (٤٤٨/٥).

وذكر ابن فارس معنى دقيقاً للفعل "كاد" جعله أصلاً لدلالة "كاد"، وهو أنها تدل على التماس شيء بعناء، فقال: "الكاف والواو والدال كلمة كأنها تدل على التماس شيء ببعض العناء"(١).

وهو بهذا لا ينفي دلالتها على القرب، ولكنه يشير إلى أنّ هذا المعنى لا ينفك عن دلالة "كاد"، بدليل أنه أثبت لها معنى القرب فقال: "... فأما قولهم في المقاربة: كاد، فمعناها قارب"(٢).

وعدم انفكاك هذا المعنى الذي ذكره عن دلالة "كاد" يتضح في حال خبرها، فإنّ خبرها إذا وقع فيقع بعد عناء، وإذا لم يقع فإنما هو أيضاً بسبب العناء في وقوعه، فيفسر لنا هذا المعنى ما ذكروه في حال خبرها.

وأما حال خبرها من حيث الوقوع وعدمه، فذكروا أنها إذا كانت مثبتة لم يقع خبرها، وإذا كانت منفية وقع خبرها بعد شدة وعناء.

قال ابن فارس: "... فأما قولهم في المقاربة: كاد، فمعناها قارب، وإذا وقعت كاد مجردة فلم يقع ذلك الشيء تقول: كاد يفعل، فهذا لم يفعل، وإذا قرنت بـ"جحد" فقد وقع، إذا قلت: ما كاد يفعله فقد فعله"(٣).

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/١٤٥).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٥/١٤٥).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٥/١٤٥).

وقال أبو بكر الأنباري: "والمشهور في كدت مقاربة الفعل، كدت أفعل كذا وكذا: قاربت الفعل ولما أفعله، وما كدت أفعله معناه فعلته بعد إبطاء"(١).

وقال الراغب الأصفهاني: "ووضع كاد لمقاربة الفعل، يقال: كاد يفعل إذا لم يكن قد فعل، وإذا كان معه حرف نفي يكون لما قد وقع ويكون قريباً من أن لا يكون... ولا فرق بين أن يكون النفي متقدماً عليه أو متأخراً عنه"(٢).

قوله: "ولا فرق.. إلخ" يعني: أنّ خبر كاد المصحوبة بنفي مثبتٌ، سواء تقدم النفي، نحو: ما كاد زيد يقوم، أو تأخر، نحو: كاد زيد ما يقوم.

وقال ابن منظور: "كاد وضعت لمقاربة الشيء فعل أو لم يفعل، فمجردة تنبئ عن نفي الفعل، ومقرونة بالجحد تنبئ عن وقوع الفعل"(٣).

واقتصر بعضهم على ذكر حال خبرها إذا كانت مثبتة فقط، ومنهم:

الجوهريّ، فقال: "كاد يفعل كذا، يكاد كوداً ومكادة، أي: قارب ولم يفعل"(٤).

وابن الهائم، فقال: "يكاد: يهم ولم يفعل"(٥).

---

(١) الأضداد (٩٨).

(٢) المفردات في غريب القرآن (٤٤٥).

(٣) لسان العرب (٤٤٨/٥).

(٤) الصحاح (٢/ ٥٣٢).

(٥) التبيان في تفسير غريب القرآن (٥٦).

فتبين مما سبق أنّ دلالة "كاد" في نفسها ترجع في اللغة إلى الهمّ بالشيء والقرب منه بعناء، وأنّ خبرها منفيٌّ إذا كانت مثبتة، ومثبت ببطء وشدة إذا كانت منفية، هذا هو أصلها في اللغة.

ويبقى السؤال المهم، هل التزم النّحاة والمفسرون بهذا الأصل اللغوي للفعل "كاد"؟ الجواب عن ذلك سيكون من خلال دراسة القسمين التاليين بإذن الله تعالى.

* * *

القسم الأول: دلالة الفعل «كاد» وحال خبرها عند النحاة

دلالة الفعل «كاد» وحال خبرها

لا يختلف النّحاة في دلالة "كاد" على المقاربة، فهي عندهم بمعنى: قارب، وإنما وقع الخلاف بينهم في حال خبرها من حيث وقوعه وعدم وقوعه:

فيرى بعض النحاة أنّ "كاد" في الإثبات تدلّ على الإثبات، وفي النفي تدلّ على النفي. وممن قال بهذا الزجاجي وابن الحاجب والرضيّ وأبو حيّان(١).

وينطلق أصحاب هذا الرأي من: القياس، فالفعل "كاد" يدل على هذا المعنى قياساً على بقية الأفعال في أنّ إثباتها إثباتٌ لمعناها، ونفيها نفي لمعناها.

فيكون عندهم معنى "كاد زيد يقوم" أي: قارب القيام ولم يقم.

ومعنى "لم يكد زيد يقوم" أي: لم يقارب القيام فضلاً عن أن يصدر منه(٢).

ويرى بعض النحاة أنّ "كاد" في الإثبات تدل على النفي، وفي النفي تدل على الإثبات ببطء، بخلاف سائر الأفعال. وبه قال ثعلب وابن جني وابن خروف والعكبري وابن يعيش(١).

---

(١) الجمل للزجاجي (٢٠١)، وشرح المفصل لابن الحاجب (٨٨/٢)، وشرح الكافية القسم الثاني (١٠٨١/٢)، والارتشاف لأبي حيّان (١٢٣٥/٣).

(٢) شرح المفصل لابن الحاجب (٨٨/٢)، وشرح الكافية القسم الثاني (١٠٨١/٢)، والارتشاف لأبي حيّان (١٢٣٥/٣).

وحجتهم: أنّك إذا قلت: "كاد زيد يقوم" أو "يكاد زيد يقوم" فالقيام غير حاصل، ولا معنى للنفي إلا ذلك؛ لأنّ النفي يتعلق بخبرها(٢).

ومما يدل على أنها تفيد الإثبات بعد النفي: قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾[البقرة: ٧١]، أي: وقد فعلوا.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[النور: ٤٠]. والمعنى: أنّه مع شدة الظلمة إذا أحدّ نظره إلى يده وقرّبها من عينه رآها(٣).

ويرى بعض النحاة التفريق في النفي بين المضارع والماضي، فنفي المضارع نفي، ونفي الماضي إثبات.

بدليل: قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾، أي: وقد فعلوا.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[النور: ٤٠]، مع أنّه لم ير شيئاً.

وممن قال بهذا الرأي ابن أبي الربيع(٤).

ويرى ابن مالك أنّ "كاد" في الإثبات تدل على لإثبات، وفي النفي تدل على النفي، إلا أنّها في النفي قد تدل على الإثبات ببطء وعسر. فجمع بين

---

(١) مجالس ثعلب (١٤١-١٤٢)، وشرح الجمل لابن خروف (٨٣٨/٢)، والمتبع في شرح اللمع للعكبري (٥٦٠/٢)، وشرح المفصل لابن يعيش (٤٠٢/٣)، ورأي ابن جني في التذييل والتكميل (٣٦٧/٤).

(٢) شرح الجمل لابن خروف (٨٣٨/٢)، والمتبع في شرح اللمع للعكبري (٥٦٠/٢)، وشرح المفصل لابن يعيش (٤٠٢/٣).

(٣) التذييل والتكميل (٣٦٧/٤)، وتمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد (١٢٨٧/٣).

(٤) رأيه في البرهان في علوم القرآن (١٢٠/٤).

القولين الأول والثاني. قال في شرح التسهيل متحدثاً عن "كاد" و"يكاد": «والصحيح أنّ إثباتهما إثبات للمقاربة، ونفيهما نفي للمقاربة. فإذا قيل: "كاد فلان يموت" فمقاربة الموت ثابتة، والموت لم يقع، وإذا قيل: "لم يكد يموت"، فمقاربة الموت منفية، ويلزم من نفي مقاربة الموت نفي وقوعه بزيادة مبالغة... وقد يقول القائل: "لم يكد زيد يفعل"، ويكون مراده أنّه فعل بعسر لا بسهولة، وهو خلاف الظاهر الذي وضع له اللفظ أولاً»(١).

وقول ابن مالك: «إثباتهما إثبات للمقاربة، ونفيهما نفي للمقاربة» يجعلنا نطرح سؤلاً مفاده: هل الإثبات والنفي يتعلقان بالفعل "كاد" أو بخبرها؟

إذا تأملنا كلام ابن مالك فسنجد أنّ الإثبات والنفي عنده يتعلقان بمعنى "كاد"، وهو القرب، فإثبات كاد إثبات لمعناها، وهو القرب، ونفيها نفي لمعناها، وهو القرب. فقوله: إثباتها إثبات ونفيها نفي يعود إلى معنى "كاد"، وأما خبرها فلا ينطبق عليه ما ذكر، بل هو منفي عنده بعد "كاد" المثبتة، وأما بعد "كاد" المنفية فالأكثر نفيه، ويجوز بقلة إثباته.

فإذا تقرر المثبت والمنفي عند ابن مالك بقي علينا لزاماً أن نعرف ذلك عند بقية النحاة أصحاب الأقوال الأخرى؛ حتى نحرر محلّ النزاع في المسألة.

فأما من قال: إنّها في الإثبات تدل على الإثبات، وفي النفي تدلّ على النفي فواضح من أمثلتهم أنّ الإثبات والنفي عندهم يتعلقان بالفعل "كاد"؛

(١) شرح التسهيل (٣٩٩/١).

إذ جعلوا معنى "كاد زيد يقوم" أي: قارب القيام ولم يقم، ومعنى "لم يكد زيد يقوم" أي: لم يقارب القيام فضلاً عن أن يصدر منه. وهو ما أراده ابن مالك.

والفرق: أنّ ابن مالك أجاز بقلة إثبات مضمون الخبر، فجمع بين القولين الأول والثاني.

وأما القول بأنّ "كاد" في الإثبات تدل على النفي، وفي النفي تدل على الإثبات ببطء، بخلاف سائر الأفعال فالإثبات والنفي عند أصحاب هذا القول يتعلقان بالخبر؛ فقد احتجوا لقولهم: بأنّك إذا قلت: "كاد زيد يقوم" أو "يكاد زيد يقوم" فالقيام غير حاصل، ولا معنى للنفي إلا ذلك؛ لأنّ النفي يتعلق بخبرها.

وأما القول بالتفريق في النفي بين المضارع والماضي، فنفي المضارع نفي، ونفي الماضي إثبات؛ فبدليل: قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾[البقرة: ٧١]، أي: وقد فعلوا. وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[النور: ٤٠]، مع أنّه لم ير شيئاً. فواضح في أنّ الإثبات والنفي عندهم يتعلقان بالخبر.

ومن هذا العرض يتبين لي: أنّ القول بأنّ "كاد" في الإثبات تدل على الإثبات وفي النفي تدل على النفي، والقول بأنها في الإثبات تدل على النفي وفي النفي تدل على الإثبات قولان صحيحان باعتبارين مختلفين:

فأما الأول: فباعتبار أنّ الإثبات والنفي يتعلقان بمعنى كاد، وهو القرب، فإثبات كاد إثبات للقرب، ونفيها نفي للقرب. وهذا المفهوم لا أعلم فيه خلافاً

بين النحاة؛ إذ لم يقل أحد بأنّ إثبات كاد نفي للقرب، وأن نفي كاد إثبات للقرب.

قال أبو حيان: «وقال بعضهم: إنها مع الإثبات نفي، ومع النفي إثبات. وهذا إن أضافه إلى دلالة اللفظ بوضعه فقد أخطأ»(١).

وأما الثاني: فباعتبار أنّ الإثبات والنفي يتعلقان بالخبر، فيكون معنى "كاد زيد يقوم": ثبوت القرب ونفي القيام. وهذا المفهوم أيضاً لا أعلم فيه خلافاً بين النحاة.

ومعنى "ما كاد زيد يقوم": نفي القرب. وهل يفيد نفي الخبر أم إثباته؟ هنا وقع الخلاف بين النحاة:

فمنهم من يرى أنها في هذه الحالة تفيد نفي الخبر. فيكون معنى قولنا: "ما كاد زيد يقوم" بمعنى: لم يقم.

ومنهم من يرى أنّها في هذه الحالة تفيد إثبات الخبر ببطء. فيكون معنى: "ما كاد زيد يقوم" أي: قام ببطء وعسر.

ومنهم من يرى أنها في هذه الحالة تفيد نفي الخبر، وقد تفيد إثباته ببطء.

ومنهم من يرى التفريق في هذه الحالة بين المضارع والماضي، فنفي المضارع نفي للخبر، ونفي الماضي إثبات للخبر.

وقد تقدمت هذه الأقوال الأربعة بأدلتها ومنسوبة لأصحابها.

---

(١) التذييل والتكميل (٤/٣٦٩).

فإذا تبين محل النزاع في هذه المسألة عند النحاة، وهو حكم خبر كاد المنفية، خرج بذلك أمران يمكن ادعاء الاتفاق عليهما عند النّحاة:

الأول: كون معنى "كاد" وهو القرب مثبت في الإثبات، ومنفي في النفي.

والثاني: نفي خبر "كاد" المثبتة.

* * *

القسم الثاني دلالة الفعل «كاد» وحال خبرها عند المفسرين

دلالة «كاد» المثبتة وحال خبرها عند المفسرين

ذكرت أنّ الفعل "كاد" عند النحاة إذا كان مثبتاً فإنّ المقاربة ثابتة والخبر منفيّ، وأقوال المفسرين متفقة مع هذه الدلالة لـ"كاد" المثبتة في الغالب، ويتضح ذلك من خلال أقوالهم في تفسير الآيات التالية:

١ – ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾[الأعراف: ١٥٠].

قال الطبري: «قاربوا ولم يفعلوا»(١).

وقال الثعلبيّ: «هموا وقاربوا»(٢).

وقال الواحدي: «وهمّوا»(٣). والهم بالشيء يعني: عدم فعله.

وقال ابن عطية: «قاربوا ولم يفعلوا»(٤).

وقال أبو حيان: «قاربوا أن يقتلوه. ودل هذا على أنه بالغ في الإنكار عليهم حتى هموا بقتله»(٥).

فالدلالة التي ذكرها المفسرون للفعل "كاد" المثبتة في هذه الآية جاء وفق ما تقرر لها عند النحاة.

٢ – ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾[التوبة: ١١٧].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦٠/١٠).

(٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٥٣٥/١٢).

(٣) التفسير البسيط (٣٥٥./٩).

(٤) المحرر الوجيز (٨٩/٦).

(٥) البحر المحيط (٢٧٢/١٣).

قال الواحدي: «وقال الكلبي: هم أناس من المسلمين هموا بالتخلف ثم لحقوه»[(١)].

وقال البغوي: «لم يرد الميل عن الدين، بل أراد الميل إلى التخلف والانصراف للشدة التي عليهم. قال الكلبي: هَمّ ناسٌ عن التخلف ثم لحقوه»[(٢)].

قال أبو حيان: «و"كاد" تدل على القرب، لا على التلبس بالزيغ»[(٣)].

وقال محمد الطاهر ابن عاشور: «هذا الزيغ لم يقع، ولكنه قارب الوقوع»[(٤)].

فالدلالة التي ذكرها المفسرون للفعل "كاد" المثبتة في هذه الآية جاء وفق ما تقرر لها عند النحاة.

٣-﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾[الإسراء: ٧٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ولو فعلت ما دعوك إليه من الفتنة عن الذي أوحينا إليك لاتخذوك إذاً لأنفسهم خليلاً، وكنت لهم وكانوا لك أولياء»[(١)].

---

(١) التفسير البسيط (١١/٧٣).

(٢) معالم التنزيل (٤/١٠٥).

(٣) البحر المحيط (١٤/٤٨٧).

(٤) التحرير والتنوير (٥/٥٠).

وقال الثعلبي: «وقال قتادة: ذكر لنا أنّ قريشاً خلوا برسول الله ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه... ، فما زالوا يكلمونه حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله **لأ** من ذلك، فأنزل الله هذه الآية»(٢).

وقال الواحدي: «ومعنى كادوا: هموا وقاربوا ذلك»(٣).

فالدلالة التي ذكرها المفسرون للفعل "كاد" المثبتة في هذه الآية جاء وفق ما تقرر لها عند النحاة.

٤-﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[الإسراء: ٧٤-٧٥].

قال الطبري: «يقول: لقد كدت تميل إليهم وتطمئنّ شيئاً قليلاً، وذلك ما كان ه همّ به من أن يفعل بعض الذي كانوا سألوه فعله، فقال رسول اللهه: (... **لا تكلني إلى نفسي طرفة عين**) »(٤).

وقال ابن الجوزي: «أي: هممت وقاربت أن تميل إلى مرادهم»(٥).

وقال ابن عطية: «ورسول الله لم يركن، ولكنه كاد بحسب همّه بموافقتهم؛ طمعاً منه في استئلافهم»(٦).

---

(١) جامع البيان (١٥/١٥).

(٢) الكشف والبيان (٤٠٦/١٦).

(٣) التفسير البسيط (٣٧٨/١٣).

(٤) جامع البيان (١٦/١٥).

(٥) زاد المسير في علم التفسير (٥٠/٥).

(٦) المحرر الوجيز (١٥٥/٩).

ونفى بعض المفسرين في الآية مقاربة الركون، مع أنّ "كاد" مثبتة، وهي في هذه الحالة تقتضي ثبوت مقاربة الركون ونفي الركون، إلا أنّ بعض المفسرين أخرجوها هنا عن دلالتها اللفظية لقرينة دلت على ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾[الإسراء: ٧٤]. فلم يركن ولم يقارب الركون؛ لتثبيت الله له.

قال البغوي: «فإن قيل: كان النبي معصوماً، فكيف يجوز أن يقرب مما طلبوه، وما طلبوه كفر؟... والجواب الصحيح هو: أن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾[الإسراء: ٧٤]. وقد ثبته الله، ولم يركن. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾[النساء: ٨٣]. وقد تفضل ولم يتبعوا»(١).

وقال أبو حيان: «وجواب لولا يقتضي إذا كان مثبتاً امتناعه؛ لوجود ما قبله، فمقاربة الركون لم تقع منه ﷺ فضلاً عن الركون، والمانع من ذلك هو وجود تثبيت الله تعالى»(٢).

وقال الألوسيّ: «أي: لولا ذلك لقاربت أن تميل إليهم شيئاً يسيراً من الميل اليسير؛ لقوة خدعهم وشدة احتيالهم، لكن أدركتك العصمة، فمنعتك

---

(١) معالم التنزيل (١١٢/٥).

(٢) البحر المحيط (٥١٢/١٧).

من أن تقرب أدنى الأدنى من الميل إليهم، فضلاً عن نفس الميل إليهم. وهذا صريح في أنه لم يهم بإجابتهم ولم يكد»[1].

وقال محمد الطاهر ابن عاشور: «فركون النبي ه إليهم غير واقع ولا مقارب الوقوع، لأنّ الآية قد نفته بأربعة أمور، وهي:

(لولا) الامتناعية، وفعل المقاربة المقتضي أنه ما كان يقع الركون ولكن يقع الاقتراب منه، والتحقير المستفاد من (شيئاً) ، والتقليل المستفاد من (قليلاً).

أي: لولا إفهامنا إياك وجه الحق لخشي أن تقترب من ركون ضعيف قليل، ولكن ذلك لم يقع، ودخلت (قد) في حيز الامتناع، فأصبح تحقيقها معدوماً، أي: لولا أن ثبتناك لتحقق قرب ميلك القليل، ولكن ذلك لم يقع؛ لأنا ثبتناك»[2].

وهذه الدلالة لم يذكرها أحد من النحاة لـ"كاد" المثبتة. وتبين آنفاً أنّ مما اتفق عليه النحاة: أنّ إثبات "كاد" إثبات للمقاربة، ونفي "كاد" نفي للمقاربة.

---

(١) روح المعاني (٣٤/١٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٧٦/٦).

٥-﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾[الإسراء: ٧٦].

روى الطبري عن قتادة أنّه قال: «وقد همّ أهل مكة بإخراج النبي ٥ من مكة، ولو فعلوا ذلك لما توطّنوا، ولكن الله كفّهم عن إخراجه حتى أمره»(١).

ونقل ذلك الثعلبيّ والواحديّ والبغويّ(٢).

ويشكل على هذا التفسير: ما ثبت في القرآن والسنة من أنهم أخرجوه، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾[محمد: ١٣](٣)، وفي الحديث: (**يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك، قال: أو مخرجي هم**)(٤)؟ فدل ذلك على أنّهم أخرجوه.

وقد عرض أبو حيان هذا الإشكال وأجاب عنه فقال: «والظاهر أنّ الآية تدل على مقاربة استفزازه لأن يخرجوه، فما وقع الاستفزاز ولا إخراجهم إياه المعلل به الاستفزاز، ثم جاء في القرآن: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾[محمد: ١٣]، أي: أخرجك أهلها. وفي الحديث: (يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك، قال: أو مخرجي هم) ؟

---

(١) جامع البيان (١٩/١٥).

(٢) الثعلبي في: الكشف والبيان (٤١٣/١٦)، والواحدي في: التفسير البسيط (٣٨٠/١٣)، والبغوي في: معالم التنزيل (١١٢/٥).

(٣) سورة محمد (١٣).

(٤) صحيح البخاري من حديث عائشة ل، رقم (٣) (ص١).

الحديث. فدل ذلك على أنّهم أخرجوه، لكنّ الإخراج الذي هو علة للاستفزاز لم يقع، فلا تعارض بين الآيتين والحديث.

وقال أبو عبد الله الرازي: «ما خرج بسبب إخراجهم، وإنما خرج بأمر الله، فزال التناقض»(١).

وقال محمد الطاهر بن عاشور: «والمعنى: كادوا أن يخرجوك من بلدك، وذلك بأن هموا بأن يخرجوه كرهاً، ثم صرفهم الله عن ذلك؛ ليكون خروجه بغير إكراه حين خرج مهاجراً عن غير علم منهم؛ لأنهم ارتأوا بعد زمان أن يبقوه بينهم حتى يقتلوه»(٢).

فتبين من كلام أبي حيان ومحمد الطاهر بن عاشور أنّ "كاد" المثبتة في الآية باقية على ما تقرر لها من إثبات القرب ونفي الخبر الذي هو الاستفزاز والخروج المترتب على الاستفزاز، وأما الخروج الثابت فهو خروجه ﷺ مهاجراً بأمر الله، لا بسبب الاستفزاز، ولا الإكراه.

٦- ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[الفرقان: ٤٢].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره مخبراً عن هؤلاء المشركين الذين كانوا يهزءون برسول الله ﷺ إنهم يقولون إذا رأوه: قد كاد هذا يضلنا عن آلهتنا التي نعبدها، فيصدنا عن عبادتها لولا صبرنا عليها وثبوتنا على عبادتها»(٣).

---

(١) البحر المحيط (١٦/١٧٥).

(٢) التحرير والتنوير (٥/١٧٨).

(٣) جامع البيان (١٧/٤٥٩).

وقال البغوي: «أي: قد قارب أن يضلنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[الفرقان: ٤٢]، أي: لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها»(١).

وقال الزمخشري: «دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم، وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم، حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم»(٢).

فالدلالة التي ذكرها المفسرون للفعل "كاد" المثبتة في هذه الآية جاء وفق ما تقرر لها عند النحاة.

٧-﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾[القصص: ١٠].

قال الثعلبي: «ومعنى الكلام: إن كادت لتبدي به أنه ابنها من شدة وجدها... ، و﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾[القصص: ١٠] قوينا قلبها، فعصمناها وثبتناها»(٣).

قال الواحديّ: «... إن همت لتشعر أهل مصر بموسى أنّه ولدها»(٤).

وقال البغوي: «أي: كادت لتبدي به أنه ابنها من شدة وجدها... ، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾[القصص: ١٠] بالعصمة والصبر والتثبيت»(١).

---

(١) معالم التنزيل (٦/٨٥).

(٢) الكشاف (٣/٩٣).

(٣) الكشف والبيان (٢٠/٣٩٧).

(٤) التفسير البسيط (١٧/٣١٤).

وقال الألوسي: «والمراد: لولا أن ثبتنا قلبها وصبّرناها... وجواب لولا محذوف دل عليه ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾[القصص: ١٠]، أي: لولا ربطنا على قلبها لأبدته. وقيل: لكادت تبدي به»(٢).

فالدلالة التي ذكرها المفسرون للفعل "كاد" المثبتة في هذه الآية جاء وفق ما تقرر لها عند النحاة.

٨-﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ۝٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٥٧﴾[الصافات].

قال أبو حيّان: «كان قرينه قارب أن يرديه»(٣).

وقال محمد الطاهر ابن عاشور: «والمعنى: أنك قاربت أن تفضي بي إلى حال الردى بإلحاحك في صرفي عن الإيمان بالبعث لفرط الصحبة، ولولا نعمة هداية الله وتثبيته لكنت من المحضرين معك في العذاب»(٤).

فالدلالة التي ذكرها المفسرون للفعل "كاد" المثبتة في هذه الآية جاء وفق ما تقرر لها عند النحاة.

٩-﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ۝١٩﴾[الجن: ١٩].

قال الواحدي: «... اللبد بضم اللام: الكثير، من قوله: ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦﴾[البلد: ٦]، وكأنه قيل له: "لبد" لركوب بعضه على بعض؛ لكثرته

---

(١) معالم التنزيل (١٩٤/٦).

(٢) روح المعاني (١٢١/٢٠).

(٣) البحر المحيط (٥٨/٢٣).

(٤) التحرير والتنوير (١١٨/٩).

ولصوق بعضه ببعض، وكأنه أراد: كادوا يلصقون به من شدة دنوهم للإصغاء والاستماع مع كثرتهم»[1].

وقال محمد الطاهر ابن عاشور: «والكلام على التشبيه، أي: كاد المشركون يكونون مثل اللبد متراصين مقتربين منه، يستمعون قراءته ودعوته إلى توحيد الله»[2].

فهم اقتربوا -بسبب تراصهم وقربهم- من أن يكونوا لبداً، إلا أنهم لم يكونوا كذلك. فالدلالة التي ذكرها المفسرون للفعل "كاد" المثبتة في هذه الآية جاء وفق ما تقرر لها عند النحاة.

* * *

(١) التفسير البسيط (٢٢/٢٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٢٤٢).

دلالة «كاد» المنفية وحال خبرها عند المفسرين

ذكرت أنّ الفعل "كاد" عند النحاة إذا كان منفياً فإنّ المقاربة منفية والخبر فيه أربعة أقوال:

فمنهم من يرى أنها في هذه الحالة تفيد نفي الخبر.

ومنهم من يرى أنّها في هذه الحالة تفيد إثبات الخبر ببطء.

ومنهم من يرى أنها في هذه الحالة تفيد نفي الخبر، وقد تفيد إثباته ببطء.

ومنهم من يرى التفريق بين المضارع والماضي، فنفي الماضي إثبات للخبر، ونفي المضارع نفي للخبر.

ولذلك فصلت بين أقوال المفسرين في "كاد" المنفية بلفظ الماضي و"كاد" المنفية بلفظ المضارع؛ حتى يتبين لنا حقيقة هذا الرأي.

وأقوال المفسرين في المعنى الدلالي للفعل "كاد" المنفية بلفظ الماضي قد اختلفت وتنوعت، ويتضح ذلك من خلال أقوالهم في تفسير الآية التالية:

١ – ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾[البقرة: ٧١].

هذه الآية هي الآية الوحيدة التي وردت فيها "كاد" بلفظ الماضي المنفي، وقد احتج بها من رأى من النحاة أنّ "كاد" المنفية بلفظ الماضي تدل على إثبات الخبر، وكذلك استدل بها من رأى من النحاة أنّها في النفي تدل على إثبات الخبر مطلقاً، لذا كثر الكلام حول هذه الآية، وأصبح من الضرورة معرفة أقوال المفسرين فيها؛ ليتبين لنا الأمر.

قال الطبري: «يعني بقوله: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾[البقرة: ٧١]: فذبح قوم موسى البقرة التي وصفها الله لهم وأمرهم بذبحها. ويعني بقوله: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾[البقرة: ٧١] أي: قاربوا أن يدعوا ذبحها ويتركوا فرض الله عليهم ذلك»(١).

وما ذهب إليه الطبري هو الظاهر من قول الماوردي، فقد قال: «... أنهم كادوا ألا يفعلوا؛ لغلاء ثمنها»(٢).

فعلى هذا التفسير تكون "كاد" المنفية في معنى الإثبات، وأنّ النفي في الأصل موجه إلى الخبر، ثم حصل قلب -تقديم حرف النفي الذي حقه التأخير- في اللفظ، ومثله للتقريب: "ما كاد يفعل"، فأصله: "كاد ما يفعل"، فقدمت "ما".

وهذا مخالف لما اتفق عليه النحاة من أنّ إثبات "كاد" إثبات للمقاربة، ونفيها نفيٌ للمقاربة.

وقد علل محمد الطاهر ابن عاشور مذهب الطبريّ بقوله: «ولعل ذلك من قبيل القلب المطرد، فيكون قولهم: "ما كاد يفعل" "ولم يكد يفعل" بمعنى: كاد ما يفعل. ولا يبعد أن يكون هذا الاستعمال ممن بقايا لغة قديمة من العربية تجعل حرف النفي الذي حقه التأخير مقدماً»(٣).

وظاهر هذا التقدير الذي ذكره الطبريّ أنّه يتعارض مع معنى الآية؛ إذ جعل النفي داخلاً على الفعل، وهو "الذبح"، و"الذبح" حاصل بلا خلاف.

---

(١) جامع البيان (١١٣/٢).

(٢) النكت والعيون (١٤١/١).

(٣) التحرير والتنوير (٥٥٩/١).

والذي يظهر لي: أنّه لا تعارض؛ لأنّ هذا التقدير يقتضي أن تكون "كاد" مثبتة، و"كاد" المثبتة خبرها منفيّ، فإذا دخل عليه حرف نفي صار مثبتاً؛ لأنّ نفي النفي إثبات. وعليه فالطبريّ يثبت الخبر في الآية باعتبار البنية العميقة للجملة لا بسطحيتها.

وقال الزّمخشريّ في تفسير الآية: «﴿فَذَبَحُوهَا﴾[البقرة: ٧١] أي: فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها. وقوله: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾[البقرة: ٧١] استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم، وإنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ما كادوا يذبحونها، وما كادت تنتهي سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم»(١).

فالزمخشريّ في تفسيره يوافق من قال من النحاة: إنّ "كاد" المنفية تفيد إثبات الخبر ببطء.

وبعض المفسرين تأثر بقول من قال من النحاة: إنّ نفي "كاد" نفيٌ لخبرها. وهذا المعنى يتعارض مع مفهوم الآية؛ لأنّ الذبح ثابت باتفاق؛ لدلالة قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾. لذا اختلف تفسيرهم عن تفسير غيرهم، فجعلوا عدم القرب من الذبح في وقت، والذبح في وقت آخر. فتكون "كاد" المنفية عندهم باقية على معناها.

قال البيضاوي في تفسير الآية: «وكاد من أفعال المقاربة وضع لدنو الخبر حصولاً، فإذا دخل عليه النفي قيل: معناه الإثبات مطلقاً، وقيل:

---

(١) الكشاف (٢٨٨/١).

ماضياً. والصحيح أنه كسائر الأفعال. ولا ينافي قوله: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾[البقرة: ٧١] قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾؛ لاختلاف وقتيهما؛ إذ المعنى: أنهم ما قاربوا أن يفعلوا حتى انتهت سؤالاتهم وانقطعت تعللاتهم، ففعلوا كالمضطر الملجأ إلى الفعل»[(١)].

وقال أبو حيان في تفسير الآية: «كنّى عن الذبح بالفعل؛ لأنّ الفعل يكنّى به عن كل فعل، و" كاد" في الثبوت تدل على المقاربة، فإذا قلت: "كاد زيد يقوم" فمعناه: مقاربة القيام ولم يلتبس به، فإذا قلت: "ما كاد زيد يقوم" فمعناه: نفي المقاربة، فهي كغيرها من الأفعال وجوباً ونفياً.

وقد ذهب بعض الناس إلى أنها إذا أثبتت دلت على نفي الخبر، وإذا نفيت دلت على إثبات الخبر، مستدلاً بهذه الآية؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ يدل على ذلك.

والصحيح القول الأول، وأما الآية فقد اختلف زمان نفي المقاربة والذبح؛ إذ المعنى: وما قاربوا ذبحها قبل ذلك، أي: وقع الذبح بعد أن انتفى مقاربته. فالمعنى: أنهم تعسروا في ذبحها، ثم ذبحوها بعد ذلك»[(٢)].

* * *

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٦٩/١).

(٢) البحر المحيط (٥٠٨/٢).

دلالة «يكاد» المثبتة وحال خبرها عند المفسرين

ذكرت أنّ الفعل "يكاد" بلفظ المضارع عند النحاة إذا كان مثبتاً فإنّ المقاربة ثابتة والخبر منفيّ، فهو كالفعل بلفظ الماضي المثبت.

وأقوال المفسرين متفقة مع هذا المعنى في الغالب، ويتضح ذلك من خلال أقوالهم في تفسير الآيات التالية:

١ – ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[البقرة: ٢٠].

قال الطبري: «... عن ابن عباس في قوله: **﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾**[البقرة: ٢٠] قال: "يلتمع أبصارَهم ولما يفعل"»(١).

وقال الثعلبيّ: «أي: يقرب، يقال: كاد: إذا قرب ولم يفعل»(٢).

وقال الواحديّ: «"كاد" موضوع عند العرب لمقاربة الفعل، فإذا نفيت في اللفظ كان في المعنى إثباتاً، وإذا أثبت كان نفياً. بيانه: أنك تقول: "كاد يضربني". فهذا إثبات في اللفظ نفي للضرب؛ لأنّ معناه: قرب من الضرب ولم يضرب. وإذا قلت: "ما كاد يفعل كذا" فهذا نفي في اللفظ إثبات في المعنى؛ لأنّه قرب من ترك الفعل، وقد فعله بعد بطء»(٣).

وقال البغويّ: «أي: يقرب. يقال: كاد يفعل إذا قرب ولم يفعل»(٤).

---

(١) جامع البيان (٣٧٩/١).

(٢) الكشف والبيان (١٤٩/٣).

(٣) التفسير البسيط (١٨٨/٢).

(٤) معالم التنزيل (٧٠/١).

وقال ابن عطية: «و"يكاد" فعل ينفي المعنى مع إيجابه، ويوجبه مع النفي، فهنا لم يخطف البرق الأبصار»(١).

وقال أبو السعود: «"كاد" من أفعال المقاربة، وضعت لمقاربة الخبر من الوجود؛ لتآخذ أسبابه وتعاضد مباديه، لكنه لم يوجد بعد؛ لفقد شرط أو لعروض مانع»(٢).

وقال الألوسي: «"ويكاد" مضارع "كاد" من أفعال المقاربة، وتدل على قرب الخبر، وأنه لم يقع، والأول لوجود أسبابه، والثاني لمانع أو فقد شرط على ما تقتضي العادة به»(٣).

فالدلالة التي ذكرها المفسرون في هذه الآية للفعل "يكاد" المثبتة جاء وفق ما تقرر له عند النحاة.

٢- ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾[الحج: ٧٢].

ظاهر معنى الآية: أنهم لم يسطوا عليهم؛ بناء على ما تقرر عند النحاة من أنّ كاد المثبتة يكون خبرها منفياً، والواقع أن هناك جمعاً من الصحابة قد سُطي عليهم، فهل كاد المثبتة قد لا ينتفي خبرها؟.

لقد تنبّه المفسرون لهذا الإشكال، إلا أنّ أحداً منهم لم يقل بأنّ "كاد" المثبتة قد يكون خبرها مثبتاً، بل حافظوا على المعنى الدلالي الذي تقرر لها عند النحاة،

---

(١) المحرر الوجيز (١/١٩٣).

(٢) تفسير أبي السعود (١/٧٥).

(٣) روح المعاني (١/٤٨٦).

وفسروا الآية بتفسير يجمع بين دلالة الفعل "يكاد" المثبتة وبين الواقع، فحمل بعضهم الآية على الغالب من حالهم، وهو أنّهم في غالب أوقاتهم يكادون يسطون، وإن كان قد وقع منهم سطو في بعض الأوقات، ويتضح ذلك من أقوالهم التالية:

قال ابن عطية في تفسير الآية: «والمعنى: أنهم يكادون يسطون دهرهم أجمع، وأما في الشاذ من الأوقات فقد يسطى بالتّالين، نحو ما فعل بعبد الله بن مسعود»(١).

قال أبو حيان: «أي: هم دهرهم بهذه الصفة، فهم يقاربون ذلك طول زمانهم، وإن كان قد وقع منهم سطو ببعض الصحابة في شاذ من الأوقات»(٢).

وقال الألوسي: «أي: يثبون ويبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب؛ لأباطيل أخذوها تقليداً. ولا يخفى ما في ذلك من الجهالة العظيمة، وكان المراد: أنهم طول دهرهم يقاربون ذلك، وإلا فقد سطوا في بعض الأوقات ببعض الصحابة التالين»(٣).

---

(١) المحرر الوجيز (٣١٩/١٠).

(٢) البحر المحيط (٣٢٤/١٩).

(٣) روح المعاني (٤٠٩/١٧).

وحمل محمد الطاهر ابن عاشور الآية على أمرين:

الأول: أنّ المراد بالذين يكادون يسطون بهم هم من يقرأ عليهم القرآن من المسلمين والرسول، أما الذين سطوا عليهم من المؤمنين فلعلهم غير الذين قرأوا عليهم القرآن.

الثاني: أنّ السطو عليهم لعله كان بعد نزول هذه الآية.

فقد قال /: «ويجوز أن يراد به من يقرأ عليهم القرآن من المسلمين والرسول، أما الذين سطوا عليهم من المؤمنين فلعلهم غير الذين قرأوا عليهم القرآن، أو لعل السطو عليهم كان بعد نزول هذه الآية، فلا إشكال في ذكر فعل المقاربة»(١).

٣- ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾[مريم: ٩٠].

ذكر أبو الحسن الأخفش في تفسير هذه الآية أنّ "يكاد" هنا بمعنى: يردن، فتكون "كاد" عنده بمعنى: الإرادة. وهذا معنى لم يذكره أحد من النحاة.

فقد قال /: «فالمعنى: يردن؛ لأنهن لا يكون أن ينفطرن ولا يدنون من ذلك، ولكنهن هممن به إعظاماً لقول المشركين، ولا يكون على من همّ بالشيء أن يدنو منه. ألا ترى أن رجلاً لو أراد أن ينال السماء لم يدن من ذلك؟ وقد كانت إرادة»(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٣٥/٧).

(٢) معاني القرآن (٤٠٥/٢).

ونقل الواحدي تفسير الأخفش ولم يعقّب عليه فقال: «وأهل التأويل على أن معنى "تكاد" هاهنا: تدنو من الانشقاق، كما يقال: كاد يفعل ذلك إذا دنا من أن يفعله. وزعم أبو الحسن الأخفش أن "تكاد" هاهنا معناه: نريد من غير دنو، فقال: "هممن به إعظاماً لقول المشركين، ولا يكون من همّ بالشيء أن يدنو منه. ألا ترى أنّ رجلاً لو أراد أن ينال السماء لم يدن من ذلك؟ وقد كانت منه إرادة»(١).

وأما أبو حيان فقد نقل تفسير الأخفش وأشار إلى ضعفه وعدم قبوله فقال: «وقال الأخفش: "تكاد": تريد، وكذلك قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[طه: ١٥]. وأنشد شاهداً على ذلك قول الشاعر:

كادت وكدت وتلك خير إرادة لو عاد من لهم الصبابة ما مضى(٢)

ولا حجة في هذا البيت. والمعروف أنّ الكيدودة مقاربة الشيء. وهذه الجمل عند الجمهور من باب الاستعارة؛ لبشاعة هذا القول، أي: هذا حقه لو فهمت الجمادات قدره. وهذا مهيع للعرب»(٣).

٤- ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[طه: ١٥].

قال الطبري: "معنى ذلك: أكاد أسترها من نفسي، وأما وجه صحة القول في ذلك، فهو أنّ الله -تعالى ذكره- خاطب بالقرآن العرب على ما

---

(١) التفسير البسيط (٣٠٨/١٤).

(٢) لم أقف على قائله. وينظر البيت في: الحجة للقراء السبعة (٢١٥/٥)، والمحتسب (٣١/٢)، والبحر المحيط (٤٣٥/١٨).

(٣) البحر المحيط (٤٣٥/١٨).

يعرفونه من كلامهم، وجرى به خطابهم بينهم، فلما كان معروفاً في كلامهم أن يقول أحدهم: إذا أراد المبالغة في الخبر عن إخفائه شيئاً هو له مسرٌّ: قد كدت أخفي هذا الأمر عن نفسي من شدة استسراري به، ولو قدرت أن أخفيه عن نفسي أخفيته، خاطبهم **لأ** على حسب ما قد جرى به استعمالهم في ذلك"(١).

وهذا المعنى عليه أكثر المفسرين(٢)، وهو موافق لدلالة "أكاد" المثبتة.

وذكر أبو الحسن الأخفش في تفسير هذه الآية أنّ "أكاد" هنا بمعنى: أريد. وهذا معنى لم يذكره أحد من النحاة.

فقد قال /: «وزعموا أنّ تفسير "أكاد": أريد، وأنها لغة؛ لأنّ "أريد" قد تجعل مكان "أكاد"، مثل: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[الكهف: ٧٧]، أي: يكاد أن ينقض، فكذلك "أكاد" إنما هي: أريد. وقال الشاعر:

كادت وكدت وتلك خير إرادة لو عاد من لهم الصبابة ما مضى»(٣)

وما ذكره الأخفش أجازه أبو بكر الأنباري فقال: «ويجوز أن يكون المعنى: إن الساعة آتية أريد أخفيها، قال الله **لأ:** ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[يوسف: ٧٦]. فيقال معناه: أردنا»(٤).

---

(١) جامع البيان (٣٨/١٦).

(٢) معالم التنزيل (٢٦٧/٥).

(٣) معاني القرآن (٣٧١/٢).

(٤) الأضداد (٩٨).

وضعّف الطبري القول بأنّ "كاد" بمعنى الإرادة بأنّه توجيهٌ للكلام إلى غير وجهه المعروف، وغير جائز توجيه معاني كلام الله **لأ** إلى غير الأغلب عليه من وجوهه عند المخاطبين به. ففي ذلك –مع خلافهم تأويل أهل العلم فيه– شاهد عدل على خطأ ما ذهبوا إليه(١).

وسبق تضعيف أبي حيان لقول الأخفش في الآية السابقة.

وأجاز أبو بكر الأنباري أن تكون "أكاد" في الآية مزيدة للتأكيد فقال: «ويجوز أن يكون معنى الآية: إنّ الساعة آتية أخفيها لتجزى كل نفس؛ فيكون "أكاد" مزيداً للتوكيد»(٢).

وهذا المعنى لم يشتهر في كتب النحاة، وإنما ذكره ابن مالك في التسهيل، وأشار إلى ضعفه، ونسبه إلى أبي الحسن الأخفش. وتقدم أنّ الذي نص عليه الأخفش في معاني القرآن أنها بمعنى: أريد.

وضعّف أبو حيان القول بزيادة "أكاد" في الآية فقال: «وقالت فرقة: "أكاد" زائدة لا دخول لها في المعنى، بل الإخبار أنّ الساعة آتية، وأنّ الله يخفي وقت إتيانها. وروي هذا المعنى عن ابن جبير. واستدلوا على زيادة "كاد" بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[النور: ٤٠].

وبقول الشاعر –وهو زيد الخيل–:

---

(١) جامع البيان (٤١/١٦).

(٢) الأضداد (٩٨).

سريع إلى الهيجاء شاكٍ سلاحه فما إن يكاد قرنه يتنفّسُ[1]

وبقول الآخر:

وألا ألوم النفس مما أصابني وألا أكاد بالذي نلتُ أبجحُ[2]

ولا حجة في شيء من هذا»[3].

* * *

(١) البيت في: تفسير الطبري (٣٩/١٦)، والكشف والبيان للثعلبي (٢٤١/٦)، ولسان العرب، مادة: "كود" (٣٨٤/٣).

(٢) البيت لابن مقبل القيسي في ديوانه (٢٤).

(٣) البحر المحيط (٤٨٢/١٨).

دلالة «يكاد» المنفية وحال خبرها عند المفسرين

ذكرت أنّ المضارع من "كاد" عند النحاة إذا كان منفياً فإنّ المقاربة منفية، والخبر فيه أربعة أقوال.

فمنهم من يرى أنها في هذه الحالة تفيد نفي الخبر.

ومنهم من يرى أنّها في هذه الحالة تفيد إثبات الخبر ببطء.

ومنهم من يرى أنها في هذه الحالة تفيد نفي الخبر، وقد تفيد إثباته ببطء.

ومنهم من يرى التفريق بين المضارع والماضي، فنفي الماضي إثبات للخبر، ونفي المضارع نفي للخبر.

ولذلك فصلت بين أقوال المفسرين في "كاد" المنفية بلفظ الماضي و"كاد" المنفية بلفظ المضارع؛ حتى يتبين لنا حقيقة هذا الرأي.

وأما أقوال المفسرين في دلالة "يكاد" المنفية فقد اختلفت وتنوعت، ويتضح ذلك من خلال أقوالهم في تفسير الآيات التالية:

١ – ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثًا ٧٨﴾[النساء: ٧٨].

قال الطبري: «يقول: لا يكادون يعلمون حقيقة ما تخبرهم به من أن كل ما أصابهم من خير وشر وسراء وضراء وشدة ورخاء فمن عند الله، لا يقدر أحد على ذلك غيره»(١).

(١) جامع البيان (٧/٢٤٠).

والطبري هنا من خلال تقديره يوافق النحاة في أنّ نفي "كاد" نفي للمقاربة، ويخالف ما قرره في دلالة "كاد" المنفية بلفظ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾[البقرة: ٧١]، حيث قدر معنى الآية: «كادوا ألا يفعلوا». فجعل "كاد" المنفية في معنى الإثبات، بخلاف تقديره هنا، فإنّه يدل على أنّ "كاد" المنفية في معنى النفي.

وقال أبو حيان: «وبالغ تعالى في قلة فهمهم وتعقلهم حتى نفى مقاربة الفقه. ونفي المقاربة أبلغ من نفي الفعل»(١).

وتفسير أبي حيان هنا يوافق من قال من النحاة: إنّ نفي "كاد" نفيٌ لخبرها.

وقال محمد الطاهر ابن عاشور: «أي: يكادون ألا يفقهوا حديثاً، أي: ألا يفقهوا كلام من يكلمهم. وهذا مدلول فعل "كاد" إذا وقع في سياق النفي، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾»(٢).

فعلى هذا التفسير تكون "كاد" المنفية بلفظ المضارع وبلفظ الماضي عند ابن عاشور لقرب الإثبات، وأنّ النفي في الأصل موجه إلى الخبر، ثم حصل قلب –تقديم حرف النفي الذي حقه التأخير– في اللفظ، ومثله للتقريب: "ما كاد يفعل"، فأصله: "كاد ما يفعل"، فقدمت "ما".

---

(١) البحر المحيط (٥٢٩/٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٣١/٢).

وهذا -كما ذكرتُ- مخالف لما اتفق عليه النحاة من أنّ إثبات "كاد" إثبات للمقاربة، ونفيها نفيٌ للمقاربة.

٢- ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾[إبراهيم:١٧].

قال الفراء: «وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾[إبراهيم: ١٧] فهو يسيغه، والعرب قد تجعل "لا يكاد" فيما قد فعل وفيما لم يفعل، فأما ما قد فعل فهو بيّن هنا من ذلك؛ لأنّ الله لأ يقول لما جعله لهم طعاماً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾[الدخان: ٤٣-٤٥]. فهذا أيضاً عذاب في بطونهم يسيغونه. وأما ما دخلت فيه "كاد" ولم يفعل فقولك في الكلام: "ما أتيته ولا كدت"، وقول الله لأ في النور: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[النور: ٤٠]. فهذا عندنا والله أعلم: أنّه لا يراها»(١).

فعلى هذا التفسير يجوز في خبر "كاد" المنفية بلفظ الماضي أو المضارع أن يكون مثبتاً، ويجوز أن يكون منفياً، والسياق هو الذي يحدد المراد. وهذا التفسير موافق لما ذهب إليه ابن مالك.

وقال الطبري: «يقول: ولا يكاد يزدرده من شدة كراهته، وهو مسيغه، والعرب تجعل "لا يكاد " فيما قد فعل وفيما لم يفعل، فأما ما قد فعل فمنه

(١) معاني القرآن (٢/٧١).

هذا؛ لأنّ الله جل ثناؤه جعل لهم ذلك شراباً، وأما ما لم يفعل وقد دخلت فيه "كاد" فقوله: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾[النور: ٤٠] فهو لا يراها»(١).

وواضح هنا أنّ الطبريّ موافق لما ذهب إليه الفراء من جواز الأمرين.

وقال الثعلبي: «"يكاد" صلة، مجازه: ولا يسيغه، كقوله: ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾[النور: ٤٠]، أي: لم يرها. قال ابن عباس **ب**: "لا يجيزه"»(٢).

وقال الواحديّ: «قال المفسرون في هذه الآية: يتحسّاه ويشربه بالجرع لا بمؤة واحدة؛ لمرارته. وقالوا: "يكاد" صلة، المعنى: ولا يسيغه، كقوله: ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾[النور: ٤٠]، أي: لم يرها. قال ابن عباس: "لا يجيزه"»(٣).

فالثعلبيّ وتلميذه الواحديّ في تفسير هذه الآية جعلا خبر "يكاد" المنفية بلفظ المضارع منفياً. وهو قول موافق لمن قال من النحاة: إنّ خبر "يكاد" المنفية بلفظ المضارع منفيّ. إلا أنهما خالفا النحاة في تعليل ذلك، فظاهر عبارتهما أنّ السبب في ذلك: كون "يكاد" زائدة، فتسلّط النفي على الخبر. والذي عليه النحاة: أنّ السبب هو كون القرب منفياً يقتضي نفي الفعل.

والقول بزيادة "كاد" منسوب للأخفش، ونقله ابن مالك في التسهيل، كما ذكرت آنفاً.

---

(١) جامع البيان (١٣/٦٢٠).

(٢) الكشف والبيان (١٥/٣٦٤).

(٣) التفسير البسيط (١٢/٤١٥).

وأما تعليل نفي خبر "كاد" المنفية بزيادة "كاد" فلم ينقله أحد من النحاة فيما أعلم.

وقال أبو حيان: «أي: ولا يقارب أن يسيغه، فكيف تكون الإساغة؟ والظاهر هنا انتفاء مقاربة إساغته إياه، وإذا انتفت انتفت الإساغة، فيكون كقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[النور: ٤٠]، أي: لم يقرب من رؤيتها، فكيف يراها»[(١)] ؟

وقال الألوسيّ: «أي: لا يقارب أن يسيغه فضلاً عن الإساغة... »[(٢)].

وقال محمد الطاهر ابن عاشور: «ومعنى ﴿لَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾: لا يقارب أن يسيغه فضلاً عن أن يسيغه بالفعل»[(٣)].

فتفسير أبي حيان والألوسيّ وابن عاشور موافق لمن قال من النحاة: إنّ خبر "كاد" المنفية بلفظ المضارع منفيٌّ.

ويشكل على هذا التفسير: أنّه جاء في الحديث بأنّه يشربه.

وقد ذكر أبو حيان هذا الإشكال وأجاب عنه فقال: «والحديث جاء بأنه يشربه[(٤)] ، فإن صح الحديث كان المعنى: ولا يكاد يسيغه قبل أن يشربه،

---

(١) البحر المحيط (٤٨٨/١٦).

(٢) روح المعاني (٢٤٩/١٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢١١/٦).

(٤) الحديث في جامع الترمذي من حديث أبي أمامة عن رسول الله ﷺ، قال في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾[إبراهيم:١٦-١٧]، قال: يقرب إليه فيتكرّهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، وإذا شربه قطّع أمعاءه حتى يخرج من دبره"، الحديث رقم (٢٥٨٣)، (ص:٤١٩)، والحديث ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٤٧٧).

ثم شربه، كما جاء: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾[البقرة: ٧١]، أي: وما كادوا يفعلون قبل الذبح»[١].

وقال الألوسيّ أيضاً موجهاً هذا الإشكال: «وقيل: الإساغة: الإدخال في الجوف، والمعنى: لا يقارب أن يدخله في جوفه قبل أن يشربه، ثم شربه، على حدّ ما قيل في قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾[البقرة: ٧١]، أي: ما قاربوا قبل الذبح. وعبّر عن ذلك بالإساغة لما أنّها المعهودة في الأشربة»[٢].

٣- ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾[الكهف: ٩٣].

قال الزمخشري: «لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها، كما يفهم البكم»[٣].

والزمخشريّ بهذا التفسير يوافق من قال من النحاة: إنّ خبر "كاد" المنفية بلفظ المضارع مثبت ببطء ومشقة.

وقال أبو حيان: «ونفى مقاربة فقههم قولاً، وتضمّن نفي فقههم»[٤].

وأبو حيّان بهذا التفسير يوافق من قال من النحاة: إنّ خبر "كاد" المنفية بلفظ المضارع منفيّ.

---

(١) البحر المحيط (٤٨٨/١٦).

(٢) روح المعاني (٢٤٩/١٣).

(٣) الكشاف (٤٩٨/٢).

(٤) البحر المحيط (٢٥١/١٨).

وقد ذكر أبو حيان تفسير الزمخشريّ وردّه فقال: «وقال الزمخشري: لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة، انتهى. كأنه فهم من نفي "يكاد" أنّه يقع منهم الفهم بعد عسر. وهو قول لبعضهم: إنّ نفيها إثبات، وإثباتها نفيٌ. وليس بالمختار»(١).

٤- ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾[النور: ٤٠].

قال الأخفش: «إذا قلت: "لم يكد يفعل" كان المعنى: لم يقارب الفعل ولم يفعل، على صحة الكلام، وهذا معنى الآية. إلا أنّ اللغة قد أجازت "لم يكد يفعل" وقد فعل بعد شدة، وليس هذا صحة الكلام؛ لأنه إذا قال: "كاد يفعل" فإنما يعني: قارب الفعل، وإذا قال: "لم يكد يفعل" يقول: لم يقارب الفعل»(٢).

فالأخفش هنا رجح القول بأنّ خبر "كاد" المنفية منفيٌّ؛ لأنه الأنسب لمعنى الآية، وأشار إلى أنّ "كاد" المنفية في اللغة العربية تكون لإثبات الخبر ببطء وجهد، إلا أنّ هذا المعنى عنده لا يصح في الآية.

و**ذكر الفراء**: أنّ القول بنفي الخبر هنا هو المعنى المناسب للآية، وأنّ القول بإثبات الخبر ببطء وجهد هو الوجه في العربية، فقال في معاني القرآن: «فقال بعض المفسرين: لا يراها. وهو المعنى؛ لأن أقل من الظلمات التي وصفها الله لا يرى فيها الناظر كفه. وقال بعضهم: إنما هو مثل ضربه الله، فهو يراها ولكنه لا

(١) البحر المحيط (٢٥١/١٨).

(٢) كلام الأخفش في تهذيب اللغة للأزهري (٣٢٨/١٠).

يراها إلا بطيئاً، كما تقول: ما كدت أبلغ إليك، وأنت قد بلغت. وهو وجه العربية»[1].

وذكر أنّ من العرب من يجعلها زائدة، بمعنى: أنّ القرب غير مراد، فيتوجه النفي إلى الخبر، فقال: «ومن العرب من يدخل "كاد" ويكاد في اليقين، فيجعلها بمنزلة الظن إذا دخل فيما هو يقين، كقوله: ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾[فصلت: ٤٨]. في كثير من الكلام»[2].

وقال الزجاج مرجحاً القول بنفي الخبر ومعللاً له: «معناه: لم يرها ولم يكد. وقال بعضهم: يراها من بعد أن كان لا يراها من شدة الظلمة. والقول الأول أشبه بهذا المعنى؛ لأنّ في دون هذه الظلمات لا يرى الكف»[3].

وقال الطبريّ: «فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[النور: ٤٠] مع شدة هذه الظلمة التي وصف؟ وقد علمت أن قول القائل: لم أكد أرى فلاناً، إنما هو إثبات منه لنفسه رؤيته بعد جهد وشدة، ومن دون الظلمات التي وصفت في هذه الآية ما لا يرى الناظر يده إذا أخرجها فيه، فكيف فيها؟

قيل: في ذلك أقوال، نذكرها ثم نخبر بالصواب من ذلك:

---

(١) معاني القرآن (٢/٢٥٥).

(٢) معاني القرآن (٢/٢٥٥).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٤/٤٨).

أحدها: أن يكون معنى الكلام: إذا أخرج يده رائياً لها لم يكد أن يراها، أي: لم يعرف من أين يراها. فيكون من المقدم الذي معناه التأخير. ويكون تأويل الكلام على ذلك: إذا أخرج يده لم يقرب أن يراها.

والثاني: أن يكون معناه: إذا أخرج يده لم يرها، ويكون قوله: ﴿لَمْ يَكَدْ﴾ في دخوله في الكلام نظير دخول الظن فيما هو يقين من الكلام، كقوله: ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾، ونحو ذلك.

والثالث: أن يكون قد رآها بعد بطء وجهد، كما يقول القائل لآخر: ما كدت أراك من الظلمة، وقد رآه، ولكن بعد إياس وشدة.

وهذا القول الثالث أظهر معاني الكلمة من جهة ما تستعمل العرب "أكاد" في كلامها، والقول الآخر الذي قلنا: إنه يتوجه إلى أنه بمعنى: لم يرها قول واضح من جهة التفسير. وهو أخفى معانيه»[1].

والطبريّ في هذا النص يشير إلى أمور مهمة:

أولاً: أنّ الأصل -من جهة استعمال العرب- في خبر "كاد" المنفية أن يكون مثبتاً ببطء وجهد، وما عدا هذا المعنى فهو خروج عن الأصل.

ثانياً: أنّ القول بنفي الخبر له توجيهان:

الأول: أنّ يكون المنفيّ القرب، فيقتضي ذلك من باب أولى نفي الخبر. وهذا ما أراده الطبري من القول الأول.

---

(١) جامع البيان (٣٣٢/١٧).

الثاني: أن يكون المنفيّ الخبر دون القرب؛ لأنّ فعل المقاربة زائد، فلا معنى للمقاربة في الآية. وهذا ما أراده الطبريّ من القول الثاني.

ثالثاً: أنّ الخروج عن المعنى الأصلي للفعل "كاد" المنفية ممكن إذا وجد المسوغ, وهو اقتضاء المعنى. لذا جعل الطبريّ وكذلك الفراء القول بنفي الخبر في الآية هو المعنى المناسب للآية، وإن كان القول بإثبات الخبر ببطء وجهد هو الوجه في العربية.

وقال الثعلبي: «أي: لم يقرب من أن يراها من الظلمات. وقال الفراء: "كاد" صلة، أي: لم يرها، كما تقول: ما كدت أعرفه.

وقال المبرد: يعني: لم يرها إلا بعد الجهد، كما يقول القائل: ما كدت أراك من الظلمة وقد رآه، ولكن بعد يأس وشدة. وقيل: قرب من الرؤية ولم ير، كما يقال: كاد العروس يكون أميراً، وكاد النعام يطير»(١).

وألحظ في هذا النص أمرين:

الأول: أنّه نسب إلى المبرد القول بأنّ معنى "لم يكد": لم يرها إلا بعد الجهد. والذي نص عليه المبرد في "المقتضب" و"الكامل" هو: أنّ "لم يكد": لم يرها ولم يقارب رؤيتها. **قال في المقتضب**: «فأما قول الله لأ: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾[النور: ٤٠] فمعناه –والله أعلم–: لم يرها ولم يكد، أي: لم يدن من رؤيتها، وكذلك: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾[التوبة:١١٧](٢).

---

(١) الكشف والبيان (٢٩١/١٩).

(٢) المقتضب (٧٤/٣).

وقال في الكامل: «أي: لم يقرب من رؤيتها. وإيضاحه: لم يرها ولم يكد. وكذلك: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾[النور: ٤٣]، وكذلك: ﴿كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ بغير أن. ومن أمثال العرب: "كاد النعام يطير"، و" كاد العروس يكون أميراً، و"كاد المنتعل يكون راكباً"»(١).

والثاني: أنّه ذكر أن "لم يكد" بمعنى: قرب من الرؤية، فجعل نفي القرب إثباتاً للقرب. وهذا لم يقل به أحد من النحاة.

وقال الواحدي: «وهذا اللفظ يحتمل معنيين:

أحدهما: رآها من بعد أن كان لا يراها من شدة الظلمة.

والثاني: لم يرها ولم يكد.

قال الفراء: «والأول وجه العربية، والثاني هو معنى الآية؛ لأنّ أقل من هذه الظلمات التي وصفها لا يرى فيها الناظر كفّه»(٢).

فالواحديّ أجاز في الآية أن تحمل على القولين المشهورين في المعنى الدلالي للفعل "كاد" المنفية بلفظ المضارع. وهو موافق لما ذهب إليه ابن مالك من النحاة.

قال ابن الجوزي: «﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[النور: ٤٠] فيه قولان:

أحدهما: أنه لم يرها. قاله الحسن، واختاره الزجاج... وكذلك قال ابن الأنباري: معناه: لم يرها البتة؛ لأنه قد قام الدليل عند وصف تكاثف

---

(١) الكامل (٢٥٢/١).

(٢) التفسير البسيط (٢٨٩/١٦).

الظلمات على أن الرؤية معدومة، فبان بهذا أن "يكد" زائدة للتوكيد، وبمنزلة "ما" في قوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[المؤمنون: ٤٠].

والثاني: أنه لم يرها إلا بعد الجهد. قاله المبرد. وقال الفراء: وهذا كما تقول: ما كدت أبلغ إليك، وقد بلغت. قال الفراء: وهذا وجه العربية»[(١)].

وألحظ من خلال ما نقله ابن الجوزي عن الأنباري: أنّ من جعل الخبر منفياً في الآية جعل "كاد" زائدة. وهو قول ذكره ابن مالك عن الأخفش وضعفه.

قال الزمخشري: «﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[النور: ٤٠] مبالغة في لم يرها، أي: لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يراها»[(٢)].

فتفسير الزمخشري هنا يخالف تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾[الكهف: ٩٣]، حيث قال: «لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها، كما يفهم البكم».

وهذا يعني: أنّ الوجهين جائزان عنده، والسياق هو الذي يحدد المراد.

قال البغوي: «يعني: لم يقرب من أن يراها من شدة الظلمة. وقال الفراء: "يكد" صلة، أي: لم يرها،... وقيل: معناه قرب من رؤيتها ولم يرها، كما يقال: "كاد النعام يطير"»[(٣)].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٣٦٧/٥).

(٢) الكشاف (٦٩/٣).

(٣) معالم التنزيل (٥٣/٦).

وألحظ في قول البغوي أمرين:

الأول: أنّ البغويّ جعل خبر "كاد" المنفية منفياً، وأشار بقوله: «لم يقرب من أن يراها من شدة الظلمة» إلى أنّ كاد المنفية هنا ليست زائدة، وأنّ نفي القرب مقصود. وأشار بقول الفراء إلى القول بزيادة "كاد".

والثاني: أنّه ذكر أن "لم يكد" بمعنى: قرب من الرؤية، فجعل نفي القرب إثباتاً للقرب. وهذا لم يقل به أحد من النحاة، وإنما ذكره بعض المفسرين كالثعلبيّ.

وقال ابن عطية: «لفظ يقتضي مبالغة الظلمة، واختلف الناس في هذا اللفظ: هل يقتضي أنّ هذا الرجل -المقدر في هذه الأحوال وأخرج يده- رأى يده أو لم يرها البتة؟ فقالت فرقة: لم يرها جملة؛ وذلك أنّ "كاد" معناها قارب، فكأنه قال: إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها. وهذا يقتضي نفي الرؤية جملة.

وقالت فرقة: بل رآها بعد عسر وشدة، وكاد ألا يراها. ووجه ذلك: أن "كاد" إذا صحبها حرف النفي وجب الفعل الذي بعدها، وإذا لم يصحبها انتفى الفعل»[1].

ثم بعد ذلك عقّب بذكر رأيه في المعنى الدلالي للفعل "كاد"، ففرق بين دخول النفي بعد "كاد" وبين دخول النفي معها، فأوجب وقوع الخبر في الأول، وجوّز احتمال وقوعه وعدمه في الثاني.

---

(١) المحرر الوجيز (٥٢٣/١٠).

فقال موضحاً ذلك: «وهذا لازم متى كان حرف النفي بعد "كاد" داخلاً على الفعل الذي بعدها، تقول: "كاد زيد يقوم" فالقيام منفي، فإذا قلت: "كاد زيد ألا يقوم" فالقيام واجب واقع، وتقول: "كاد النعام يطير"، فهذا يقتضي نفي الطيران عنه، فإذا قلت: "كاد النعام ألا يطير" وجب الطيران له.

فإذا كان حرف النفي مع "كاد" فالأمر محتمل، مرة يوجب الفعل، ومرة ينفيه، تقول: "المفلوج لا يكاد يسكن"، فهذا كلام صحيح تضمن نفي السكون، وتقول: "رجل متكلم لا يكاد يسكت"، فهذا كلام صحيح يتضمن إيجاب السكون بعد جهد ونادراً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾[البقرة: ٧١]، نفيٌ مع "كاد" تضمن وجوب الذبح، وقوله في هذه الآية: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[النور: ٤٠] نفيٌ مع "كاد" يتضمن في أحد التأويلين نفي الرؤية، ولهذا ونحوه قال سيبويه /: "إنّ أفعال المقاربة لها نحو آخر"، بمعنى: أنها دقيقة التصرف»(١).

وجواز الوجهين في خبر كاد المنفية بدخول حرف النفي معها مذهب قال به بعض المفسرين. وهو مذهب نحويّ قال به ابن مالك.

وأما حكم "كاد" إذا دخل حرف النفي على الفعل بعدها فلم أقف على أحد من المفسرين أو النحاة نبّه على هذا الحكم. وهذا الحكم يقتضي أنّ

(١) المحرر الوجيز (٥٢٣/١٠).

"كاد" المثبتة ليس خبرها منفياً على الإطلاق كما قرره النحاة، بل قد يجب أن يكون مثبتاً إذا دخل حرف النفي على الفعل الذي بعد "كاد".

والذي يظهر لي: أنّ العلة في وجوب وقوع الخبر إذا دخل حرف النفي على الفعل الذي بعد كاد هو أنّ الأصل في خبر "كاد" المثبتة أن يكون منفياً، فإذا دخل عليه حرف النفي أثبته؛ لأنّ نفي النفي إثبات.

وقال أبو حيان في تفسير الآية: «والمعنى هنا: انتفاء مقاربة الرؤية، ويلزم من ذلك انتفاء الرؤية ضرورة»(١).

وضعّف القول بزيادتها والقول بأنه يراها بعد عسر فقال: «وقول من اعتقد زيادة "يكد" أو أنه يراها بعد عسر ليس بصحيح، والزيادة قول ابن الأنباري، وأنه لم يرها إلا بعد الجهد قول المبرد والفراء»(٢) ، ثم نقل تفصيل ابن عطية المذكور آنفاً في دلالة "كاد" ولم يعلق عليه.

وقال ابن عادل مؤيداً القول بنفي خبر "كاد" المنفية في الآية: «واعلم أنّ خبرها إذا كانت هي مثبتة منفيّ في المعنى؛ لأنها للمقاربة، فإذا قلت: " كاد زيد يفعل" كان معناه: قارب الفعل إلا أنه لم يفعل، فإذا نفيت انتفى خبرها بطريق الأولى؛ لأنه إذا انتفت مقاربة الفعل انتفى هو من باب أولى، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[النور: ٤٠] أبلغ من أن لو قيل: لم يرها؛ لأنّه لم يقارب الرؤية، فكيف له بها»(٣) ؟

---

(١) البحر المحيط (٥٨٨/١٩).

(٢) البحر المحيط (٥٨٨/١٩).

(٣) اللباب في علوم الكتاب (٣٩٥/١).

* * *

٥- ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾[الزخرف: ٥٢].

قال الواحديّ: «قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ قال ابن عباس: «لا يبين الكلام»(١).

وما نقله الواحديّ عن ابن عباس يؤيد القول بجواز زيادة "كاد".

وقال ابن عاشور: «ومعنى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾[الزخرف: ٥٢]: ويكاد ألا يبين... »(٢).

وهذا التقدير يقتضي أن يكون الخبر مثبتاً؛ لأنّ كاد في هذا التقدير مثبتة، و"كاد" المثبتة خبرها منفيّ، فإذا دخل عليه حرف نفي صار مثبتاً؛ لأنّ نفي النفي إثبات.

* * *

(١) التفسير البسيط (٢٠/٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/٢٣١).

رأي الباحث في دلالة «كاد» وحال خبرها

بناء على ما تقدم من دراسة أقوال النحويين والمفسرين، فقد تبين لي ما يلي:

– أنّ دلالة "كاد" في نفسها ترجع إلى الهمّ بالشيء والقرب منه، كما هو ثابت في معاجم اللغة العربية.

– وأما القول بجواز مجيئها زائدة، والقول بمجيئها بمعنى الإرادة، والقول بأن "كاد" المنفية تكون بمعنى الإثبات، فأقوال ضعيفة؛ لمخالفة الأوّلِ أصلَ الكلام، ولعدم معرفة الثاني عند العرب، ولمخالفة الثالث لظاهر الكلمة.

وقول بعض المفسرين بنفي معنى المقاربة من كاد المثبتة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾[الإسراء: ٧٤]، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾، فلم يركن ولم يقارب الركون لتثبيت الله له، قولٌ لا يُبطل ما اتفق عليه النّحاة، من أنّ "كاد" المثبتة تفيد ثبوت القرب؛ لأنه تفسير غير متفق عليه، فقد أثبت بعض المفسرين القرب في الآية وإن لم يحصل الركون.

فقد قال ابن الجوزي: «أي: هممت وقاربت أن تميل إلى مرادهم».

وقال ابن عطية: «ورسول الله لم يركن، ولكنه كاد بحسب همّه بموافقتهم؛ طمعاً منه في استئلافهم».

– أنّ القول بجواز الأمرين في حكم خبر "كاد" المنفية هو الأقرب إلى الواقع اللغوي، والأبعد عن التكلف، والسياق هو الذي يحدد المراد:

فأما كونه أقرب إلى الواقع اللغويّ، فلنصّ بعض الأئمة على جواز الأمرين في اللغة.

قال الفراء: «والعرب قد تجعل "لا يكاد" فيما قد فعل وفيما لم يفعل»(١).

وقال الطبريّ: «... والعرب تجعل "لا يكاد" فيما قد فعل وفيما لم يفعل»(٢).

وأما كونه أبعد عن التكلف، فلأنّ التقيّد بالقول بأنّ خبر كاد المنفية منفيّ يحوج إلى التأويل في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾[البقرة: ٧١]؛ لأنهم قد فعلوا.

وكذلك التقيّد بالقول بأنّ خبر كاد ثبت بإبطاء وشدة يتعارض مع ظاهر الآية: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[النور: ٤٠] الذي يقتضي أنّ خبر "كاد" المنفية هنا منفياً؛ لأنّ أقل من الظلمات التي وصفها الله لا يرى فيها الناظر كفه.

-وتبيّن لي أنّ مجيء خبر "كاد" المنفية مثبتاً ببطء وشدة هو أظهر معانيها في الاستعمال اللغويّ، بنصّ الإمام الطبري. بل إنّ أصحاب اللغة اقتصروا عليه كما بينت في التمهيد، فينبغي حمل الكلام عليه، إلا إذا اقتضى المعنى أن يحمل على نفي الخبر فيقال به، كما فعل الفراء والطبري في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[النور: ٤٠].

---

(١) معاني القرآن (٢/٧١).

(٢) جامع البيان (١٣/٦٢٠).

وبناء على ما تقدم، فيمكن وضع قاعدة في دلالة "كاد" وحال خبرها كالتالي:

الفعل "كاد" بلفظيه الماضي والمضارع له حالتان:

الأولى: أن يكون مثبتاً، فالقرب ثابتٌ، والخبر منفيّ، إلا إذا دخل حرف النفي على الخبر فيكون مثبتاً.

الثانية: أن يكون منفيّاً، فالقرب منفيٌّ، ويجوز في الخبر أن يكون ثابتاً ببطء، ويجوز أن يكون منفياً، والسياق هو الذي يحدد المراد. والله أعلم.

* * *

الخاتمة

أهم النتائج التي توصل لها البحث:

- **حدد البحث** محل النزاع بين النحاة في دلالة "كاد"، وهو حكم خبر كاد المنفية، وحدد كذلك أربعة أقوال في حكم خبر "كاد" المنفية:

الأول: أنها في هذه الحالة تفيد نفي الخبر، فقولنا: "ما كاد زيد يقوم" بمعنى: لم يقم.

الثاني: أنّها في هذه الحالة تفيد إثبات الخبر ببطء، فقولنا: "ما كاد زيد يقوم" بمعنى: أنّه قام ببطء وعسر.

الثالث: أنها في هذه الحالة تفيد نفي الخبر، وقد تفيد إثباته ببطء.

الرابع: التفريق في هذه الحالة بين المضارع والماضي، فنفي المضارع نفي للخبر، ونفي الماضي إثبات للخبر.

- **حدد البحث** أمرين يمكن ادعاء الاتفاق عليهما عند النحاة:

الأول: كون معنى "كاد" -وهو القرب- مثبت في الإثبات، ومنفي في النفي.

الثاني: نفي خبر "كاد" المثبتة.

بين البحث أنّ القول بأنّ "كاد" في الإثبات تدل على الإثبات وفي النفي تدل على النفي، والقول بأنها في الإثبات تدل على النفي، وفي النفي تدل على الإثبات قولان صحيحان باعتبارين مختلفين:

فأما الأول: فباعتبار أنّ الإثبات والنفي يتعلقان بمعنى كاد، وهو القرب، فإثبات كاد إثبات للقرب، ونفيها نفي للقرب

وأما الثاني: فباعتبار أنّ الإثبات والنفي يتعلقان بالخبر، فيكون المعنى: نفي "كاد" إثبات للخبر، وإثبات "كاد" نفي للخبر.

– **بيّن البحث** أنّ أقوال المفسرين متفقة مع النحاة في محل النزاع، وهو حكم خبر "كاد" المنفية، فمنهم من يرى أنها لنفي الخبر، ومنهم من يرى أنها لإثبات الخبر ببطء وعسر، ومنهم من أجاز الوجهين، وأغلب المفسرين على جواز الوجهين. ولم أقف على أحد من المفسرين فرّق في الحكم بين "كاد" المنفية بلفظ الماضي و"كاد" المنفية بلفظ المضارع.

– **بيّن البحث** أنّ بعض المفسرين خالف ما اتفق عليه النحاة من أنّ كاد المثبتة تفيد إثبات القرب، فقد نفى بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾[الإسراء: ٧٤] مقاربة الركون، مع أنّ "كاد" مثبتة، وهي في هذه الحالة تقتضي ثبوت مقاربة الركون، إلا أنّ بعض المفسرين أخرجوها هنا عن دلالتها اللفظية لقرينة دلت على ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾. فلم يركن ولم يقارب الركون؛ لتثبيت الله له.

– **بيّن البحث** أنّ بعض المفسرين خالف ما اتفق عليه النّحاة من أنّ نفي كاد نفي لمعنى المقاربة، وإثباتها إثبات لمعنى المقاربة، فجعلوا "كاد" المنفية بمعنى كاد المثبتة.

ومن أمثلة ذلك:

قول الطبري: «ويعني بقوله: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾[البقرة: ٧١] أي: قاربوا أن يدعوا ذبحها ويتركوا فرض الله عليهم ذلك».

وقول محمد الطاهر ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾[الكهف: ٩٣]: «أي يكادون ألا يفقهوا حديثاً».

وقول البغوي في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۖ﴾[النور: ٤٠]: «... وقيل: معناه: قرب من رؤيتها ولم يرها، كما يقال: كاد النعام يطير».

– **قيّد بعض المفسرين ما أطلقه النحاة** من أنّ نفي كاد نفي لمعنى المقاربة، وإثباتها إثبات لمعنى المقاربة بشرط عدم دخول حرف النفي على الخبر، فإن دخل عليه مثل: "كاد زيد ما يقوم" فإنّ الخبر حينئذٍ واجب الوقوع.

– **رصد البحث** ثلاثة معان لكاد ذكرها المفسرون ولم يذكرها النحاة، وهي:

١– مجيئها بمعنى الإرادة، كقولهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾[طه: ١٥]: "أكاد" بمعنى: أريد.

٢– مجيء "كاد" المنفية بمعنى المثبتة، فيكون معنى "ما كاد زيد يقوم": قرب من القيام ولم يقم.

٣- مجيء "كاد" المثبتة في بعض الآيات بمعنى نفي المقاربة. وبه قال أبو حيان والألوسي والطاهر ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾[الإسراء: ٧٤].

– **رصد البحث** من خلال التفسير القرآني مجيء خبر "كاد" المثبتة مثبتاً إذا دخل حرف النفي عليه، فيكون معنى "كاد زيد ما يقوم": ثبت قيامه. قاله ابن عطية.

– **رصد البحث** معنى اشتهر عند المفسرين ولم يشتهر عند النحاة، بل ذكره ابن مالك وضعفه، ولم أقف على من ذكره ممن سبقه من النحاة، وهو مجيئها: زائدة.

– **رصد البحث** من خلال كلام بعض المفسرين تعليلاً لكون خبر "كاد" المنفية مثبتاً، وهو أنّ قولنا: "ما كاد زيد يقوم" على تقدير: كاد زيد ما يقوم، فـ"كاد" باعتبار الأصل: مثبتة، وخبر المثبتة منفيّ، فلما دخل حرف النفي على الخبر المنفي معنى دل على الإثبات؛ لأنّ نفي النفي إثبات. وهذا التوجيه لم أقف عليه عند النحاة.

– **رصد البحث** من خلال كلام المفسرين تعليلاً لكون خبر "كاد" المنفية منفياً، وهو أنّ "كاد" حينئذٍ زائدة، فيكون النفي داخلاً على الفعل مباشرة، فيكون منفياً. والذي عليه النحاة ممن قال بنفي خبر "كاد" المنفية هو أنّ "كاد" ليست زائدة، فيكون القرب من الفعل والفعلُ منفيين.

– **تبين بعد البحث** أنّ قضية التأثر والتأثير بين النّحاة والمفسرين في بيان المعنى الدلالي للفعل "كاد" قضية مشتركة بين الفريقين، ولا يمكن التعميم فيها، وقد رصد البحث أربعة أنواع من التأثر والتأثير بين النّحاة والمفسرين، وهي على النحو الآتي:

النوع الأول: من النحاة من تأثر بأقوال المفسرين، كابن أبي الربيع، فقد فرق بين "كاد" المنفية بلفظ الماضي و"كاد" المنفية بلفظ المضارع، فقال بإثبات الخبر مع الأول؛ بناء على تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾[البقرة: ٧١] أي: وقد فعلوا. ونفي الخبر مع الثاني؛ بناء على تفسير قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾[النور: ٤٠] أي: لم يرها.

النوع الثاني: من المفسرين من تأثر بما قرره النحاة وترجح عنده، كالبيضاويّ وأبي حيان في تفسيره، وكذلك الألوسي، فبنوا تفسيرهم للفعل "كاد" في جميع القرآن على ما ترجح عندهم من أنّ خبر "كاد" المنفية منفيٌّ، فالتزموا بهذا المعنى حتى في الآيات التي ظاهرها يخالف هذا المعنى، فقاموا بتأويلها بحيث تستقيم مع المعنى الراجح عندهم.

النوع الثالث: من المفسرين من لم يخرج عن أقوال النحاة، ولكنّه لم يتقيد بواحد منها، بل نظر الى المعنى المناسب لسياق الآية فأثبته، كالزمخشريّ، حيث قال في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾: «مبالغة في لم يرها، أي: لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يراها».

وقال في قوله تعالى: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾[الكهف: ٩٣]: «لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها، كما يفهم البكم».

وهذا يعني: أنّ الوجهين جائزان عنده، والسياق هو الذي يحدد المراد.

النوع الرابع: من المفسرين من لم يتقيد بأقوال النحاة في دلالة الفعل "كاد"، وخرج إلى معان يقتضيها السياق، كالطبريّ في جعله "كاد" المنفية بمعنى: ثبوت القرب، والأخفش في جعله "أكاد" في قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[طه: ١٥] بمعنى: أريد.

– **تبين بعد البحث** أنّ القول بجواز الأمرين في حكم خبر "كاد" المنفية والسياق هو الذي يحدد المراد هو الأقرب إلى الواقع اللغوي، والأبعد عن التكلف.

– **وتبيّن كذلك** أنّ مجيء خبر "كاد" المنفية مثبتاً ببطء وشدة هو أظهر معانيها في الاستعمال اللغويّ بنصّ الإمام الطبري.

– **وظهر لي**: أنّ القول بجواز مجيئها زائدة، ومجيئها بمعنى الإرادة، أو أن تكون "كاد" المنفية بمعنى الإثبات ضعيف؛ لمخالفة الأول أصل الكلام، ولعدم معرفة الثاني عند العرب، ولمخالفة الثالث لظاهر الكلمة.

– **وتبين لي** أنّ قول بعض المفسرين بنفي معنى المقاربة من كاد المثبتة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾[الإسراء: ٧٤] بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾[الإسراء: ٧٤] فلم يركن ولم يقارب الركون لتثبيت

الله له قولٌ لا يُبطل ما اتفق عليه النحاة من أنّ "كاد" المثبتة تفيد ثبوت القرب؛ لأنه تفسير غير متفق عليه.

– إمكانية وضع قاعدة –بناء على القول الراجح– في بيان المعنى الدلالي لـ"كاد" كالتالي:

الفعل "كاد" بلفظيه الماضي والمضارع له حالتان:

الأولى: أن يكون مثبتاً، فالقرب ثابتٌ، والخبر منفيّ، إلا إذا دخل حرف النفي على الخبر فيكون مثبتاً.

الثانية: أن يكون منفيّاً، فالقرب منفيٌّ، ويجوز في الخبر أن يكون ثابتاً ببطء، ويجوز أن يكون منفياً، والسياق هو الذي يحدد المراد.

والله أعلم.

* * *

ثبت المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان، تحقيق: رجب عثمان محمد، الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٤- أمالي ثعلب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة.

٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي ناصر الدين البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٦- الإيضاح في شرح المفصل، لابن الحاجب، تحقيق: موسى العليلي، وزارة الأوقاف، العراق.

٧- الأضداد، لمحمد بن القاسم الأنباري، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، ١٤٠٧هـ.

٨- البحر المحيط في تفسير القرآن العظيم، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الدكتور عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.

٩- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق: يوسف المرعشلي وجمال الذهبي وإبراهيم الكردي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٠- البيان في إعراب غريب القرآن، لأبي البركات الأنباري، تحقيق: طه عبد الحميد طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٤٠٠هـ.

١١- التبيان في تفسير غريب القرآن، لأحمد بن محمد المعروف بابن الهائم، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ م.

١٢- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والطبع، تونس.

١٣- التذييل والتكميل في شرح التسهيل، لأبي حيان، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
١٤- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لابن مالك، تحقيق: محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ.
١٥- التفسير البسيط، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، تحقيق: محمد بن صالح الواحديّ، العبيكان، الطبعة الثانية، ١٤٣٩هـ.
١٦- تفسير القرآن العظيم، للإمام ابن كثير، تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا، دار ابن حزم، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
١٧- تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، لناظر الجيش، تحقيق: جماعة من الأساتذة، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
١٨- تهذيب اللغة، للأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر.
١٩- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد العزيز التركي، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٣٤هـ.
٢٠- جامع الترمذيّ، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، اعتنى به فريق: بيت الأفكار الدولية، عمّان.
٢١- الجمل في النحو، للزجاجي، تحقيق: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
٢٢- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٢٣- ديوان ابن مقبل القيسي، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٢٤- دراسات في النحو واللغة، للدكتور أحمد مطر العطية، مطابع جامعة الملك سعود.
٢٥- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود بن عبد الله الألوسي البغدادي، تحقيق: محمد معتز كريم الديب، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.
٢٦- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
٢٧- شرح التسهيل، لابن مالك، تحقيق: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، دار هجر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
٢٨- شرح الجمل، لابن خروف، تحقيق: سلوى محمد عمر عرب، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
٢٩- شرح الكافية، للرضي، تحقيق: حسن الحفظي ويحيى مصري، مطبوعات الجامعة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
٣٠- شرح المفصل، لابن يعيش، تحقيق: أحمد السيد سيد أحمد، المكتبة التوفيقية، مصر.
٣١- صحيح البخاري، دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
٣٢- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.
٣٣- الفريد في إعراب القرآن المجيد، لابن أبي العز الهمداني، تحقيق: فؤاد علي مخيمر، دار الثقافة.
٣٤- الكامل، لأبي العباس المبرد، تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

٣٥- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، ، دار الفكر، الطبعة الأولى.
٣٦- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثّعلبيّ، أشرف على إخراجه: د. صلاح باعثمان ود. حسن الغزالي وأ. د. زيد مهارش وأ. د. أمين باشه، دار التفسير، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.
٣٧- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
٣٨- المتَّبَع في شرح اللمع، للعكبري، تحقيق: عبد الحمدي الزوي، جامعة قار يونس، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
٣٩- مجالس ثعلب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة.
٤٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق: الرحالي الفاروق وعبد الله بن إبراهيم الأنصاري والسيد عبد العال السيد إبراهيم ومحمد الشافعي، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
٤١- المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، تحقيق: محمد علي النجار، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.
٤٢- مختصر العين، لأبي بكر محمد الزبيدي الأندلسي، تحقيق: دكتور نور حامد الشاذلي، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
٤٣- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، دار المعرفة، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٤٤- معالم التنزيل، للبغوي، تحقيق: محمد النمر وعثمان جمعة وسليمان الحرش، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٤٥- معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، تحقيق: عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤٦- معاني القرآن، للأخفش الأوسط، تحقيق: فائز فارس، دار البشير، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ.
٤٧- معاني القرآن، للفراء، تحقيق: أحمد نجاتي ومحمد النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٠م.
٤٨- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، ، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٤٩- المقتضب، لأبي العباس المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، وزارة الأوقاف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

* * *

III. Documentation:

1. Footnotes should be placed in the footer area of each page respectively..

2. Sources and references must be listed at the end.

3. Sample images of the verified/edited manuscript should be inserted in their respective areas.

4 - Clear pictures and graphs that are related to the research should be included in appendices.

IV. In case the author is dead, the date of his death, in Hijri calendar, is used after his name in the main body ofthe research.

V. Foreign names of authors are transliterated in Arabic script followed by Latin characters between brackets. Full names are used for the first time the name is cited in the paper.

VI: Submitted articles for publication in the journal are refereed by two reviewers, at least.

VII. The modified articlesshould be returned on a CD-ROM or via e-mail to the journal.

VIII. Rejected articleswill not be returned to authors.

IX. Authors are given two copies of the journal and fifteen reprints of their article.

Address of the Journal:

All correspondence should be sent to the editor of the Journal of Arabic Studies:

Riyadh,11432 P.O. Box 5701
Tel: 2582051 - Fax 2590261
www. imamu.edu.sa
E.mail: arabicjournal@imamu.edu.sa

Criteria of Publishing

The Journal of Imam Muhammad Ibn Saud Islamic University for Arabic Studies is a peer reviewed journal published by the Deanship of Scientific Research on UniversityCampus.It publishes scientific research according to the following regulations:

I.Acceptance Criteria:

1. Originality, innovation, academic rigor, research methodology and logical orientation.
2. Complying with the established research approaches, tools and methodologies in the respective disciplines.
3. Accurate documentation.
4. Language accuracy.
5. Previously published submissions are not allowed.
6. Submissions must not be extracted from a paper, a thesis/dissertation, or a book by the author or anyone else.

II.Submission Guidelines:

1. The author should write a letter showing his interest to publish the work, coupled with a short CV and a confirmation that the author owns the intellectual property of the work entirely and that he will not publish the work without a written agreement from the editorial board.

2. Submissions must not exceed 50 pages (A4).

3. Submissions are typed in Traditional Arabic, in 17-font size for the main text, and 14-font size for footnotes, with single line spacing.

4. A hard copy and soft copy must be submitted with an attached abstract in Arabic and English that does not exceed 200 words or one page.

Editor –in- Chief

Prof. Ibrahim Ibn Abdulaziz Abu Haimed
Applied Linguistics- Institute for Teaching Arabic Language- Al-Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University

Prof. Ibrahim Ibn Mohammad Abanami
Literature department College of Arabic Language - Al- Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University

Prof. Muhammad Ahmad Al-Daly
Linguistics department- College of Arts - Kuwait University

Pro. Mohammad Mohammad Abu Musa
Department of Rhetoric and Criticism- Faculty of Arabic Language- Al-Azhar University

Prof. Nawal, Bint of Ibrahim Al-Hilweh
Arabic Language department- Faculty of Arts - Princess Nourah Bint Abdul Rahman University

Prof. Yusef Ibn Abdullah Al-Aliwi
Department of Rhetoric and Criticism- College of Arabic Language- Al- Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University

Editorial-secretary
Prof. Mamdouh Ibrahim Mahmoud

Deanship of Scientific Research

Chief Administrator
H.E.Prof. Ahmed Ibn Salem AL-Ameri
President of the University

Deputy Chief Administrator
Prof. Abdullah ibn Abdulaziz Al-Tamim
Vice Rector for Graduate Studies and Scientific Research

Editor –in- Chief
Prof. Saud Ibn Abdulaziz Al-Hanin
Grammar Department- College of Arabic Language

Managing Editor
Dr.Ibrahim Ibn Nasser Al-Shakari
vice Deanship of Scientific Research